كولين مكلو

طيور الشوك

رواية

«في ثلاثة أجزاء»

ترجمتها عن الانكليزية

نضال حوّاط

٣

بسم الله الرحمن الرحيم

دمشق : منطقة المزة (3) - حي الجلاء (5) شارع كعب بن مالك
(طلعة الإسكان سابقاً) بناء رقم (2) – ص.ب : 16035
هاتف: 6618013 - 6618961 تلفاكس: 6618820 - برقياً: طلاسدار
E-mail:info@dartlass.com Website:www.dartlass.com

مكتبة دار طلاس - برج دمشق - مقابل وزارة الداخلية - هاتف: 2319558

ريع الدار لهيئة مدارس
أبناء و بنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

طيور الشوك

اسم الكتاب باللغة الانكليزية

THE THORN BIRDS

COLLEEN McCULLOUGH

الكتاب الخامس

في

١٩٣٨ ـ ١٩٥٣

الفصل الرابع عشر

لم تكن ميغي تريد إبلاغ أحد بعودتها، فوصلت إلى دروغيدا على متن شاحنة البريد برفقة بلوي ويليامز العجوز، وقد وضعت جوستين في سلة بقربها. وكان بلوي بالغ السعادة برؤيتها، ومتشوقاً ليعرف ما فعلته خلال هذه السنوات الأربع الأخيرة. ولكنه صمت عندما اقترب من المنزل وقد شعر أنها تريد أن تصل إلى البيت بهدوء.

لقد عادت من جديد إلى ذلك اللون البني والفضي، عادت إلى الغبار، وإلى ذلك النقاء الرائع الذي تفتقده كوينزلاند الشمالية. فلا نموّ مسرف هنا، ولا تسارع إلى التلاشي من أجل إفساح المجال لأكثر وأكثر، ليس هناك إلا ديمومة بطيئة مثل دورة الكواكب. كان الكنغر وفيراً كعادته، لا بل أكثر، وشجرات

الويلغا الصغيرة جميلة متناسقة، مكورة كامرأة سمينة وخجول. وكانت طيور الغالا تحلق في موجات وردية فوق الشاحنة، والأمو يجري بأقصى سرعته. أما الأرانب، فقد كانت تنط مبتعدة عن الطريق مثل كرات من القطن الأبيض المنفوش. وبين الأعشاب انتصبت هياكل الأشجار الميتة، وقد فقدت لونها، ومن بعيد كانت الدغلات تلمع على الأفق المنحني مثل السراب، بينما كانوا يجتازون سهول ديان ـــ ديان، ولا يشي بوجودها الحقيقي إلا الخطوط الزرقاء على جذوعها. وكان هناك أيضاً الأصوات التي افتقدتها ولم تكن تتصور أنها ستفتقدها: نعيق الغربان الحزين. أما الغبار، فقد كان يتصاعد في غلائل رقيقة سمراء تدفعها الريح الخريفية الجافة، وتذكرها بستائر المطر القذرة؛ وعشب الشمال الغربي الفضي اللون يمتد حتى السماء مثل البَرَكة الإلهية.

دروغيدا، دروغيدا! أشجار الصمغ وأشجار الفلفل العملاقة التي تضج بأزيز النحل. مرابط المواشي وأبنية حجرية قشدية اللون مصفّرة. مروج خضراء غريبة حول المنزل الكبير، وأزهار الخريف في الحديقة: منثور وزينيا، وزهرة النجمة، والأضاليا، والقطيفة، والأقحوان والورود. الورود. وحصى الدار

الخلفية ، والسيدة سميث وقد انتصبت على العتبة فاغرة الفم ، وهي تضحك ثم تبكي ، وميني وكات وقد ركضتا تعقدان أذرعهما العجوز كالسلاسل حول قلبها . فدروغيدا كانت بيتها ، وهناك كان قلبها ، إلى الأبد .

وخرجت « في » لترى سبب الضجة .

ـــ مرحبا يا أماه ، لقد عدت إلى البيت .

ولم تتغير العينان الرماديتان ، ولكن ميغي ، وقد نضجت الآن ، فهمت . كانت أمها سعيدة ، ولكنها لا تعرف كيف تظهر سعادتها .

ـــ هل تركت لوك ؟

سألتها « في » وهي واثقة أن من حق السيدة سميث والخادمتين أن يعلمن بما يجري ، مثلها تماماً .

ـــ نعم . إني لن أعود إليه أبداً . إنه لا يريد بيتاً ، ولا أطفاله ، ولا يريدني .

ـــ أطفاله !

ـــ نعم ، إني أنتظر طفلاً آخر .

وتعالت آهات التعجب من **الخادمات**، ونطقت «**في**» بحكمها بصوت رصين يحاول أن يخفي سرورها:

ـ إن لم يكن يرغب بك فلقد أحسنت بالعودة إلى البيت. إن باستطاعتنا العناية بك.

غرفتها القديمة المطلة على المرج، والحدائق. وغرفة ملاصقة لجوستين وللطفل المنتظر، عندما يولد. آه يا للذة العودة إلى البيت!

كان بوب أيضاً سعيداً برؤيتها، ولقد أصبح الشبه بينه وبين بادي قوياً، وكان قد انحنى قليلاً وتعقدت مفاصله، وقد كوت الشمس جلده وجففته حتى العظام. كان مثل بادي تماماً، بلطفه وقوة شخصيته، ولكن صبغة الأبوة التي كان بادي يملكها كانت تنقصه، ربما لأنه لم ينجب أسرة كبيرة. وكان مثل «في» أيضاً، هادئاً سيد نفسه، لا يفصح عن مشاعره وآرائه. كان يقارب الخامسة والثلاثين من عمره، وفكرت ميغي بدهشة مفاجئة أنه لا يزال عازباً. ثم وصل جاك وهوغي، نسختين عن بوب، ولكن بدون سلطته، مرحبين بها بابتسامتهما الخجول.

لا بد أن ذلك كان السبب، فكرت ميغي، إنهم شديدو

الخجل، إن الأرض هي السبب، فالأرض لا تحتاج للنطق ولا لعبارات المجاملة، وهي لا تحتاج إلا لما يحملونه إليها، إلى حب صامت، وخضوع لا يكل.

كان كل شبان العائلة في البيت ذلك المساء لإفراغ حمولة شاحنة كان جيمس وباتسي قد أتيا بها من المؤسسة في غيللي.

ــ «لم أر مثل هذا الجفاف من قبل يا ميغي»، قال بوب. «فمنذ سنتين لم يسقط المطر، ولا قطرة واحدة. والأرانب ألعن من الكناغر، فهم يأكلون أعشاباً أكثر من الخراف والكناغر سوية. سنحاول أن نطعم الخراف باليد، ولكنك تعرفين الخراف».

كانت ميغي تعرف الخراف جيداً، غبية، لا تستطيع فهم أي شيء، حتى أبسط الأمور من أجل البقاء على قيد الحياة. أما القليل من الدماغ الذي كانت تملكه الحيوانات بالأساس، فلم يبق منه ذرة في هذه الحيوانات الارستقراطية المنتجة للصوف. ولن تأكل الخراف شيئاً آخر إلا العشب أو النبات الذي قطع من بيئتها الطبيعية. ولكن لم يكن هناك أيد كافية لقطع النباتات وتغذية أكثر من مئة ألف رأس.

ـــ أظن أن باستطاعتكم استخدامي.
ـــ بالفعل. إن باستطاعتك تحرير أحد الرجال لقطع الأعشاب يا ميغي إذا اعتنيت بالمراعي الداخلية كما كانت عادتك.

كان التوأمان قد بقيا عند كلامهما وعادا إلى البيت نهائياً. فعندما بلغا الرابعة عشر، غادرا معهد «ريفرفيو» مسارعين بالعودة إلى السهول السوداء. وفي ذلك الوقت كانا يبدوان مثل جاك وهوغي وبوب في شبابهم وهما يرتديان ملابس الرعاة التي حلّت تدريجياً محل الفانيلا والجوخ الرمادي اللذين كانا شائعين في الشمال الغربي: بنطالاً أبيض من المخمل المضلع وقميصاً أبيض، وقبعة رمادية مسطحة من الجوخ ذات حافة عريضة، يرافق ذلك جزمة قصيرة للركوب ذات كعب مسطح. ولم يعد هناك إلا قلة من الخلاسيين الذين كانوا يعيشون في أحياء غيللي الفقيرة ممن يقلدون رعاة البقر الأميركيين، إذ كانوا يلبسون جزمات طويلة ذات أكعاب عالية، وقبعات ضخمة تتسع لعشر غالونات. وبالنسبة لسكان السهول السوداء، فمثل هذه الملابس كانت نوعاً من الادّعاء الذي لا طعم له، جزءاً من حضارة غريبة تماماً. لم يكن باستطاعة شخص أن يمشي بين الأعشاب بجزمة عالية الكعب،

وكان الرجال مضطرين للسير بين الأعشاب. أما القبعات الضخمة فقد كانت ثقيلة جداً ولا تتناسب وحرارة المناخ المرتفعة.

كانت الفرس الكستنائية قد نفقت من زمن، وكانت الاصطبلات فارغة. وأصرت ميغي على أنها راضية بحصان جر عادي، ولكن بوب ذهب إلى مارتن كنغ واشترى لها اثنين من جياده النصف الأصلية: فرساً بيضاء ذات عرف وذيل أسودين، وجواداً كستنائياً.

وقد صدمت ميغي بفقدان الفرس الكستنائية العجوز أكثر من صدمتها لفقدان رالف، وكنوع من رد الفعل المتأخر، كما لو أن رحيله قد تأكد أكثر بفعل موت الفرس. ولكنها كانت سعيدة بعودتها ثانية إلى المراعي، بقيادة الكلاب، بتنشق الغبار المرتفع من حوافر القطعان، وبرؤية العصافير والسماء والأرض. كان الجفاف مروّعاً. كانت أعشاب دروغيدا تقاوم الجفاف عادة كما كانت ميغي تتذكر، ولكن هذا الجفاف كان مختلفاً. فالأعشاب كانت قليلة، عبارة عن باقات ضئيلة تظهر من بينها الأرض السوداء المتشققة في شبكة من الخطوط الدقيقة، فاغرة كشفاه ظمأى. وكان ذلك بسبب الأرانب. فخلال السنوات الأربع التي غابت فيها

ميغي عن دروغيدا، كانت الأرانب قد تكاثرت بشكل عجيب، مع أنها كانت تشكل كارثة قبل ذلك بكثير. ولكن الذي حصل هو أن أعداد الأرانب، وخلال ليلة واحدة تقريباً، تجاوزت حد الإشباع، فانتشرت في كل مكان تأكل الأخضر واليابس. وتعلمت ميغي أن تضع الأفخاخ للأرانب مع أنها كانت تكره رؤية المخلوقات الجميلة البيضاء وقد قبضت عليها الأسنان المعدنية، ولكنها كانت تحب الأرض كثيراً ولا تتورع عن القيام بما يجب عليها. فالقتل باسم البقاء لم يكن قسوة.

ــ لعن الله الانجليزي اللعين الذي دفعه الحنين إلى وطنه إلى نقل أول أرنب من انجلترا. قال بوب بمرارة.

لم يكن أصل الأرانب استرالياً، وكان استيرادها لسبب عاطفي قد قلب الموازين الطبيعية في القارة، بينما لم تفعل ذلك الخرفان ولا الأبقار التي كانت تربى بطريقة علمية منذ مجيئها. ولم يكن هناك حيوان استرالي مفترس يقضي على الأرانب، كما أن الثعلب المستورد لم يتأقلم مع المناخ. وكان على الانسان أن يقوم بعمل الحيوان المفترس، ولكن البشر كانوا قلة والأرانب كثرة.

○

وعندما تضخم بطن ميغي ولم يعد بإمكانها ركـوب الخيل، أصبحت تمضي وقتها في المنزل بصحبة السيدة سميث وميني وكات، وهن يخطن الثياب ويحكـن الصوف للكائـن الصغير الذي كان يتحرك في أحشائها. كان الطفل (كانت تفكر به دائماً بالمذكر) جزءاً منها كما لم تكن جوستين أبداً، فلم تعانِ من الغثيان، ولم تشعر بالكآبة، وكانت تتطلع إلى اليوم الذي ستضعه فيه. ربما كانت جوستين مسؤولة نوعاً ما، ومن غير قصد، عن جزء من هذا. فلقد تحولت الطفلة ذات العينين الشاحبتين من طفل بلا عقل إلى فتاة صغيرة حادة الذكاء، ووجدت ميغي نفسها مأخوذة بهذا التغير وبالطفلة نفسها. كان عدم مبالاتها بجوستين قد تلاشى منذ مدة طويلة وأصبحت تواقة لاغداق حبها على ابنتها لاحتضانها، وتقبيلها، والضحك معها. ولقد صدمت عندما صدتها الطفلة بتهذيب، ولكن هذه كانت طريقة جوستين أمام مظاهر الحنان.

عندما غادر جيمس وباتسي معهد «ريفرفيو»، فكرت السيدة سميث بأن تأخذهما من جديد تحت جناحيها، ثم اكتشف بخيبة أمل شديدة أنهما كان يقضيان غالب وقتهما

خارجاً في المراعي. وهكذا التفتت السيدة سميث إلى جوستين، وتلقت نفس الصد الصارم الذي تلقته ميغي. ولم تكن جوستين، على ما يبدو، ترغب في أن يعانقها أحد، أو يقبلها، أو يحاول إضحاكها.

ومشت وتكلمت مبكرة، وكان عمرها تسعة أشهر. وعندما وقفت على قدميها وأصبح بإمكانها التحكم بلسانها بدقة، أخذت تتصرف بطريقتها الخاصة وتفعل ما ترغب به تماماً. ولا يعني هذا أنها كانت صاخبة أو متحدية، ولكنها ببساطة كانت قد قُدَّت بالفعل من معدن شديد الصلابة. ولم تكن ميغي تعلم شيئاً عن الوراثة والمورثات، والّا لكانت قد فطنت إلى المزيج الجبار الذي نتج من اختلاط آل كليري وارمسترونغ واونيل.

ولكن الشيء الأكثر اثارة للدهشة كان رفض جوستين العنيد للابتسام أو الضحك. ولم يبق في دروغيدا شخص لم يحاول بكل الوسائل أن يخلق شبح ابتسامة على وجهها، ولكن بدون جدوى. ولقد جاوزت جوستين جدتها بوقارها الطبيعي. وفي الأول من تشرين الأول، وعندما بلغت جوستين الشهر

السادس عشر من عمرها تماماً، رأى ابن ميغي النور في دروغيدا، ولم يكن أحد يتوقع قدومه، إذ ولد قبل موعده بحوالي أربعة أسابيع؛ وشعرت ميغي بتقلص حاد مرتين أو ثلاث، وانسكب الماء، وولد الصبي على يدي السيدة سميث و «في» بعد أن طلبوا الطبيب بدقائق. وكان ألم ميغي ضئيلاً، واجتازت التجربة بسرعة خاطفة حتى وكأنها لم تجتزها. وبالرغم من الغرزات التي اضطر الطبيب أن يصنعها بسبب خروج الطفل السريع إلى العالم، فقد كانت تشعر أنها بأحسن حال. وبعكس ما حدث مع جوستين، حيث لم تكن ميغي تملك نقطة من الحليب، فقد كان صدرها مليئاً تماماً هذه المرة، ولم تكن هناك حاجة للرضاعات وعلب اللاكتوجين.

وكان الطفل جميلاً جداً، طويلاً ونحيلاً، وقد توّج رأسه الجميل شعر أشقر ناعم، وكانت عيناه زرقاوين مشرقتين، ولا شيء يدل على أن لونهما سيتغير فيما بعد. وكيف يتغيران؟ لقد كانتا عيني رالف دو بريكاسار، كما كانت يداه وأنفه وفمه، وحتى قدماه. وكانت ميغي سعيدة لأن لوك كان شديد الشبه برالف من حيث البنية واللون والتقاطيع. ولكن اليدين، وطريقة التقاء

الحاجبين، والخصلات العنيدة، وشكل أصابعه، كلها كانت أقرب إلى رالف منها إلى لوك. ومن الأفضل ألّا يتذكر أحد صاحب هذه التقاطيع.

ــ هل قررت ما ستسميه؟ سألتها «في» وهي تبدو مسحورة أمام الولد.

ونظرت إليها ميغي وهي واقفة تحمل حفيدها، وشعرت بالفرح. كانت أمها في طريقها للحب ثانيـة. آه، ربما ليس بالطريقة نفسها التي أحبت بها فرانك، ولكنها على الأقل ستشعر بشيء ما.

ــ سوف اسميه «دين».

ــ يا للاسم الغريب! لماذا؟ هل هو اسم شائع في عائلة اونيل؟ كنت أظن أنك قد انتهيت تماماً من هؤلاء الـ «اونيل».

ــ ليس هناك علاقة لهذا الاسم بلوك. هذا اسم الطفل وليس اسم أي شخص آخر. إني أكره أسماء العائلة، فذلك كما لو أنك تتمنين أن تضعي في المخلوق الجديد شيئاً من شخص قديم مختلف تماماً. لقد سميت جوستين باسمهـا هذا لمجرد أننـي أحببت الاسم، وها أنا أسمي «دين» باسمه للسبب نفسه.

ــ حسناً، إن له موسيقى جميلة.

وتقلصت أسارير ميغي . كان صدرها مليئاً :

ــ من الأفضل أن تعطينيه يا أماه . آه ، آمل أن يكون جائعاً ، كما أرجو ألّا ينسى بلوي أن يأتيني بسحّابة الحليب ، وإلّا فعليك أن تذهبي إلى غيللي وتأتيني بها .

كان جائعاً ؛ وشد على ثديها بقسوة ، وآلمها فمه الصغير اللين . وعندما نظرت إليه ميغي ، إلى العينين المغمضتين ، برموشهما الذهبية الداكنة ، وجفنيهما الرقيقين ، وإلى الخدين الدقيقين يمصان الحليب ، شعرت بأنها تحبه لدرجة الألم ، ألم أقوى بكثير مما يمكن أن يسببه فمه الصغير .

إنه يكفيني ، يجب أن يكفيني ، فلن أحصل على شيء آخر . ولكن قسماً بالله يا رالف دو بريكاسار ، قسماً بالله الذي تحبه أكثر مني ، إنك لن تعلم أبداً بما سرقته منك ــ ومنه . لن أخبرك أبداً عن دين . آه يا طفلي ! واستدارت على الوسادة لتضعه في وضع مريح على ذراعها ، وليتسنى لها رؤية الوجه الصغير الجميل بوضوح . يا طفلي ! إنك لي ، ولن أعطيك أبداً لمخلوق آخر ، وآخرهم والدك الكاهن الذي لا يمكنه الاعتراف بك . أليس هذا رائعاً ؟

○

رسا المركب في جنوة في أول نيسان. ونزل الأسقف رالف دو بريكاسار في ايطاليا، وكان الربيع في أوجه فاستقل قطاراً إلى روما. ولو أنه رغب بذلك لكان هناك من يستقبله وينقله في سيارة الفاتيكان إلى روما، ولكنه كان يخشى من أن يشعر بالكنيسة تطبق عليه ثانية، كان يرغب بتأجيل ذلك أكثر ما يمكنه. المدينة الخالدة. كان ذلك صحيحاً، فكر وهو ينظر من نافذة سيارة الأجرة إلى القباب والأجراس، وإلى الساحات المرصعة بالحمام، والنوافير المغرورة، والأعمدة الرومانية وقد دفنت قواعدها في أعماق العصور الغابرة. حسناً، كانت هذه كلها مظاهر لا أكثر. والذي كان يهمه في روما هو ذلك الجزء المدعو «فاتيكان»، بقاعاته الفخمة، وشققه الخاصة البعيدة كل البعد عن الفخامة. وقاده راهب دومينيكاني، مرتدياً رداء أسودَ وقشدياً، عبر الممرات المرمرية بين التماثيل البرونزية والحجرية التي تليق بمتحف، ومرّا أمام لوحات من أعمال جيوتو ورافائيل ويوتيتشيللي وفرا انجيليكو. كان في قاعة الاستقبال الخاصة بكاردينال عظيم، ولا شك في أن عائلة دي كونتيني فيركزي الثرية قد أعطت الكثير لتزيين مقام ولدها العظيم.

وفي قاعة عاجية مذهبة، غنية بألوان لوحاتها ونسيجها

المزين بالرسوم، وقد فرشت بأثاث وسجاد فرنسيين، وزينتها هنا وهنـاك لمسات قرمزيـة، جلس فيتوريـو سكاربانـزا، كاردينـال دي كونتيني فيركيزي. كان يمد له يده الصغيرة الناعمة وقد التمع بها الخاتم العقيقي، يستقبله. كان رالف سعيداً لتمكنه من إخفاض بصره وهو يجتاز الغرفة ثم يركع ويتناول اليد الممدودة ليقبّل الخاتم ثم يلقي بخده على تلك اليد وهو يعلم أنه لن يستطيع الكذب مع أنه كان ينوي ذلك حتى اللحظة التي لامست بها شفتاه رمز القوة الروحية والسلطة الزمنية. ووضع الكاردينال فيتوريو يده الثانية على الكتف المحنية أمامه وهو يشير برأسه إلى الراهب كي ينسحب. وعندما انغلق الباب بلطف، ذهبت اليد من الكتف إلى الرأس، واستقرت على شعره الداكن السميك وهي تمسده إلى الخلف برفق، بعيداً عن جبهته المنخفضة. كان الشعر قد تغير، وقريباً لن يبقى أسودَ، وإنما سيكون بلون الصلب. وتصلب الظهر المنحني، واستقامت الكتفان، ونظر الأسقف رالف مباشرة في عيني سيده.

آه، هناك تغير حتماً! كان الفم قد شُدَّ، وقد عرف الألم وبدا أكثر حساسية؛ وكانت العينان الجميلتان بلونهما وشكلهما مختلفتين تماماً عن العينين اللتين كان يذكرهما كما لو أنهما لم تفارقاه

أبداً. كان يحلو للكاردينال فيتوريو أن يفكر بأن عيني يسوع كانتا زرقاوين، وكعيني رالف: هادئتين، بعيدتين عما تنظران إليه؛ قادرتين مع ذلك على استيعاب كل شيء. ولكن ربما كان هذا تخيلاً خاطئاً. كيف يشعر الانسان بألم الانسانية فيتألم دون أن يبدو ذلك في عينيه؟

ــ تعال يا رالف. اجلس.

ــ يا نيافة الكاردينال، إني أريد أن أعترف.

ــ فيما بعد، فيما بعد! أولاً سنتحدث، وبالانجليزية. هناك آذان صاغية في كل مكان هذه الأيام. ولكن شكراً ليسوع الرب، فهذه الآذان لا تفهم الانجليزية. اجلس يا رالف، آه إني مسرور برؤيتك! لقد اشتقت لنصائحك الحكيمة، ولتعقلك، ولرفقتك المبهجة. إنهم لم يعطوني انساناً أستطيع أن أحبه بمقدار نصف ما أحبك.

كان بإمكانه أن يشعر بدماغه يصطبغ بالرسميات، ويحس بأفكاره تصبح متكلفة؛ فرالف دو بريكاسار، أكثر من غيره، يعلم كيف يتحول الانسان تبعاً لمن يعاشر، حتى في طريقة الكلام. والانجليزية العامية لا تليق بهاتين الأذنين. وهكذا جلس،

غير بعيد، يواجه مباشرة الشخص النحيل بردائه القرمزي المموج، ولون ذلك الرداء يتغير دون أن يتغير، إذ أنه صنع من قماش خاص بحيث تمحّي أطرافه مع ما يحيط به بدلاً من أن تبرز بشدة.

وبدا أن ثقل الارهاق الذي يشعر به منذ أسابيع قد خفّ قليلاً عن كتفيه، وتساءل عن سبب خشيته لهذه المقابلة مع أنه كان يعلم في أعماق قلبه أنه سيقابل بالتفهم والغفران. ولكن الأمر لم يكن هكذا، مطلقاً. كان الأمر شعوره بالذنب لذلته، لكونه أقل مما كان يطمح أن يكون، لأنه خيب أمل رجل يهتم به، شديد اللطف، صديق حقيقي. كان يشعر بالذنب لوجوده أمام هذا الكائن النقي وهو نفسه غير نقي.

ــ إننا كهنة يا رالف، ولكننا قبل ذلك شي آخر، شيء كنّاه قبل أن نصبح كهنة، ولا يمكننا الهرب منه رغم وضعنا المميز الاستثنائي. نحن بشر، ولنا كل ضعف البشر وذلّاتهم. ويمكنك أن تخبرني بأي شيء، فلن يغير ذلك الفكرة التي كونتها عنك خلال السنوات التي قضيناها سوية. ومهما أخبرتني فلن يجعلني ذلك انقص من قيمتك أو من اعزازي لك. لسنوات عديدة كنت أعلم أنك كنت تهرب من الاقرار بضعفنا

البشري الطبيعي، ولكني كنت أعلم أنك ستصل إلى هذا، لأننا كلنا نتوصل إليه. حتى الأب الأقدس، الذي هو أكثرنا تواضعاً وبشرية.

ــ لقد نقضت نذوري يا سيدنا. وهذا لا يغفر بسهولة. إنه تدنيس.

ــ لقد نقضت نذر الفقر منذ زمن بعيد، عندما قبلت هبة ميري كارسون. وهذا يترك العفة والطاعة، أليس كذلك؟

ــ إذن لقد نقضت الثلاثة، نيافتك.

ــ أتمنى لو تناديني بـ «فيتوريـو» كما كانت عادتك. إنك لم تصدمني يا رالف، ولم تخيب أملي. هذه ارادة سيدنا يسوع المسيح، وأنا أظن أنه كان عليك أن تتلقن درساً كبيراً لم يكن بإمكانك تلقنه بطريقة أقل تخريباً. إن طرق الرب خفية، وأعمق بكثير من مدى تفهمنا الحقير، وأعتقد أنك لم تفعل ما فعلته بخفة، ولم تلقِ بنذورك بعيداً وكأنها بدون قيمة. إني أعرفك جيداً، وأعلم أنك متكبر وتعشق فكرة كونك كاهناً، وتقدر تماماً وضعك المميز. ومن المحتمل أنك كنت بحاجة لهذه الأمثولة الخاصة للتخفيف من تعاليك، ولكي تفهم أنك أولاً

وقبل كل شيء انسان، وبالنتيجة فأنت غير استثنائي للدرجة التي تتصورها. أليس كذلك؟

ــ نعم. لقد كان التواضع ينقصني، وأظن أني كنت أتوق نوعاً ما لأن أكون الإله بالذات. ولقد أخطأت خطأً جسيماً وبدون أي عذر، ولا أستطيع أن أغفر لنفسي، فكيف أطمح بالغفران الالهي؟

ــ الكبرياء يا رالف، الكبرياء! إن المغفرة ليست من اختصاصك أنت، ألم تفهم ذلك حتى الآن؟ إن الله وحده يستطيع المغفرة. الله وحده. وهو سيغفر إذا كانت التوبة صادقة. لقد غفر آثاماً أكبر بكثير لقديسين أعظم منك بكثير، كما تعلم، وللخاطئين أكبر بكثير. هل تعتقد أنه لم يصفح عن الأمير لوسيفر؟ لقد صفح عنه في لحظة تمرده. وأما مصيره كملك للجحيم فهو من صنعه وليس من صنع الله. ألم يقل ذلك؟: «من الأفضل أن أكون ملكاً في الجحيم من أن أكون خادماً في السماء»! لأنه لم يكن بقدرته التغلب على كبريائه، لم يكن يحتمل أن يخضع ارادته لارادة آخر حتى لو كان هذا الآخر هو الله بالذات. ولا أريدك أن تقع في الغلطة نفسها، يا أعزّ صديق لي. إن التواضع هو الصفة الوحيدة التي تنقصك،

وهي الصفة الحقيقية التي تصنع القديسين أو الرجال العظماء. وإذا لم تترك مسألة الغفران لله فإنك لن تتحلى بالتواضع.

وتقلص الوجه القوي:

ــ «نعم، إني أعلم أنك على حق، وأن علي أن أقبل بواقعي دون سؤال، وأن أحاول جهدي لأن أكون أفضل دون كبرياء. إني أتوب حقاً، وسأعترف وأنتظر الغفران. إني تائب، بمرارة».

وتنهد وعيناه تشيان بالصراع الذي تخفيه كلماته الموزونة:

ــ ومع ذلك يا فيتوريو، لم يكن بامكاني أن أتصرف بشكل آخر. إمّا أن أحطمها أو أحطم نفسي. وفي ذلك الوقت لم يكن يبدو لي أن هناك أي خيار، لأني أحبها حقاً. لم تكن غلطتها إذا لم أرغب أبداً أن يمتد الحب إلى العلاقات الجسدية. ثم أصبح مصيرها أكثر أهمية من مصيري. هل تفهم؟ وحتى تلك اللحظة، كنت أضع نفسي في المقام الأول، وكأني أكثر أهمية منها، لأني كاهن، وهي مجرد كائن أقل شأناً. ولكنني رأيت أنني مسؤول عما هي عليه... كان علي أن أدعها وشأنها عندما كانت طفلة، ولكني لم أفعل. وحملتها في قلبي، وكانت تعلم ذلك. لو أنني صددتها حقاً منذ ذلك الوقت، لكانت

قد علمت ذلك أيضاً، ولأصبحت شخصاً آخر لا سلطة لي عليه ــ وابتسم ــ كما ترى، علي أن أندم على أشياء كثيرة. لقد جربت أن «أخلق» انساناً بمقدرتي.

ــ أكانت هي «الوردة»؟

وألقى رالف برأسه إلى الوراء ناظراً إلى السقف بنقوشه الرائعة، وزخارفه المذهبة، وثرياته الغنية:

ــ وهل يمكن أن تكون غيرها؟ إنها تجربتي الوحيدة لـ «الخلق».

ــ وهل ستكون بخير، تلك الوردة؟ أو لم تسيء إليها أكثر مما كنت ستفعل لو امتنعت عنها؟

ــ لا أعلم يا فيتو ريو، وأتمنى لو كنت أعلم! لقد بدا لي في ذلك الحين وكأنه الأمر الوحيد الذي يجب القيام به. وأنا لا أستطيع قراءة المستقبل، كما أن الارتباط العاطفي يجعل من الانسان قاضياً عقيماً. وفضلاً عن ذلك، فقد... حصل الأمر! ولكني أعتقد أنها كانت تحتاج أكثر من حاجتها لأي شيء آخر إلى ما أعطيته لها، وهو الاعتراف بكونها امرأة. لست أقصد أنها لم تكن تعلم أنها امرأة، ولكني أقصد أنني لم أكن أدري ذلك. ولو قابلتها في البدء كامرأة، لاختلف الأمر، ولكني عرفتها طفلة لسنوات عدة.

ـــ إنك تبدو متباهياً بنفسك يا رالف، ولست على استعداد حالياً لتلقي المغفرة. أليس من المؤلم أن تكون قد برهنت عن بشريتك بإذعانك للضعف البشري؟ وهل قمت بذلك فعلاً بدافع من روح التضحية النبيلة؟

ونظر رالف بدهشة إلى العينين الداكنتين، ورأى بهما انعكاسين لصورته، وجهين شديدي الصغر.

ـــ كلا، إنني إنسان، وكإنسان وجدت فيما فعلت لذة لم أكن أتوقعها. لم أكن أعلم أن المرأة تعطى هذا الاحساس، وأن بإمكانها أن تكون منبع هذا الفرح العميق. لم أكن أرغب في تركها مطلقاً، ليس فقط بسبب جسدها، وإنما لأنني أحببت وجودي معها، أحببت أن أتحدث إليها، وألّا أتحدث إليها، أن آكل الطعام الذي تحضره، وأن أبتسم لها وأشاركها أفكارها. وسوف أفتقدها ما حييت.

وفي الوجه المتقشف الشاحب، رأى شيئاً ذكّره بطريقة غير عادية بوجه ميغي في لحظة الوداع، منظر عبء روحي، وتصميم طبع قادر على التقدم رغم العبء الذي يثقل كاهله، رغم الحزن والألم. ما الذي يعرفه الكاردينال ذو الرداء القرمزي الحريري، والذي يبدو وكأنّ لا أحد يهمه إلّا قطته الزرقاء؟

ـــ أنا لا أستطيع التوبة عما عرفته معها بهذا الشكل . ـــ تابع رالف عندما لم يجب الكاردينال ـــ إني أتوب عن نقضي لنذوري التي تربطني كحياتي . لن أستطيع أن أقوم بواجباتي الكهنوتية على الضوء السابق نفسه ، وبالحرارة السابقة نفسها ، وأنا نادم على هذا بمرارة . أما ميغي ؟

وعندما نطق باسمها ، أشاح الكاردينال بوجهه بسبب ما , أي على وجه رالف ، ولكي يصارع أفكاره هو .

ـــ أن أتوب عن ميغي ، فذلك يعني أني أقتلها ، ـــ ومر بيده المتعبة على عينيه ـــ لست أدري إذا كان ذلك واضحاً ، أو إذا كان يقارب ما أريد التعبير عنه . يبدو أني لن أستطيع طوال حياتي التعبير عما أشعر به نحو ميغي بطريقة مناسبة .

وانحنى إلى الأمام على كرسيه ، بينما كان الكاردينال يستدير ، ورأى صورته المزدوجة تكبر قليلاً في عينيه ، وكانت عينا فيتوريو كمرآتين تعكسان ما تريان ، ولا تسمحان لأحد أن يلمح ما يدور وراءهما . كانت عينا ميغي بعكس ذلك تماماً . كانتا عميقتين ، عميقتين ، عميقتين ، يصل عمقهما إلى روحها .

ـــ إن ميغي بَرَكة، إنها شيء مقدس بالنسبة لي، سر مقدس من نوع مختلف.

ـــ «نعم، إني أفهم ذلك» قال الكاردينال متنهداً. «ولا بأس أن تشعر بذلك. لأني أظن أن ذلك يخفف من الخطيئة في عيني الرب الهنا. إني أنصحك لمصلحتك أنت، أن تعترف للأب جورجيو أو للأب غيليرمو. الأب جورجيو لن يسيء فهم مشاعرك وطريقة تفسيرك، فهو سيرى الحقيقة؛ أما الأب غيليرمو فهو أقل تفهماً، ومن الممكن أن يشك في توبتك الحقيقية». وبدا على فمه الرفيع شبح ابتسامة مثل خيال عابر. «إن الذين يسمعون اعتراف العظماء هم بشر أيضاً. لا تنس ذلك طوال حياتك. إنما، ومن خلال كهنوتهم فهم يعملون وكأنهم نواب الله على الأرض. وما عدا ذلك فهم بشر. والمغفرة التي يهبونها تأتي من الله، ولكن الآذان التي تُصغي وتحكم تبقى آذاناً بشرية».

وطُرق الباب طرقات خفيفة؛ وجلس الكاردينال فيتوريو بصمت ينظر إلى صينية الشاي وهي توضع على الطاولة.

ـــ هل ترى يا رالف؟ منذ كنت في استراليا، اعتدت على تناول

الشاي بعد الظهر . إنهم يحضرونه بطريقة جيدة في مطبخي ولكنهم كانوا عاجزين عن ذلك في أول الأمر .

ورفع يده حين بدأ الأسقف رالف يسير نحو وعاء الشاي :

ـــ كلا ، سأصبه بنفسي . إني أستمتع بالقيام بدور « الأم » .

ـــ لقد رأيت عدداً ضخماً من القمصان السوداء في شوارع جنوة وروما .

قال رالف وهو ينظر إلى الكاردينال .

ـــ إنهم أتباع الدوق الخصوصيون . إن أمامنا أياماً صعبة قادمة يا رالف . إن الأب الأقدس مصمم على ألّا يكون هناك أية قطيعة بين الكنيسة وحكومة إيطاليا المدنية ، وهو على حق في ذلك كما في كل شيء آخر . ومهما جرى فعلينا أن نحتفظ بحريتنا للعناية بأولادنا ، مع أن الحرب تعني أن هؤلاء الأولاد سينشقون على أنفسهم ويقاتلون بعضهم البعض باسم إله كاثوليكي . وأنّى كانت قلوبنا وأحاسيسنا ، فعلينا أن نجاهد لنحفظ الكنيسة بعيداً عن العقائد السياسية والنزاعات العالمية . لقد أردتك أن تأتي إلي لأني واثق بأن وجهك لا يشي بالأفكار التي تدور في رأسك مهما رأت عيناك ، ولأنك أفضل ديبلوماسي قابلته في حياتي .

وابتسم الأسقف رالف ابتسامة حزينة :

ــ إنك تدفعني إلى الأمام رغماً عني ، أليس كذلك ؟ إني أتساءل ماذا كان سيجري لي لو لم أصادفك ؟

ــ «آه ، كنت ستصبح أسقف سيدني ، وهي وظيفة حسنة وهامة» ، قال نيافته وعلى وجهه ابتسامة معسولة : «ولكن خيوط حياتنا ليست في يدنا . لقد التقينا لأنه كان مقدراً لنا أن نلتقي ، كما هو مقدر أن علينا أن نعمل الآن من أجل قداسة البابا .

ــ لا أستطيع أن أرى النجاح في آخر المطاف . قال رالف : أظن أن النتيجة ستكون ككل نتيجة لعدم الانحياز . فلا أحد سيؤيدنا ، والجميع سيدينوننا .

ــ إني أعلم ذلك ، والأب الأقدس يعلم ذلك أيضاً . ولكن ليس بإمكاننا اتباع نهج آخر . ولا شيء يمنعنا من أن نصلي سراً من أجل سقوط الدوق (موسوليني) والفوهرر ، أليس كذلك ؟

ــ هل تظن حقاً أن الحرب ستندلع ؟

ــ لا أرى أي مجال لتجنبها .

وغادرت الهرة الزاوية المشمسة حيث كانت ترقد ، وقفزت

إلى حضن الكاردينال القرمـزي بشيء من الوهـن. كانت قد هرمت.

ـــ آه يا شيبا! قولي مرحبا لصديقك القديم رالف الذي كنت تفضليه علي.

ونظرت العينـان الشيطانيتـان إلى الأسقـف بتعـالٍ، ثم انغلقتا. وضحك الرجلان.

الفصل الخامس عشر

كان في دروغيدا مذياع. فقد وصل التقدم أخيراً إلى غيللانبون على شكل محطة إذاعة، وأخيراً وجد الهاتف منافساً لتسلية الجمهور. كان المذياع نفسه جهازاً قبيحاً في علبة خشبية وضعت على طاولة رائعة في غرفة الجلوس، وقد أخفيت بطارية السيارة التي تغذيه في الجزء الأسفل من قطعة الأثاث.

وكل صباح كانت السيدة سميث و «في» وميغي يفتحنه للاصغاء إلى أنباء المقاطعة وأنباء الطقس، وكل مساء كانت «في» وميغي تديرانه لسماع الأخبار العالمية من الـ «آ. ب. س.». كان عجيباً حقاً أن تتصل فوراً بالخارج، أن تسمع عن الفيضانات والحرائق وتساقط الأمطار في كل جزء من البلاد، عن أوروبا القلقة،

وعن السياسيين الاستراليين، دون أن تكون بحاجة لبلوي ويليامز وصحفه القديمة. وعندما أعلنت الأنباء المحلية يوم الجمعة في الأول من أيلول أن هتلر قد اجتاح بولونيا، كانت ميغي و «في» وحدهما في المنزل، ولم تلقِ احداهما بالاً للنبأ. كانت التكهنات نشطة منذ ستة أشهر، وعدا عن ذلك فأوروبا كانت في الطرف الآخر من العالم، ولا علاقة لها بدروغيدا التي كانت مركز الكون. ولكن، ويوم الأحد في الثالث من أيلول، عاد الرجال من المراعي لسماع القداس الذي يقيمه الأب واتي توماس، وكانوا يهتمون بأوروبا. ولم تفكر ميغي أو «في» بإخبارهم عما سمعتاه يوم الجمعة؛ أما الأب واتي الذي كان باستطاعته إخبارهم فقد كان في عجلة من أمره وهو في طريقه إلى نارنغانغ.

وكالعادة كان المذياع مفتوحاً ذلك المساء لسماع الأخبار المحلية. ولكن عوضاً عن لهجة المذيع الاكسفوردية الحادة، أتاهم صوت لطيف، وهو بلا شك صوت رئيس الوزراء الاسترالي روبرت غوردون منزيس.

ـــ «أيها الاستراليون. إن واجبي المحزن يجبرني على ابلاغكم رسمياً أنه نتيجة لتصميم ألمانيا على متابعة اجتياحها لبولونيا، فقد

أعلنت انجلترا الحرب ضدها، وكنتيجة لذلك فإن استراليا أيضاً قد دخلت الحرب».

«من الممكن أن نفهم أن طموح هتلر لا يهدف إلى توحيد كل الشعب الالماني تحت لواء واحد، وإنما إلى اخضاع أكبر عدد من البلدان، بالقوة. وإذا استمر ذلك، فلن يكون هناك أمن في أوروبا ولا سلام في العالم... ومما لاشك فيه أن الشعب البريطاني في أرجاء العالم يقف حيث تقف بريطانيا...».

«إن مقاومتنا ومقاومة الوطن الأم ستقويان إذ حافظنا على استمرارية انتاجنا، وعلى أعمالنا ومهامنا ووظائفنا؛ وفي هذا قوتنا. إني أعلم أن استراليا، وعلى الرغم من أحاسيسنا، مستعدة للسير إلى آخر الطريق».

«وإني أرجو من الله الرحيم الغفور أن يخلص العالم قريباً من هذا الألم».

وخيم صمت طويل على غرفة الجلوس، قاطعته كلمة

« نيفيل شامبرلان » على الموجة القصيرة ، وهو يتحدث إلى الشعب البريطاني . ونظرت « في » وميغي إلى الشبان .

ـــ « نحن ستة إذا حسبنا فرانك » ، قال بوب مقاطعاً الصمت . « وكلنا ما عدا فرانك نعمل في الأرض ، وهذا يعني أنهم لا يريدوننا أن نلتحق بالخدمة . أظن أن هناك حوالي ستة من مربيي المواشي الموجودين عندنا حالياً سيرغبون بالرحيل ، واثنان سيبقيان » .

ـــ إني أريد الالتحاق . قال جاك وقد شعت عيناه .

ـــ وأنا . قال هوغي بحماسة .

ـــ ونحن . قال جيمس وهو يقصد نفسه وباتسي الصامت .

ولكنهم نظروا جميعاً إلى بوب ، الذي كان هو الرئيس .

ـــ علينا أن نكون متعقلين . إن الصوف هو عصب من أعصاب الحرب ، وليس فقط من أجل الملابس . فهو يستخدم في تغليف الذخيرة والمتفجرات ، ولأشياء أخرى غريبة لم نسمع بها ، وهذا أكيد . وعدا عن ذلك ، فنحن نربي الأبقار الصغيرة من أجل الأغذية ، والخراف العجز التي تعطي الجلود والصمغ والشحم واللانولين ، وكلها ضرورية للحرب » .

« وهكذا فلن نستطيع الرحيل وترك دروغيدا تدير نفسها بنفسها ، مهما رغبنا في ذلك . ومع الحرب سيكون من الصعوبة بمكان إيجاد من يحل محل مربيي الماشية الذين سنفقدهم حتماً . إن الجفاف في سنته الثالثة ، ونحن نقطع النباتات لتغذية المواشي ، والأرانب تفقدنا عقلنا . إن علينا حالياً أن نعمل هنا ، على أرض دوغيدا ؛ وهذا ليس مغرياً بالمقارنة مع المشاركة الفعلية في الحرب ، ولكنه ضروري . سنقوم بأفضل ما يمكننا هنا » .

واكفهرت وجوه الرجال ، وأشرقت وجوه النساء .

ـ وماذا لو دامت الحرب أكثر مما يتوقع بوب « الخنزير الفولاذي » ؟ سأل هوغي وهو يسمي رئيس الوزراء باسمه الشعبي .

وفكر بوب مطولاً ، وقد ملأت التجاعيد وجهه الذي أحرقته الشمس :

ـ إذا ساءت الأحوال واستمرت الحرب طويلاً ، فإني أعتقد أن بإمكاننا الاستغناء عن اثنين من العائلة ما دام عندنا مربيي مواشي . ولكن ذلك يصبح معقولاً فقط إذا وافقت ميغي على العودة إلى الركوب وإدارة المراعي الداخلية . سيكون ذلك شديد القسوة ، وفي السنين الجيدة لن يكون ذلك ممكناً ، أما في

الجفاف فأظن أنه لو عمل خمسة رجال مع ميغي سبعة أيام في الأسبوع، سنتمكن من إدارة دروغيدا. وفي هذه الحالة سيكون ذلك مرهقاً لميغي إلى جانب الطفلين.

ــ إذا كان من الضروري القيام بهذا يا بوب، فسأقوم به. قالت ميغي: إن السيدة سميث لن تتضايق من العناية بجوستين ودين. وعندما تقول إنك بحاجة إلي للمحافظة على قوة الانتاج الكاملة في دوغيدا فسأعود إلى العمل في المراعي الداخلية.

ــ إذن سيكون بالامكان الاستغناء عنا نحن الاثنين. قال جيمس مبتسماً.

ــ كلا. عني وعن هوغي. قال جاك بسرعة.

ــ الواقع أن ذلك من حق جيمس وباتسي، فهما الأصغران والأقل خبرة كمربيي ماشية، بينما نحن كلنا عديمو الخبرة كجنود. ولكنكما لم تتجاوزا السادسة عشرة أيها الولدان.

ــ عندما تسوء الأحوال سنكون قد أصبحنا في السابعة عشرة. قال جيمس: وسنبدو أكبر مما نحن عليه، وهكذا فلن تكون هناك مشكلة بالنسبة لالتحاقنا بالجيش إذا ما حملتنا رسالة توصية يشهد عليها هاري غوف.

ــ حسناً. لن يذهب أحد منكم في الوقت الحاضر. دعونا نجرب

إذا كان بالإمكان زيادة الانتاج في دروغيدا على الرغم من الجفاف والأرانب .

وغادرت ميغي الغرفة بهدوء، وصعدت إلى غرفة الأولاد . كان دين وجوستين نائمين، كل منهما في سرير مطلي باللون الأبيض . فمرت بالقرب من ابنتها وتوقفت فوق ابنها تنظر إليه لفترة طويلة :

ــ الحمد لله أنك لا تزال طفلاً .

○

ومر عام تقريباً قبل أن تدخل الحرب في عالم دروغيدا الصغير . عام ذهب خلاله مربو الماشية واحداً بعد الآخر . وتابعت الأرانب تكاثرها، وجاهد بوب بشجاعة للمحافظة على دفاتر المزرعة لائقة بالمجهود الحربي . وفي بداية حزيران من عام ١٩٤٠ وصلت الأنباء بأنه قد تمّ إجلاء القوة البريطانية عن أرض القارة الأوروبية في دونكرك، وتوافد المتطوعون في القوة الامبراطورية الاسترالية الثانية بالآلاف إلى مراكز التطوع وبينهم جيمس وباتسي .

كانت السنوات الأربع الأخيرة التي قضياها يطوفان المراعي على ظهور الخيل في كل طقس، قد قسّت وجهي التوأمين وجسميهما، ولم يبق بهما شيء من نضارة الشباب الغض، ووصلا إلى سن هادئة لا تقاس بالسنين، تدل عليها التغضنات حول العينين، والأخاديد العميقة الممتدة بين الفم والأنف. وقدّما رسالتيهما وتمّ قبولهما بدون كلام. فقد كان سكان الداخل مرغوبين جداً، إذ أنهم كانوا يحسنون الرماية ويعلمون قيمة إطاعة الأوامر، هذا فضلاً عن جَلَدهم.

تطوع جيمس وباتسي في «دبو» ولكن المعسكر كان في «انغلبرن»، خارج سيدني وهكذا ودعهم الجميع عندما استقلوا قطار الليل. وكان هناك على القطار نفسه كورماك كارمايكل، ابن ايدن الصغير، وللسبب نفسه، و كان ذاهباً إلى المعسكر نفسه، كما تكشف فيما بعد. وهكذا وضعت العائلتان أولادهما براحة في مقصورة من الدرجة الأولى، ووقف الجميع بارتباك يتمنون البكاء، وتقبيل الشبان، والحصول على شيء دافىء يتذكرونه فيما بعد. ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا وقد أمسكتهم عنه تربيتهم الانجليزية التي تمنع إظهار العواطف.

وعوت القاطرة البخارية الضخمة بصوت حزين، وبدأ رئيس المحطة ينفخ بصفارته، وانحنت ميغي لتقبّل أخويها على خديهما وهي مرتبكة قليلاً، ثم قبلت كورماك أيضاً، وكان يبدو مثل أخيه الكبير، كونور، تماماً. وشد بوب وجاك وهوغي على ثلاث أيد شابة مختلفة، وكانت السيدة سميث وحدها هي التي قبلت واحتضنت كلا منهم وهي تبكي بينما كان الجميع يموتون شوقاً للقيام بالشيء نفسه.

وقام ايدن كارمايكل وزوجته وابنته الجميلة التي بدأت تهرم بالحركات نفسها، ثم خرج الجميع إلى رصيف محطة غيللي وقد أخذ القطار يتلوى ويبتعد ببطء.

ـــ وداعاً، وداعاً. صاح الجميع ملوحين بمناديل بيضاء كبيرة حتى لم يبق من القطار إلا بقعة دخان في البعيد تحت ضوء الشمس الساطع.

وبناء على طلب جيمس وباتسي، تمّ تعيينهما سوية في الفرقة التاسعة الاسترالية بعد تدريب شكلي، وأرسلوا إلى مصر في أول عام ١٩٤١، في الوقت المناسب للمشاركة في معارك بنغازي. وكان الجنرال اروين روميل الذي وصل مؤخراً قد رمى بثقل قوات

المحور الهائل في المعركة، وقلب الأوضاع في المنطقة بفضل مجموعة من الحركات الدورانية التي كان يقوم بها في أفريقيا الشمالية. وبينما كان ما تبقى من القوات البريطانية ينسحب مخزياً أمام «جيش افريقيا» عائداً إلى مصر، أوكلت إلى الفرقة التاسعة الاسترالية مهمة احتلال طبرق والتمسك بها، وهي مركز متقدم ضمن الأراضي الواقعة تحت سيطرة دول المحور. والشيء الوحيد الذي جعل الخطة ممكنة هو كون النقطة سهلة البلوغ من جهة البحر، ومن الممكن تزويدها بالعتاد طالما استطاعت السفن الانجليزية أن تتحرك في البحر الأبيض المتوسط.

وبقي «جرذان طبرق» في أوكارهم ثمانية أشهر، وشهدوا معارك متتالية بينما كان رومل يرمي كل شيء بحوذته عليهم من وقت لآخر دون أن يتمكن من زحزحتهم.

ــ هل تعلم لماذا أنت هنا؟ سأل الجندي «كول ستوارت» وهو يلحس ورقة سيغارة كان يلفها بتكاسل.

ودفع الرقيب بوب مالوي قبعته العريضة إلى الوراء بشكل يكفي لرؤية سائله من تحت حافة القبعة:

ــ كلا وحق الشيطان. قال مكشراً عن ابتسامة ومجيباً عن السؤال المتكرر غالباً.

ــ حسناً، هذا أفضل من جرجرة نفسك في الملجأ اللعين. قال الجندي جيمس كليري هو يشد بنطال أخيه التوأم القصير قليلاً حتى يستطيع أن يريح رأسه على بطنه الدافىء.

ــ نعم، ولكنك لا تتلقى الرصاص بصورة متوالية في الملجأ. قال كول معترضاً وهو يرمي بعود الثقاب المشتعل نحو عظاءة تأخذ حمّام شمس.

ــ «إني أعلم هذا يا رفيقي». قال بوب وهو يخفض قبعته ليحمي عينيه من بريق الشمس. «إني أفضل أن أرمى بالرصاص على أن أموت من هذا الضجر اللعين».

كانوا يجلسون براحة في خندق جاف مفروش بالحصى، بمواجهة الألغام والأسلاك الشائكة التي كانت تشكل الزاوية الجنوبية الغربية للمنطقة. ومن الجهة الأخرى، كان رومل يتمسك بعناد بهذه القطعة الوحيدة من منطقة طبرق. وكان يشاركهم وكرهم رشاش ضخم من عيار ٥٠ مم، وقد رصت صناديق الذخيرة بنظام بالقرب منه، ولكن لم يكن يبدو أن أحداً يهتم به أو

يملك القوة الكافية للهجوم. وكانت بنادقهم مسندة على أحد الجدران، وحرابها تلمع تحت وهج الشمس، شمس طبرق الحادة. كان الذباب يزمزم في كل جهة ولكن الأربعة كانوا مزارعين استراليين، وهكذا فلم تشكل طبرق في افريقيا الشمالية أية مفاجأة لهم من ناحية الحر والذباب والغبار.

ــ «لحسن الحظ أنكما توأمان يا جيمس» قال كول وهو يرمي بعض الحصى على العظاءة التي لم تبد أي استعداد لمغادرة موقعها. «وإلّا لبدا منظركما مريباً وأنتما متعانقان بهذا الشكل».

ــ «أنت غيور، هذا كل ما في الأمر» قال جيمس مبتسماً وهو يداعب بطن باتسي: «إن باتسي هو أفضل وسادة في طبرق».

ــ نعم، هذا جيد بالنسبة لك، ولكن ما رأي باتسي المسكين؟ هيا يا «هاربو»، أجب ولو بكلمة. قال بوب محاولاً إثارته.

وكشفت ابتسامة باتسي عن أسنانه البيضاء، ولكنه كعادته بقي صامتاً. كان الجميع قد حاولوا حمله على الكلام ولكن لم ينجح أحد في أن يسحب منه أكثر من «نعم» أو «لا»، ونتيجة لذلك أصبح الجميع ينادمونه «هاربو» نسبة لبطل أحد الأفلام.

ــ هل سمعت الأنباء؟ سأل كول فجأة .

ــ أية أنباء؟

ــ إن مدافع الثامنة والثمانين في حلفايا قد دمرت دبابات الفرقة السابعة المشهورة «ماتيلدا» . وهذه المدافع هي الوحيدة في الصحراء الكبرى التي بامكانها أن تحمي دبابات الماتيلدا . لقد اخترقت القذائف معدن الدبابات وجعلته مثل الغربال .

ــ «هيا ، هيا . أخبرني عن شيء آخر» . قال بوب غير مصدق : «إني رقيب ولم أسمع همسة بهذا الصدد ، وأنت جندي من الدرجة الثانية وتعلم كل شيء! حسناً يا رفيق ، إن لابسي الرمادي ــ الأخضر (المبرقع) لا يملكون مدفعاً واحداً بامكانه تدمير فرقة كاملة من الدبابات» .

ــ لقد كنت في خيمة مورسهيد حيث كنت أحمل رسالة للنقيب عندما سمعت النبأ في المذياع . وهذا صحيح ، صدقني . قال كول مؤكداً .

وظل الجميع صامتين برهة . كان من الضروري على المقاتلين المقيمين في المنطقة المتقدمة المحاصرة مثل طبرق أن يؤمنوا بشدة أن معسكرهم يملك قوة عسكرية كافية لانقاذهم . والأنباء

التي أتى بها كول لم تكن مطمئنة أبداً، وخاصة أنه لم يكن هناك جندي واحد في طبرق يستخف بروميل. كانوا قد قاوموا هجمات الجنرال الألماني لاعتقادهم الوثيق بأن المحارب الاسترالي ليس له مثيل في العالم إلا مقاتلي الغوركا، وإذا كان الايمان يشكل تسعين بالمئة من القوة، فقد برهن الاستراليون عن قيمتهم.

ــ الانجليز اللعينون. قال جيمس. إن ما نحتاجه في افريقيا الشمالية هو المزيد من الاستراليين.

وارتفعت جوقة من الأصوات المؤيدة، قاطعها انفجار بقرب حافة الخندق طحن العظاءة طحناً، وأرسل الجنود ركضاً إلى رشاشاتهم وبنادقهم.

ــ «قنبلة إيطالية لعينة، كلها شظايا ولا شيء في بطنها». قال بوب وهو يتنهد بارتياح: «لو كانت تلك قنبلة هتلرية لكنا الآن نعزف على قيثاراتنا حتماً، وسيعجبك ذلك يا باتسي، أليس كذلك؟».

وعندما بدأت عملية «الصليبيين» تم إجلاء الفرقة التاسعة إلى القاهرة عن طريق البحر، بعد حصار مرهق دائم كان يبدو بدون هدف. ومع ذلك، وبينما كانت الفرقة التاسعة قائمة داخل

طبرق ، اندمجت جيوش الحلفاء التي كانت تتضخم بدون انقطاع في افريقيا الشمالية ، وشكلت الجيش الثامن البريطاني ، وكان قائدها الجديد يدعى الجنرال برنارد لو مونتغمري .

○

كانت « في » تضع في صدرها مشبكاً فضياً على شكل شمس مشرقة ، رمز القوات الجوية الاسترالية ، وتحته قطعة مستطيلة من الفضة معلقة بسلسلتين صغيرتين ، وتحمل نجمتين ذهبيتين ، كل منهما تمثل ولداً من ولديها الملتحقين بالجيش . وكان ذلك تأكيداً لكل من يقابلها بأنها هي أيضاً تساهم بنصيبها نحو الوطن . وبما أن زوجها لم يكن جندياً ، فلم يكن يحق لميغي أن تضع مشبكاً مماثلاً . كانت قد تلقت رسالة من لوك يعلمها بها أنه لا يزال يقطع قصب السكر ، وهو يقول لها هذا حتى لا تقلق وتظن أنه التحق بالجندية . ولم يكن في رسالته أي دليل على أنه يتذكر كلمة واحدة مما كانت قد قالته له في فندق انغهام . وضحكت ضحكة متعبة وهي تهز برأسها وترمي الرسالة في سلة المهملات متسائلة إذا كانت « في » تشعر بالقلق لوجود ولديها في الجيش . ما الذي تفكره حقاً عن الحرب ؟ ولكن « في » لم تفه بكلمة عن هذا الموضوع ،

فيما كانت تضع مشبكها كل يوم وطوال اليوم. أحياناً كانت تصلها رسالة من مصر، فتهوي قطعاً صغيرة عند فتحها لأن أيدي الرقابة كانت قد قصت كل كلمة فيها تلمِّح إلى اسم أماكن أو قطعات عسكرية. وكانت قراءتها نوعاً من المحاولة لحزر شيء من لا شيء، ولكنها كانت ذات فائدة وحيدة تغني عن كل شيء آخر، طالما وصلت هذه الرسائل فمعنى ذلك أن الشابين لا يزالان على قيد الحياة.

ولم يسقط المطر، وكأن الآلهة نفسها قد تآمرت لتقتل الأمل، وكان عام ١٩٤٠ هو العام الخامس من الجفاف المشؤوم، والجميع في حالة يأس. كان حسابهم في المصرف ضخماً ويكفي لابتياع كل الغذاء اللازم لابقاء القطيع حياً، ولكن أغلب الخرفان كانت ترفض الطعام. وكان لكل قطيع رئيس طبيعي، يهوذا، وعندما كانوا يتوصلون لاقناع يهوذا بالأكل، وعندها فقط، كان يمكنهم أن يأملوا بأن بقية القطيع ستأكل. وأحياناً، لم تكن رؤية يهوذا يمضغ طعامه لتؤثر اطلاقاً على البقية التي تبقى مصرة على رفضها.

وهكذا عاشت دروغيدا أيضاً نصيبها من التضحيات

الدامية، وكانت تكره ذلك. كان العشب قد انتهى تماماً، وأصبحت الأرض متسعاً داكناً متشققاً، لا يضيئه إلا بعض أدغال الأشجار الرمادية والبنية. وتسلحوا جميعهم بالسكاكين إلى جانب البنادق، وعندما كان أحدهم يرى حيواناً في حالة سيئة، كان يقطع رقبته في الحال ليوفر عليه عذاب الموت البطيء بعد أن تأكل الغربان عينيه. واقتنى بوب عدداً أكبر من الأبقار وقام بتغذيتهم يدوياً حتى يستطيع أن يتابع مساهمته في المجهود الحربي. ولم يكن في هذا أية منفعة مادية بسبب غلاء أسعار الغذاء، لأن المناطق الزراعية المجاورة كانت هي أيضاً قد تأذت من الجفاف كما حصل في مناطق تربية المواشي، ولم يكن هناك أي محصول تقريباً. ومع ذلك فقد تلقوا كلمة من روما تطلب منهم أن يعملوا كل ما كان بإمكانهم بغض النظر عن التكاليف. أما ميغي فكانت تكره أكثر من كل شيء آخر قضاء وقتها في المراعي. وكانت دروغيدا قد استطاعت الاحتفاظ بمربي ماشية واحد، وعلى ما يبدو، لم يكن هناك بدلاء عمن رحلوا، فقد كانت استراليا تشكو دائماً من قلة اليد العاملة. وظلت ميغي تعمل في المراعي سبعة أيام في الأسبوع، إلى أن لاحظ بوب ارهاقها وتذمرها، فأعطاها يوم الأحد عطلة. ومع ذلك فإن منحه هذا اليوم لميغي كان يعني أن عليه أن

يعمل بجهد أكبر ، وهكذا فقد حاولت ألا تدع الحزن يبدو عليها . ولم يخطر ببالها قط أن بامكانها أن ترفض ببساطة العمل كمربي ماشية ، متذرعة بأن طفليها بحاجة لها أ يضا ؛ وكانت تظن أن شوقها للبقاء معهما هو نوع من الأنانية ، في حين كانا يحصلان على كل رعاية من أيد محبة وقريبة . إن ذلك أنانية ، قالت بنفسها . ثم إنها لم تكن تملك تلك الثقة بالنفس التي تجعلها تفهم أنها شيء خاص جداً في نظر ولديها ، كما كانا هما شيئاً خاصاً جداً بنظرها . وهكذا تابعت عملها في المراعي أسابيع لا نهاية لها ولم تكن ترى ولديها إلا ليلاً وقد ذهبا إلى السرير للنوم .

وكلما نظرت ميغي إلى دين كان قلبها يعصر في صدرها . كان الطفل جميلاً ، وكان الغرباء في شوارع غيللي يتوقفون ليلقوا ملاحظة بهذا الصدد عندما كانت « في » تأخذه معها إلى المدينة . وكانت الابتسامة هي التعبير الاعتيادي الدائم على وجهه ، وطبعه ينبىء عن الهدوء ، وعن سعادة أكيدة وعميقة . كان يبدو وكأنه قد نما هكذا فكوّن لنفسه هوية وحصل على معرفة ذاتية بدون أي من الآلام التي يعاني منها الأطفال عادة ، وهو لم يكن يخطىء أبداً بشأن الاشخاص أو الأشياء ، ولم يكن هناك من شيء يضايقه أو

يثير استغرابه. وبالنسبة لأمه فقد كان الشبه بينه وبين رالف مريعاً أحياناً، ولكن لم يكن يبدو أن أحداً قد لاحظ ذلك. كان رالف قد غادر غيللي من زمن بعيد، ورغم أن دين كان يملك نفس تقاطيه، ونفس بنيته، إلا أنه كان بينهما اختلاف عظيم، وذلك كان يمحو الشك الذي يمكن أن يثيره هذا الشبه: لم يكن شعر الطفل أسود مثل شعر رالف، بل كان أشقر فاتحاً، ليس كلون القمح أو المغيب، وإنما بلون أعشاب دروغيدا، ذهبياً يخالطه تموج فضي قشدي.

ومنذ اللحظة التي وقعت فيها عينا جوستين على أخيها الطفل، حملت له حباً يقارب العبادة. لم يكن هناك شيء يليق تماماً بدين، ولم تكن تجد أي انزعاج في احضار أي شيء أو القيام بأي شيء من أجله. وما أن بدأ خطواته الأولى حتى لازمته كظله، وقد سرت ميغي جداً بذلك لعلمها أن السيدة سميث والخادمتين كن قد تقدمن كثيراً في العمر ولم يعد بامكانهن مراقبة الطفل كما يجب. وفي أحد أيام عطلتها النادرة، يوم أحد، أخذت ميغي ابنتها وأجلستها على ركبتيها، وتكلمت معها بجدية كاملة عن دورها في العناية بدين.

ــ ليس بامكاني أن أبقى في المنزل لأراقبه بنفسي، وهكذا فالأمر ملقى على عاتقك يا جوستين. إنه أخوك الطفل وعليك دائماً أن تراقبيه وتتأكدي من أنه ليس في خطر أو ضيق.

كانت العينان الشاحبتان شديدتي الذكاء، وليس بهما أي أثر للشرود الذي يلاحظ عادة عند الأطفال في الرابعة من عمرهم. وهزت جوستين رأسها بثقة:

ــ لا تجذعي يا أماه، قالت مزهوة: سوف أعتني به دائماً مكانك.

ــ أتمنى لو كان ذلك بامكاني. قالت ميغي متنهدة.

ــ «أنا لا أتمنى ذلك». أجابت ابنتها بلهجة تنم عن الرضى. «إني أحب أن أحتفظ بدين لنفسي. وهكذا لا تقلقي، لن أدع أي مكروه يصيبه».

ولم تجد ميغي الراحة في هذا التأكيد، مع أنه كان مبعثاً للراحة. فهذه الطفلة الصغيرة التي كبرت قبل أوانها ستسرق منها ابنها، وليس هناك من وسيلة لتجنب ذلك.

وعادت إلى المراعي بينما كانت جوستين تحرس دين عن قرب. لقد أزاحتها ابنتها نفسها. ممن ورثت هذا تلك الصغيرة؟ حتماً ليس منها، ولا من لوك، ولا حتى من «في».

ولكن جوستين كانت تبتسم وتضحك على الأقل في هذه الأيام. وكانت قد بلغت الرابعة من عمرها قبل أن ترى أي شيء مثير للضحك. وإذ بدأت الآن بذلك فالفضل يعود لدين الذي بدأ يضحك منذ كان عمره أيام. ولأنه يضحك كانت هي تضحك. وكان طفلا ميغي يتعلمان من بعضهما البعض طوال الوقت، ولكنها كانت تشعر بنوع من الاهانة لمعرفتها بأنهما في غنى عنها. وفكرت ميغي «عندما تنتهي هذه الحرب اللعينة، سيكون قد كبر جداً ولن يشعر نحوي بما يجب أن يشعر، إنه سيكون دائماً أقرب إلى جوستين مني. لماذا يحدث دوماً شيء ما كلما فكرت أني بدأت أكيّف حياتي كما أشاء؟ إني لم أطلب منك الحرب، ولا ذلك الجفاف. ولكن ها هما».

ربما كان من حسن الحظ أن دروغيدا كانت في وضع عصيب. فلو كانت الأمور أسهل مما هي عليه لكان جاك وهوغي قد تطوعا في الجيش حالاً. ولكن بما أن الأحوال كانت هكذا، فلم يكن أمامهما سوى البقاء لانقاذ ما يمكنه انقاذه من الجفاف الذي دُعي فيما بعد «الجفاف الكبير». ولقد نكبت عدة ملايين من الهكتارات من الأراضي الزراعية والمراعي بدءاً من فيكتوريا الجنوبية

وحتى مراعي ميتشل في الأراضي الشمالية. ولكن الحرب كانت تنافس الجفاف في استقطاب الانتباه. فبوجود التوأمين في افريقيا الشمالية كان سكان المنزل يتتبعون بلهفة أليمة أخبار الحملة وهي تتقدم وتتراجع عبر ليبيا. وإذ كانوا من الطبقة العاملة فقد كانوا موالين متحمسين لحزب العمال وكانوا يكنون أقصى الكره للحكومة الحالية الليبيرالية في الظاهر والمحافظة في الواقع. وفي عام ١٩٤١، عندما استقال رئيس الحكومة روبرت غوردون منزيس وأقر بعجزه عن ادارة البلاد، كان فرحهم لا يوصف. وعندما طلب من رئيس حزب العمال، جون كورتين، تأليف حكومة جديدة في الثالث من تشرين الأول، كان هذا أفضل نبأ سمعته دروغيدا منذ سنوات. كان القلق من اليابان يكبر خلال عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١، خاصة بعد أن قطع روزفلت وتشرشل البترول عنها. كانت أوروبا بعيدة جداً، وكان على هتلر أن يرسل جيشه على بعد عشرين ألف كيلومتر حتى يغزو استراليا، ولكن اليابان كانت آسيا، وكان جزء كبير من الخطر الأصفر معلقاً كالسيف فوق استراليا الغنية، القليلة السكان. وهكذا لم يفاجأ أحد في استراليا عندما هاجم اليابانيون «بيرل هاربور»، فقد كانوا ينتظرون أن يحدث هذا في مكان ما. وفجأة أصبحت الحرب قريبة جداً وربما

وصلت إلى ديارهم بالذات. لم يكن هناك محيط هائل يفصل استراليا عن اليابان، لم يكن هناك إلا جزر كبيرة وبحار صغيرة.

وفي عيد الميلاد من عام ١٩٤١، سقطت هونغ كونغ؛ ولكن اليابانيين لن ينجحوا أبداً في احتلال سنغافورة، هذا ما قاله الجميع بارتياح. ووصلت الأخبار عن نزول اليابانيين في ماليزيا والفيليبين؛ وكانت القاعدة البحرية الضخمة الواقعة في أسفل شبه جزيرة ماليزيا تحتفظ بمدافعها الهائلة موجهة نحو البحر، والأسطول بكامله على أتم استعداد.

ولكن، وفي الثامن من شباط عام ١٩٤٢، اجتاز اليابانيون مضيق «جوهور» الضيق في الجهة الشمالية من سنغافورة ووصلوا المدينة من الخلف، خلف مدافعها القوية، وسقطت سنغافورة دون أي قتال.

ثم وصل النبأ العظيم. كان على جميع القوات الاسترالية الموجودة في افريقيا الشمالية أن تعود إلى البلاد. وواجه رئيس الوزراء غضب تشرشل دون أن يرف له جفن وهو يصر على أن لاستراليا الحق في استرجاع رجالها. وأبحرت الفرقتان السادسة والسابعة من

ميناء الاسكندرية بسرعة، وأما الفرقة التاسعة التي كانت لا تزال في القاهرة، تستعيد قواها بعد معارك طبرق، فكانت ستبحر حالما تتوفر لها السفن.

وابتسمت «في»، وكانت ميغي تطير فرحاً فسوف يرجع جيمس وباتسي.

ولكنهما لم يرجعا. إذ أنه بينما كان الشمال ينتظر جيوشه انقلب الموقف فجأة.

كان الجيش الثامن ينسحب فجأة من بنغازي. وعقد تشرشل اتفاقاً مع كورتين: سوف تبقى الفرقة التاسعة في افريقيا الشمالية، وعوضاً عنها ستُرسَل فرقة أمريكية للدفاع عن استراليا. مساكين هؤلاء الجنود الهائمين هنا وهناك بناء على قرارات وضعها أناس لا يمتون لهم بصلة، يكتفون بالجلوس وراء مكاتبهم وباعطاء أوامرهم: أعطني قليلاً هنا، وخذ قليلاً هناك...

ولكنها كانت ضربة قاسية على استراليا التي اكتشفت أن الوطن الأم كان يتخلى عن أولاده في الشرق الأقصى، حتى لو كان أحد هؤلاء الأولاد استراليا الغنية نفسها.

في ليلة الثالث والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٤٢، كان الهدوء يخيم تماماً على الصحراء. وتململ باتسي قليلاً، وتحسس أخاه في الظلمة، ورمى نفسه كطفل صغير في تجويف كتفه. وأحاطته ذراع جيمس، وجلسا هكذا في الصمت متقاربين، ولكز الرقيب بوب مالوي الجندي كول ستوارت وابتسم:

ــ انظر إلى هذين.

ــ اخرس. قال جيمس.

ــ هيا يا هاربو، قل شيئاً. همس كول.

وابتسم له باتسي ابتسامة ملائكية غير واضحة في الظلام، وفتح فمه مقلداً صوت البوق. وصاح الجميع طالبين من باتسي الصمت، فالخوف من غارة قريبة كان يتطلب الهدوء.

ــ أيها الرب، إن هذا الانتظار يقتلني. قال بوب متنهداً.

وتكلم باتسي فجأة:

ــ إن الصمت هو الذي يكاد يقتلني.

ــ آه، أنت أيها الخادع. سوف أقتلك، أنا. قال كول بقسوة وهو يبحث عن حربته.

ـــ « بحق الرب اخفض صوتك » ، وصلهم صوت النقيب همساً .
« من هذا الغبي اللعين الذي يصرخ هكذا ؟ » .
ـــ باتسي . ردت عليه نصف دزينة من الأصوات .

وارتفعت الضحكات مطمئنة عبر حقل الألغام ، ثم تلاشت في موجة من الشتائم أطلقها النقيب همساً . ونظر مالوي إلى ساعته . كانت الساعة تقارب التاسعة وأربعين دقيقة .

وانطلق ثمانمئة واثنان وثمانون مدفعاً انجليزياً دفعة واحدة . وهوت السماء ، وارتفعت الأرض وانتفخت ، ولم يعد بإمكانها استعادة شكلها الأول لأن القصف استمر واستمر دون أن تخف حدة الانفجارات ثانية واحدة . وكانوا يغرزون أصابعهم في آذانهم عبثاً ، فقد كانت الضجة الهائلة تنبعث من الأرض وتضرب الدماغ بعد أن تجتاز العظام ذاتها . وكان بامكان جنود الفرقة التاسعة في خنادقهم أن يتخيلوا رد الفعل على جنود رومل في الجبهة . كان من الممكن عادة تحديد نوع وعيار السلاح المستعمل من خلال بعض المميزات ، ولكن حناجر الأسلحة المعدنية انطلقت جميعها دفعة واحدة هذه الليلة ، مثل الكورس ، واستمرت تزمجر والدقائق تمر .

واستنارت الصحراء ، ليس بضوء الصباح بل بنار الشمس

ذاتها؛ وارتفعت غيمة هائلة من الغبار المتموج، الغبارِ اللولبي المنبعث من تحت آلاف الأقدام، تلمع ببريق انفجار القنابل والألغام، واللهب يقفز من مراكز التفجير والشحنات المتفجرة.

كان مونتغمري قد ركز كل ما يملكه من قوة على حقل الألغام ــ البنادق، والرشاشات، والمدافع ــ وكل ما يملكه مونتغمري كان يقذف بأسرع ما يمكن للمدفعيين المتصببين عرقاً أن يقذفوه، عبيد يلقمون حناجر أسلحتهم الفاغرة كعصافير صغيرة منهمكة في تغذية نسر جائع. وحميت مخازن المدافع، وغدا الوقت أقصر وأقصر ما بين التلقيم والتفجير، وترك المدفعيون أنفسهم على سجيتها. مجانين، محمومين، يرقصون رقصة لا تتغير حركاتها أمام مدافعهم.

كان المنظر جميلاً، رائعاً. إن قمة حياة المدفعي هي تلك الحياة التي سوف يعيشها ويعيشها في أحلامه، في يقظته وفي منامه، حتى آخر أيام حياته. وسوف يتمنى أن تعود من جديد، هذه الدقائق الخمس عشرة، مع مدافع مونتغمري. ثم خيم الصمت. صمت جامد، صمت شامل، وارتمى على الآذان التي صُمّت؛ صمت لا يطاق. وكانت الساعة العاشرة إلّا خمس دقائق

تماماً. ووقف أفراد الفرقة التاسعة، وتحركوا خارجين من خنادقهم نحو المنطقة التي جردت من سلاحها، وهم يثبتون حرابهم ويتحسسون زناداتهم، ثم يحررون أزرار الأمان ويفحصون قربهم وذخيرتهم وساعاتهم وخوذاتهم، ويتأكدون من أن شرائط أحذيتهم معقودة في وهج النيران الجهنمي، والرمال المحترقة المتحولة إلى زجاج. ولكن الغبار كان معلقاً في الجو بين العدو وبينهم، وكانوا في مأمن. حالياً على الأقل. وعلى طرف حقل الألغام، توقفوا ينتظرون.

الساعة العاشرة تماماً. ووضع الرقيب مالوي صفارته في فمه، ونفخ فيها نفخة حادة سمعها كل أفراد الفرقة، وصرخ النقيب آمراً بالتقدم. وعلى جبهة عرضها ثلاثة كيلو مترات، تقدم أفراد الفرقة التاسعة نحو حقل الألغام، وبدأت المدافع تنطلق من جديد وراءهم. كان بامكانهم رؤية طريقهم كما لو في وضح النهار، بينما كانت القنابل تُرمى على مسافات قصيرة فتنتشر شظاياها على أمتار أمامهم. وكل ثلاثة دقائق، كان الصف يتقدم مئة متر، وكان عليهم أن يجتازوا هذه الأمتار المئة وهم يصلّون أن تكون أسلحة مونتغمري قد دمرت تماماً الألغام المضادة للدبابات والألغام

المضادة للبشر. كان لا يزال هناك ألمان وإيطاليون في الحقل كقواعد أمامية مجهزة برشاشات ومدافع صغيرة وأخرى ثقيلة. وأحياناً، كان أحد الرجال يمشي فوق لغم لم ينفجر، ويراه في الوقت المناسب فيقفز جانباً فوق الرمال قبل أن يتفجر به.

لم يكن هناك وقت للتفكير أو لأي شيء آخر إلّا التقدم جانبياً كالسلطعان، مئة متر كل مرة إلى الأمام، وهم يصلّون. يرافق ذلك الضجيج، والاشعاع، والغبار، والدخان، والرعب. حقول الألغام بلا نهاية، أربعة أو خمسة كيلومترات منها ولا مجال للرجوع إلى الخلف. وأحياناً، بين الوقفات القصيرة ما بين حاجز وآخر، كان يصل إلى أسماعهم لحن مزمار قربة من بعيد، كما في حلم، عبر الهواء المثقل بالرمل المحترق، فعلى شمال الفرقة التاسعة الاسترالية كانت الفرقة الحادية والخمسون الاسكتلندية تتقدم عبر حقل الألغام وعلى رأسها عازف قربة. فصوت المزمار الذي يقود الاسكتلندي إلى المعركة كان أحلى شرك في العالم، أما بالنسبة للاسترالي فقد كان النغم محبباً ومريحاً. ولكن هذه الموسيقى كانت بالنسبة للإيطاليين والألمان شيئاً جهنمياً تجعل الشعر ينتصب على رؤوسهم.

واستمرت المعركة اثنا عشر يوماً، وهذا يعني أنها معركة طويلة جداً؛ وكانت الفرقة التاسعة سعيدة الحظ في بدء الأمر، فقد كانت خسائرها طفيفة نوعاً ما عبر حقل الألغام خلال الأيام الأولى التي تقدموا فيها بلا انقطاع على أرض رومل.

ــ هل تعلم إني أفضّل أن أكون في وضعي هذا وأتلقى الرصاص بدلاً من أكون خبير ألغام؟ قال كول ستوارت وهو يتكيء على رفشه.

ــ لست أدري يا رفيق، ولكني أظن أن مفككي الألغام يمضون حياتهم جالسين ينتظرون خلف الخطوط حتى تقوم بكل العمل مكانهم، ثم يأتون بعد ذلك وهم يتبخترون مع آلاتهم اللعينة ليفككوا الألغام ويشقوا طريقاً لطيفة للدبابات اللعينة.

ــ «إنها ليست غلطة الدبابات يا بوب، وإنما هي غلطة الضباط الكبار الذين ينشرونها». قال جيمس وهو يربت الأرض برفشه، حول حافة خندقهم الجديد. «يا الهي، إني مع ذلك أتمنى لو يقررون ابقاءنا في المكان نفسه لفترة ما! لقد حفرت خلال هذه الأيام الخمسة الأخيرة أكثر من طابور نمل بكامله».

ــ تابع حفرك يا رفيق. قال بوب بجفاء.

ــ إيه، انظروا. قال كول وهو يشير باصبعه إلى السماء.

كان هناك ثمان عشرة طائرة بريطانية من قاذفات القنابل الخفيفة تنحدر صوب الوادي في تشكيل منتظم، وهي ترمي مسبحة من القنابل على الألمان والايطاليين بدقة قاتلة.

ـــ يا للعنة، إنها جميلة. قال الرقيب بوب مالوي وهو يمد عنقه الطويل نحو السماء.

بعد هذا بثلاثة أيام، قتل بوب. فلقد أصابته شظية ضخمة حادة قصت ذراعه ونصف جسده خلال هجوم جديد، ولكن لم يجد أحدهم الوقت للتوقف اللهم إلا لانتزاع الصفارة مما بقي من فمه. كان الرجال يسقطون الآن مثل الذباب، وكانوا متعبين جداً وعاجزين عن الحفاظ على تيقظهم وسرعتهم؛ ولكنهم كانوا يتمسكون بشدة بكل شبر أرض يمتلكونه رغم الدفاع المستقتل الذي كانوا يلقونه من جيش رومل العظيم. كانت المعركة قد تحولت بالنسبة لكل منهم إلى رفض قاطع للاستسلام. وهزمت الفرقة التاسعة «غراف فان سبونك» و «لونغر هاوسن» بينما كانت الدبابات تتقدم جنوباً، وهزم رومل أخيراً. وفي الثامن من تشرين الثاني، كان يحاول تجميع جيوشه خارج الحدود المصرية، وكان مونتغمري يسيطر على كل المنطقة، وكانت «معركة العلمين

الثانية » انتصاراً عسكرياً شديد الأهمية ، واضطر رومل أن يترك وراءه العديد من دباباته ومدافعه ومعداته . وعندئذ كان باستطاعة عملية « تورش » أن تبدأ تقدمها باتجاه الشرق من مراكش والجزائر بضمانات أكثر . كان لا يزال هناك الكثير من المعارك أمام « ثعلب الصحراء » ولكنه كان قد فقد الكثير من عنفوانه في العلمين . فلقد تمت هناك أكبر المعارك الحربية وأكثرها حسماً للموقف على مسرح افريقيا الشمالية ، وكان بطلها المارشال مونتغمري . كانت معركة العلمين الثانية هي أنشودة البجعة غنتها الفرقة التاسعة الاسترالية في افريقيا الشمالية . وأخيراً سيعودون إلى وطنهم لمواجهة اليابانيين في غينيا الجديدة . فمنذ آذار عام ١٩٤١ كانوا مرابطين طوال الوقت على الجبهة ، ولقد وصلوها بدون تدريب ولا عتاد تقريباً ، وها هم يعودون إلى الوطن وقد كسبوا شهرة لا تضاهيها إلا شهرة الفرقة الرابعة الهندية . ومع الفرقة التاسعة رجع جيمس وباتسي إلى الوطن سالمين .

○

وحصل الشابان بالطبع على إجازة لزيارة بيتهما في دروغيدا . وذهب بوب بالسيارة إلى غيللي لاستقبالهما حيث

وصلا على القطار الذي أتى بهما من غوندي ويندي، لأن الفرقة التاسعة كانت متمركزة في بريسبين، وكان من المفروض أن ترحل إلى غينيا الجديدة بعد التدرب على قتال الأدغال. وعندما استدارت الرولز عند المنعطف، رأى الشابان جميع نساء البيت واقفات ينتظرن في المرج، ووراءهن كان جاك وهوغي يقفان متلهفين لرؤية أخويهما الصغيرين. كان قد قررا أن يأخذا عطلة ذلك اليوم حتى لو نفق كل خروف على أرض دروغيدا.

وبعد أن توقفت السيارة وترجلا منها، لم يتحرك أحد. كانا يبدوان مختلفين تماماً عما قبل، وقد قضت سنتان في الصحراء على بذّاتهما القديمة وكانا يرتديان الآن ملابس الأدغال الخضراء اللون ويبدوان كغريبين. ومن جهة فهما قد كبرا وكان ذلك حقيقياً، فقد مرت السنتان الأخيرتان من فترة نموهما بعيداً عن دروغيدا، وأصبحا أطول قامة من أخوتهما الباقين، ولم يعودا صبيين بل رجلين يتمتعان بنوع آخر من الرجولة مختلف عن رجولة بوب وجاك وهوغي. ذلك أن الشقاء، وحدّة المعارك، والعنف، والموت أعطوهما صبغة لم يكن باستطاعة دورغيدا أن تعطيهما إياها. وكانت شمس شمال أفريقيا قد جففت بشرتهما وصبغتهما بلون بني

محمر مثل أشجار الماهوغاني، وجردتهما من طفولتهما تماماً. نعم. كان من المعقول أن تصدق أن هذين الرجلين بملابسهما البسيطة وقبعتيهما المترهلتين المثبتتين فوق الأذن اليسرى، وعليهما شمس مشرقة هي شعار القوات الاسترالية، كان من الممكن أن تصدق أنهما قد قتلا رجالاً آخرين. كان ذلك واضحاً في أعينهما الزرقاء مثل عيني بادي، ولكن أعينهما كانت حزينة وليس بها شيء من وداعة بادي:

ــ يا ولداي، يا ولداي. صاحت السيدة سميث وهي تهرع إليهما والدموع تجري على وجهها: كلا، إن التغيير الذي طرأ عليهما لا يهم فعلاً، فهما لا يزالان طفليها اللذين قامت بغسلهما وتغيير فوطهما، وتغذيتهما؛ اللذين جففت دموعهما وقبلت جروحهما لتشفيها. ولكن الجروح التي كانا يخفيانها الآن كانت أكبر من أن تستطيع مداواتها هي.

ثم تجمع الكل حولهما وقد اختفى التحفظ الانجليزي، وهم يضحكون ويبكون، حتى «في» المسكينة ربتت على ظهريهما وهي تحاول الابتسام. وبعد السيدة سميث كان هناك ميغي، فقبلاها؛ وكان هناك ميني، ثم جاء دور كات، فقبلاها؛ وعانقا والدتهما

بخجل، وشدا على يدي جاك وهوغي دون كلمة. لن يعلم سكان دروغيدا أبداً ما معنى أن يعود الانسان إلى البيت، ولن يستطيعوا أبداً أن يعلموا كم اشتاق الاثنان إلى هذه اللحظة وخشياها.

ويا لشهية التوأمين! لم يكن طعام الجيش بهذه الجودة، قالا ضاحكين. كان هناك قالب حلوى وردي وأبيض، وبسكويت بالشوكولا مغطى بجوز الهند، وبودنغ طُهي على البخار، وسلطة فواكه بالقشطة التي استخرجت من حليب بقر دروغيدا. وعندما تذكرت السيدة سميث حساسية معدتيهما القديمة، تأكدت من أنهما سوف يمرضان أسبوعاً بكامله من هذه الوجبة، ولكن بما أنه كان هناك ما يكفي من الشاي لمساعدتهما على الابتلاع، فلم يبدُ عليهما مطلقاً أنهما يعانيان من أية صعوبة في الهضم.

ــ إن هذا ألذّ من خبز الـ «ووغ» أليس كذلك يا باتسي؟

ــ نعم.

ــ ما معنى خبز الـ «ووغ»؟ سألت السيدة سميث.

ــ «ووغ» تعني عربي، و «ووب» تعني إيطالي. صحيح يا باتسي؟

ــ نعم.

كان الوضع مستغرباً. كان باستطاعتهما أن يتكلما، أو بالأحرى كان جيمس يتكلم ساعات بكاملها عن افريقيا الشمالية: المدن، السكان، الغذاء، المقاصف في القاهرة، الحياة على متن السفينة، وفي المعسكرات. ولكن كل الأسئلة كانت عاجزة عن استخراج جواب واضح منهما. فأما أن يغيرا الحديث، أو أن يجيبا بغموض عما يتعلق بكيفية القتال ومواقع المعارك مثل غزالة، وبنغازي، وطبرق، والعلمين. وفيما بعد، وعند انتهاء الحرب كانت النسوة يلاحظن ذلك التصرف دوماً، فلم يكن الرجال الذين عاشوا في قلب المعارك يتحدثون عنها مطلقاً، كما أنهم كانوا يرفضون الانضمام إلى نادي المحاربين القدامى ولا يرغبون بأن يكون لهم أية علاقة مع المنظمات التي تخلد ذكرى الحرب.

وأقامت دروغيدا احتفالاً على شرفهما. كان الستير ماكوين في الفرقة التاسعة أيضاً، وقد عاد إلى الوطن، وهكذا فقد أقيم احتفال آخر في رودنا هانيش. أما ولدا دومينيك أوبروك فقد كانا في الفصيلة السادسة في غينيا الجديدة، وعلى الرغم من عدم قدرتهما على المجيء فقد أقيم لهما احتفال في ديبان ــ ديبان. وأرادت كل مزرعة في المنطقة كان لها ولد يحمل السلاح أن تحتفل بعودة شبان الفرقة التاسعة الثلاثة. وتجمعت النساء والفتيات

حولهما، ولكن بطلي كليري العائدين كانا يهربان كلما سنحت لهما الفرصة، وقد ملأهما الرعب أكثر مما لو كانا في أكبر موقع للقتال. والواقع أن جيمس وباتسي كانا يبدوان غير راغبين في إقامة أية علاقة مع النساء، وكانا يتعلقان بجاك وهوغي وبوب. وفي وقت متأخر من الليل بعد أن انسحبت النساء إلى غرفهن للنوم، جلسا يتحدثان إلى الأخوة الذين اضطروا إلى البقاء، ويفتحان لهم قلبيهما الجريحين. ثم خرجا يجولان في المراعي المنكوبة وقد أصبح الجفاف في سنته السابعة، وهما سعيدان بملابسهما المدنية. ومع أن الأرض كانت محروقة معذبة، إلا أنها بدت لجيمس وباتسي في غاية الجمال، وكانت الخراف مبعث الارتياح؛ أما رائحة ورود الحديقة فكانت رائحة الجنة بالذات. وكانا يعبان من كل هذا بنهم حتى لا ينسيانه ثانية، لأن رحيلهما الأول كان بدون تفكير، وكانا يتخيلان ما سيجري لهما؛ وأما حين يرحلان هذه المرة فسوف يرحلان وقد اكتنزا في قلبيهما كل لحظة من هذه اللحظات، وفي حقيبتهما ورود من دروغيدا إلى جانب بضعة أوراق مجففة من أعشابها. وكانت «في» تراهما لطيفين ومثيرين للشفقة، أما ميغي والسيدة سميث وميني وكات فقد كن يحطنهما بالحب والحنان، إذ كن بالنسبة لهما الأمهات الحقيقيات.

والذي أفرح ميغي أكثر من كل شيء آخر كان حبهما لدين، فقد كان يلعبان معه ساعات، ويأخذانه معهما في جولاتهما على الجياد، ويضحكان معه، ويقلبانه على المرج المعشب. وكان يبدو أن جوستين تخيفهما ولكنهما في الحقيقة كانا يرتبكان مع أية أنثى لا يعرفانها تماماً. وفضلاً عن ذلك فقد كانت جوستين تغار جداً من احتكارهما لدين، فهذا يعني أنه لم يكن لديها أحد تلعب معه.

ـــ إنه رجل صغير رائع يا ميغي. قال جيمس لميغي عندما خرجت إلى الشرفة ذات يوم ووجدته يراقب باتسي ودين وهما يلعبان فوق المرج.

ـــ نعم، إنه جميل، أليس كذلك؟

ـــ وابتسمت وهي تجلس بحيث تستطيع أن ترى أخاها الأصغر، وكانت عيناها مليئتين بالشفقة، فقد كان هذان طفليها أيضاً.

ـــ ما الأمر يا جيمس؟ ألا تستطيع أن تخبرني؟

وارتفعت عيناه إلى عينيها وقد عكرهما حزن عميق، ولكنه هز رأسه وكأنه يرفض أن يجر إلى الكلام:

ـــ كلا يا ميغي. ليس هناك أي شيء أستطيع أن أقوله لامرأة.

ـــ وماذا ستفعل عندما ينتهي كل هذا وتتزوج ؟ ألن تخبر زوجتك ؟

ـــ نحن ؟ نتزوج ؟ لا أظن ذلك . إن الحرب تجرد الانسان من كل هذا . لقد كنا نموت شوقاً للذهاب إلى الحرب ، أما الآن فنحن أعقل من قبل . وإذا تزوجنا فسنرزق بأولاد . ولماذا ؟ لكي نراهم يكبرون ، ويُدفعون إلى عمل ما عملناه نحن ورؤية ما رأيناه ؟

ـــ لا تقل هذا يا جيمس ، لا تقل هذا .

ونظر إلى ما كانت تنظر إليه ، إلى دين الذي كان يقهقه ضاحكاً لأن باتسي كان يحمله رأساً على عقب .

ـــ لا تدعيه يترك دروغيدا يا ميغي . ففي دروغيدا لن يحصل له أي مكروه . قال جيمس .

○

هرع الأسقف رالف دو بريكاسار عبر الممر ذي السقف المرتفع ، غير مبال بالوجوه المشدوهة التي استدارت تنظر إليه ؛ ودخل بسرعة إلى غرفة استقبال الكاردينال وتوقف فجأة . كان نيافته يستقبل السيد « بابي » سفير الحكومة البولونية في المنفى في المقر البابوي .

ـــ ماذا يجري يا رالف ؟

ـــ لقد قضي الأمر يا فيتوريو . لقد سقط موسوليني .

ـــ يا الهي ! هل علم الأب الأقدس بذلك ؟

ـــ لقد اتصلت هاتفياً بـ « كاستل غوندولفو » بنفسي ، ولا بد أن المذياع سيعلنه خلال ثوان . لقد اتصل بي أحد الأصدقاء من مقر أركان الجيش الألماني .

ـــ أرجو أن يكون البابا قد جهز حقائبه . قال السيد « بابي » وقد بدأ على وجهه شبح ابتسامة طفيفة تنبىء عن استمتاعه بالأمر .

ـــ « قد يستطيع الخروج إذا حملناه على التنكر على هيئة راهب دومينيكاني ، وليس بطريقة أخرى » . قال الأسقف رالف دو بريكاسار بحدة . « لقد طوق كيسّلرنغ المدينة باحكام شديد » .

ـــ ولكنه لن يذهب على أية حال .

ونهض السيد بابي :

ـــ علي أن أترككم الآن يا نيافة الكاردينال . إنني أمثل حكومة معادية لألمانيا ، وإذا لم يكن قداسته في مأمن فلن أكون أنا في مأمن . يجب علي الاهتمام ببعض الأوراق الموجودة في غرفتي .

كان الرجل متزمتاً ، شديد الدقة ودبلوماسياً حتى رؤوس أظافيره . فنهض تاركاً الكاهنين .

ـــ هل جاء إليك ليتوسل من أجل شعبه المضطهد ؟

ـــ نعم . مسكين . إنه شديد الاهتمام به ؟

ـــ ونحن ؟

ـــ نحن أيضاً نهتم بهم يا رالف ! ولكن الوضع أصعب مما تتصور .

ـــ المشكلة أنهم لا يصدقونه .

ـــ رالف !

ـــ حسناً . أليست هذه هي الحقيقة ؟ لقد أمضى الأب الأقدس شبابه في ميونيخ ، ولقد أحب الألمان ، وسوف يحبهم رغم كل شيء . ولو رميت أمام عينيه جثث هذا الشعب المسكين كدليل على جرائم الألمان ، لقال أن الروس فعلوا ذلك وليس أحبابه الألمان . لن يفعل ذلك شعب مثقف متحضر كالألمان .

ـــ رالف ، إنك لست يسوعياً ، ولكنك هنا فقط لأنك أقسمت على الاخلاص للأب الأقدس . إن في عروقك دم أسلافك الايرلنديين والنورمانديين الحار ، ولكني أرجوك أن تكون متعقلاً ! منذ أيلول الماضي لم نفعل شيئاً سوى أن ننتظر سقوط دول المحور ، ونصلي لكي يبقى الدوق لكي يحمينا من انتقام الألمان . إن هناك تضارباً أكيداً في شخصية هتلر فهو يعتبر الامبراطورية البريطانية والكنيسة الكاثوليكية عدوين ، ومع ذلك

فهو يتمنى انقاذهما لو يستطيع. ولكنه عندما وجد نفسه مضطراً فعل كل ما بوسعه لتحطيم الامبراطورية البريطانيـة. فهل تعتقد أنه سيتورع عن سحقنا نحن أيضاً إذا أجبرناه على ذلك؟ ولو وشينا بكلمة واحدة مما يجري في بولونيا فسيحطمنا بالتأكيد. وما الخير الذي سوف نجنيه من كلامنا يا صديقي العزيز؟ إننا لا نملك جيوشاً ولا جنوداً، والانتقام سيكـون فورياً، وسيرسل الأب الأقدس إلى برلين، وهذا ما يخشاه. هل نسيت البابا «الدمية» في افينيون، منذ بضعة قرون؟ هل تريد أن يصبح البابا الحالي دمية في برلين؟

ــ إني آسف يا فيتوريو ولكني لا أستطيع رؤية الأمور على هذا النحو. والذي أراه أنه ينبغي علينا اتهام هتلر وفضح وحشيته أمام العالم قاطبة. وإذا قتلنا فسنموت شهداء، وذلك أجدى وأفضل.

ــ إنك عادة أكثر ذكاء يا رالف. إنه لن يقتلنا أبداً لأنه يعرف تماماً تأثير الاستشهاد كما نعلمه نحن، ولكنه سوف يسوق الحبر الأعظم إلى برلين، ويرسلنا نحن بهدوء إلى بولونيا. بولونيا يا رالف، بولونيا! هل تريد أن تموت في بولونيا ميتة لا نفع منها، أقل نفعاً مما نفعله الآن؟

وجلس الأسقف رالف واضعاً يديه بين ركبتيه، وهو ينظر ثائراً عبر النافذة إلى الحمام الذهبي يطير في الشمس الغاربة نحو أبراجه. وفي التاسعة والأربعين من عمره كان لا يزال نحيلاً كالقضيب، ورائعاً كما في شبابه.

ــ رالف، نحن ما نحن. بشر. ولكن ذلك في الدرجة الثانية فقط. أما في الدرجة الأولى فنحن كهنة.

ــ إنك لم تصنف الأولية هكذا عندما عدتُ من استراليا.

ــ كنت أتحدث عن أمور أخرى في ذلك الوقت، وأنت تعلم ذلك. إنك صعب. إنني أقصد الآن أن علينا أن نفكر ككهنة عندما لا يمكننا التفكير كبشر، لأن هذا أهم مظهر من مظاهر حياتنا. ومهما فكرنا ورغبنا بأن نتصرف كبشر فإن ولاءنا يعود للكنيسة، وليس لأية سلطة زمنية! إن ولاءنا يرجع فقط للأب الأقدس! لقد نذرت الطاعة يا رالف، فهل ترغب في نقض نذورك ثانية؟ إن الأب الأقدس معصوم عن الخطأ في كل الأمور المتعلقة بمصلحة كنيسة الرب.

ــ إنه على خطأ! إن حكمه متحيز، وكل قواه مركزة على محاربة الشيوعية. إنه ينظر إلى ألمانيا على أنها العدو الأكبر للشيوعية، والعامل الوحيد الذي يمنع انتشارها في الغرب. إنه يرغب في أن

يبقى هتلر مثبتاً على رأس الألمان كما كان راضياً عن ادارة موسوليني لايطاليا .

ـ صدقني يا رالف ، هناك أشياء لا تعلمها . إنه البابا ، إنه معصوم عن الخطأ . وإذا أنكرت ذلك فأنت تنكر أساس إيمانك .

وفتح الباب برفق وإنما بسرعة :

ـ يا نيافة الكاردينال ، هناك الجنرال كيسّلرنغ يطلب مقابلتك .

ونهض الأسقفان وقد اختفت من وجهيهما آثار خلافهما ، وابتسما .

ـ هذا شرف كبير لي ، سعادتك . تفضل بالجلوس . أترغب بشيء من الشاي ؟

وجرى الحديث بالألمانية ، إذ أن الكثيرين من أعلام الفاتيكان كانوا يتكلمون تلك اللغة ، وكان الأب الأقدس مغرماً بها ويحب أن يتحدث ويستمع إلى الألمان .

ـ نعم يا نيافة الكاردينال ، وشكراً . ليس هناك مكان آخر في روما يمكنك الحصول به على شاي انجليزي بهذه الجودة .

وابتسم الكاردينال فيتوريو ببراءة :

ــ إنها عادة اقتبستها عندما كنت المبعوث البابوي في استراليا، ولم أستطع التخلي عنها بعد عودتي رغم أني إيطالي صميم.

ــ وأنت يا سيدنا؟

ــ أنا ايرلندي، يا سيدي الجنرال. والايرلنديون أيضاً يحبون الشاي.

كان الجنرال ألبرت كيسلرنغ يتوجه بحديثه دوماً إلى الأسقف دو بريكاسار كما يتحدث إلى رجل آخر مثله؛ فإلى جانب جميع أولئك الأساقفة الايطاليين المعسولين، كان يشعر بالارتياح في الحديث إلى رجل مستقيم مجرد من كل خدعة وحيلة.

ــ لا يزال نقاء لهجتك الألمانية يا سيدنا يدهشني كالعادة كلما سمعتك. قال مطرياً.

ــ إن عندي ميلاً للغات يا سيدي الجنرال، وهذا يعني أنه، ككل موهبة، لا يستحق الاطراء.

ــ ما الذي نستطيع أن نخدم به سعادتك؟ سأله الكاردينال بنعومة.

ــ لا شك في أنكم قد سمعتم حتى الآن بما جرى للدوق؟

ــ نعم، سعادتك. لقد سمعنا.

ــ إذن لا بد أنكم تعرفون ولو جزئياً، لماذا أتيت؟ لأؤكد لكم أن

كل شيء على ما يرام، ولأسألكم إذا كان بامكانكم إبلاغ رسالة مني إلى الموجودين في مصيف «كاستيل غوندولفو»؟ إني مشغول جداً في هذه الأيام ويستحيل علي أن أزور كاستل غوندولفو.

ــ سوف نوصل الرسالة. أنت مشغول جداً؟

ــ طبعاً. لا بد أنكم تفهمون أننا نحن الألمان نعتبر هذا المكان حالياً بلداً معادياً.

ــ هذا المكان يا سيدي الجنرال ليس أرضاً إيطالية، ولا عدو هنا إلا الشرير.

ــ إني أطلب المعذرة يا نيافة الكاردينال. بالطبع كنت أقصد إيطاليا، وليس الفاتيكان. أما فيما يتعلق بايطاليا، فعلي أن أتصرف كما يأمرني الفوهور. سوف نحتل إيطاليا، وأما جنودي الذين عملوا حتى الآن كحلفاء، فسيصبحون شرطة.

كان الأسقف دو بريكاسار يجلس باسترخاء ويبدو وكأن الصراع العقائدي لم يرواده أبداً في حياته، ويراقب الزائـر عن كثب. هل يعلم بأعمال الفوهرر في بولونيا؟ وكيف يجهل ذلك؟

وحوّل الكاردينال تعبير وجهه إلى تعبير قلق:

ــ يا جنرالي العزيز ، ليس روما بالذات حتماً؟ كلا ، ليس روما ، بتاريخها وآثارها التي لا تقدر بثمن؟ إذا أتيت بالجنود إلى داخل حدود هضابها السبعة فستعرضها للصراع والتخريب . أتوسل إليك ، ليس هذا !

وبدا الجنرال كيسلرنغ متضايقاً :

ــ أرجو ألّا يصل الأمر إلى هذا الحد يا نيافة الكاردينال . ولكنني من ناحية أخرى قد أقسمت يميناً ، فأنا أيضاً أطيع الأوامر . علي أن أنفذ ما يرغب به قائدي الفوهرر .

ــ إنك ستحاول من أجلنا يا سيدي الجنرال؟ أرجوك . يجب عليك ذلك !

ــ منذ بضعة سنوات ، كنت في أثينا .

قال الأسقف دو بريكاسار بسرعة وهو ينحني إلى الأمام وعيناه الساحرتان مفتوحتان على سعتهما ، وقد تهاوت خصلة من شعره الشائب فوق حاجبه . وكان يعلم بمدى تأثيره على الجنرال ويستغله بلا لف ولا دوران :

ــ هل ذهبت إلى أثينا يا سيدي؟

ــ نعم . قال الجنرال بصوت جاف .

ــ إذن أنا متأكد بأنك تعرف القصة، وكيف قام رجال من العصر الحديث نسبياً يتحطيم المباني التي في أعلى الاكروبول ؟ سيدي الجنرال، إن روما هي الآن كما كانت دائماً، رمز للعناية والانتباه والحب منذ ألفي سنة. أرجوك، أتوسل إليك، لا تضعها في خطر.

ونظر إليه الجنرال باعجاب تسوده الدهشة، كان لباسه العسكري يناسبه تماماً، ولكن ليس أكثر من الرداء الكهنوتي القرمزي على الأسقف رالف. فهو أيضاً كان يبدو مثل جندي، بجسم جندي رائع ووجه ملاك. لا بد أن الملاك ميخائيل كان يبدو هكذا، ليس كشاب ناعم من عصر النهضة، وإنما كرجل في أواسط العمر، مكتمل، أحب لوسيفر وصارعه، وطرد آدم وحواء، وقضى على الأفعى، ووقف إلى يمين الله. هل يعلم رالف كيف يبدو ؟ كان بالفعل رجلاً لا يُنسى.

ــ سأقوم بأفضل ما أستطيع، يا سيدنا، أعدك بذلك. والواقع أن القرار يعود لي إلى حدّ ما. وأنا أعترف بذلك. فأنا كما تعلم، رجل متحضر، ولكنك تطلب الكثير. لو أني أعلنت روما مدينة مفتوحة، فهذا يعني أنني لن أستطيع تحطيم جسورها أو

تحويل مبانيها إلى قلاع ، وذلك سيكون ضد مصلحة ألمانيا . ما هي الضمانات التي تعطونني إياها بأن روما لن تكافئني بالغدر إذا كنت لطيفاً معها ؟

وزمّ الكاردينال شفتيه وهو يوجه إلى هرته أصواتاً مثل أصوات القبلات ، وكانت الآن هرة سيامية أنيقة ، ثم ابتسم بلطف ونظر إلى الضابط :

ـــ روما لن تكافىء اللطف بالغدر أبداً يا سيدي الجنرال . وأنا متأكد أنك لو وجدت لديك الوقت الكافي لزيارة المصطافين في كاستل غوندولفو ، فسوف تتلقى الضمانات نفسها . تعالي يا كنغ ـــ سي ، تعالي يا حبيبتي ! آه يا لك من طفلة لذيذة .

وضغط بيديه على القطة في حجره الأحمر وهو يداعبها .

ـــ إنها حيوان غير عادي يا نيافة الكاردينال .

ـــ إنها ارستقراطية يا سيدي الجنرال ، فأنا والأسقف نحمل أسماء محترمة جداً ، ولكنها لا شيء بالنسبة لعراقتها هي . هل تحب اسمها ؟ إنه اسم صيني ، وهو يعني « الوردة الحريرية » . مناسب ، أليس كذلك ؟

كان الشاي قد وصل ، وأخذت الراهبة ترتبه ، فانتظروا حتى غادرت القاعة .

ـــ إنك لن تندم على قرارك باعلان روما مدينة مفتوحة يا سعادة الجنرال. قال الأسقف رالف وعلى وجهه ابتسامة « حلـوة » موجهة إلى سيد إيطاليا الجديد.

واستدار نحو الكاردينال وقد تلاشى السحر من وجهه لأنه لا يحتاجه مع هذا الرجل الرائع:

ـــ يا نيافة الكاردينال، هل ستقوم بدور « الأم »، أم أخدم بنفسي:

ـــ « الأم » سأل الجنرال مذهولاً.

وضحك الكاردينال:

ـــ إنها مزحتنا الصغيرة، نحن الرجال العازبون. إن من يصب الشاي يدعى « الأم »، وهو تعبير انجليزي يا سيدي الجنرال.

كان الأسقف رالف متعباً تلك الليلة، وقلقاً، وعصبياً. وكان يبدو أنه لا يفعل شيئاً يساعد على إنهاء هذه الحرب غير التدخل لانقاذ الآثار، وقد أخذ يكره خمول الفاتيكان بعنف. ومع أنه كان بطبيعته متحفظاً، إلّا أن حذر هؤلاء الخاملين الذين يشغلون أعلى المناصب في الفاتيكان كان يثير غضبه إلى درجة لا تطاق. وعدا عن الراهبات المتواضعات، والكهنة الذين كانوا يعملون كخدم، فقد مرت أسابيع قبل أن يتحدث إلى انسان

عادي، إلى أحد بدون هدف روحي أو سياسي أو عسكري يدافع عنه. حتى الصلاة كان يبدو له أنها لا تأتي بسهولة هذه الأيام، وكان الله يبدو له على بعد سنوات ضوئية، كما لو أنه قد انسحب ليفسح المجال أمام مخلوقاته لتحطيم العالم الذي خلقه لها. وفكر رالف أن ما يحتاجه كان دفعة قوية من ميغي و «في»، أو دفعة قوية من أحد لا يهتم بمصير الفاتيكان أو روما.

ونزل سيادته الدرج الخاص الذي يؤدي إلى كنيسة القديس بطرس، حيث قادته خطواته الشاردة. كانت الأبواب تُوصد هذه الأيام عند حلول الظلام، وذلك دليل على السلام القلق الذي يخيم على روما، أكثر دلالة من الجنود الألمان بملابسهم الرمادية، الذين يجولون في شوارع المدينة. كان هناك ضوء خافت يلتمع في الهيكل الفارغ، وارتفع صدى وقع خطواته على الأرض الحجرية ثم توقف وغمره السكوت بينما ركع أمام المذبح. وعاد صوت الخطوات، ولم تكن خطواته، وبين خطوة وأخرى سمع شهقة، وأشعل المصباح الذي كان يحمله بيده وأدار أشعته نحو الجهة التي صدر عنها الصوت، وخوفه أقل من فضوله. فقد كان هذا عالمه وبامكانه الدفاع عنه دون خوف.

وسقطت أشعة المصباح فوق ما يشكل بنظره أجمل تمثال في العالم، تمثال لميشيل انجيلو. وتحت الوجوه الحجرية الجامدة كان هناك وجه آخر، من لحم ودم، وليس من المرمر، تلعب عليه الظلال فيبدو كوجه ميت.

ـــ مرحبا. قال الأسقف مبتسماً.

ولم يتلق رداً، ولكنه رأى أن الملابس كانت ملابس صغار جنود المشاة الألمان؛ هل كان هذا هو الرجل العادي الذي يبحث عنه! لا يهمه إن كان ألمانيّاً.

ـــ ماذا هنالك؟ سأله بالألمانية وهو يبتسم.

وبحركة فجائية برزت من الظل جبهة عريضة واسعة، نداها العرق، ويلتمع عليها الذكاء.

ـــ هل أنت مريض؟ سأله عندئذ متسائلاً إذا كان الصبي ـــ لأنه لم يكن أكثر من صبي ـــ مريضاً.

وأجاب الصوت أخيراً:

ـــ كلا.

ووجه الأب رالف مصباحه نحو الأرض، ووضع يده تحت ذقن الجندي ورفعه ناظراً في العينين الداكنتين وقد بدتا أشد سواداً في العتمة.

ــ «ما الأمر»؟ سأله بالألمانية وضحك. «هيا، إنك لا تعلم ذلك، ولكن هذه هي وظيفتي الرئيسية في الحياة، أن أسأل الناس عما بهم. دعني أقل لك أن هذا السؤال قد جلب لي مشاكل لا تحصى.

ــ لقد أتيت لأصلي. قال الصبي بصوت عميق جداً بالنسبة لعمره، وبلهجة بافارية واضحة.

ــ وماذا جرى، هل أقفلوا عليك الباب؟

ــ نعم، ولكن المشكلة ليست هنا.

ورفع سيادته المصباح.

ــ حسناً، لن تستطيع البقاء هنا طوال الليل، وليس معي مفتاح للأبواب الخارجية. تعال معي.

وبدأ يسير نحو السلم الخاص الذي يقود إلى القصر البابوي وهو يتكلم ببطء وبصوت خفيض:

ــ أنا أيضاً أتيت لأصلي، في الواقع. وبفضل أركان جيشكم كان هذا النهار بشعاً. ها هو المخرج، فوق، أرجو ألّا يظن حرس البابا أنني موقوف، وليتهم يفهمون أنني أنا الذي يقودك وليس العكس.

ثم سارا حوالي العشر دقائق بصمت عبر الممرات ثم خارجاً في

الباحات والحدائق، داخل الأسوار، وصعدا أدراجاً؛ ولم يبد على الألماني الشاب أنه يرغب في الابتعاد عن حاميه، لأنه ظل يمشي ملاصقاً له. وأخيراً فتح سيادته باباً وأدخل شريده إلى غرفة استقبال صغيرة مفروشة بتواضع وتزمت، وأشعل النور ثم أغلق الباب.

ووقفا ينظران إلى بعضهما، وباستطاعتهما الآن الرؤية بوضوح. وشاهد الجندي الألماني رجلاً طويل القامة، وسيم الطلعة، وعينين زرقاوين متفهمتين. ورأى الأسقف رالف ولداً يرتدي الملابس التي ألقت الرعب في أوروبا بكاملها. ولد. كان عمره لا يتجاوز الستة عشر عاماً بالتأكيد، متوسط القامة، نحيل بنحول الشباب، وكانت بنيته تنبىء عن القوة والبدانة فيما بعد، وذراعاه طويلتان جداً. أما تقاطيع وجهه فكانت تبدو إيطالية، رومانية داكنة، شديدة الجاذبية، وعيناه بنيتين غامقتين ذات أهداب طويلة سوداء، ورأسه رائعاً يغطيه شعر أسود متموج. لم يكن في هيئته أي شيء عادي أو مألوف، وإن كان دوره في الحياة عادياً؛ وعلى الرغم من رغبة الأسقف في التحدث إلى رجل عادي، فقد كان اهتمامه بالشاب كبيراً.

ــ اجلس.

قال للصبي وهو يتجه نحو خزانة ويخرج منها زجاجة نبيذ . وصب قليلاً منه في كأسين ، وناول الصبي أحدهما وأخذ كأسه إلى كرسي حيث يستطيع منه النظر ، وعلى راحته ، إلى التعبير المذهل على وجه الشاب .

ــ هل انحدروا إلى درجة أنهم يجندون الأطفال الآن ليحاربوا حربهم ؟

قال وهو يضع ساقاً على ساق .

ــ لست أدري ، قال الصبي ، لقد كنت في دار للأيتام ، وعلى كل حال كان علي أن أغادرها قريباً .

ــ ما اسمك ؟

ــ راينر مورلينغ هارتهايم . قال الصبي باعتزاز .

ــ اسم رائع . قال الأب بجد .

ــ نعم ، أليس كذلك ؟ لقد اخترته بنفسي . كانوا يدعونني راينر شميت في الميتم ، ولكني عندما دخلت الجيش غيرته إلى الاسم الذي كنت دائماً أرغب بحمله .

ــ هل كنت يتيماً ؟

ــ كانت الراهبات يدعونني « ابن الحب » .

وحاول الأسقف ألّا يبتسم، وبدا الولد شديد الوقار والثقة بنفسه، بعد أن تلاشى خوفه. ولكن ما الذي كان يخيفه؟ ليس لأن الأسقف اكتشف وجوده، ولا لأنه كان محبوساً في الكنيسة.

ــ لماذا كنت خائفاً هكذا، يا راينر؟

ورشف الولد النبيذ بنهم، ورفع رأسه وعلى وجهه تعبير رضى.

ــ «جيد، إنه حلو». وجلس براحة أكثر. «كنت أريد أن أرى كنيسة القديس بطرس لأن الراهبات اعتدن أن يتحدثن عنها، ولقد أرونا صوراً منها. وهكذا كنت مسروراً عندما عينونا في روما. لقد وصلت هذا الصباح، ولقد أتيت حالما استطعت.

وعقد حاجبيه ثم تابع:

ــ ولكن الأمر لم يكن كما تصورت. كنت أعتقد أني سأشعر بنفسي أكثر قرباً من الله، لوجودي في كنيسته بالذات. وعوضاً عن ذلك وجدت المكان هائلاً، ولم أستطع أن أشعر بوجود الله.

وابتسم الأسقف رالف:

ــ إني أعرف ما تقصد، ولكن كنيسة القديس بطرس ليست

كنيسة في الحقيقة، إنها ليست كبقية الكنائس. إن كنيسة القديس بطرس هي «الكنيسة». لقد أمضيت زمناً طويلاً قبل أن أتقبل الفكرة، وأنا أتذكر ذلك.

ــ كنت أريد أن أصلي من أجل غرضين. قال الشاب وهو يهز برأسه دلالة على أنه قد سمع، ولكن هذا لم يكن ما يأمل بسماعه.

ــ من أجل الأشياء التي كانت تثير رعبك؟

ــ نعم. لقد كنت أظن أن وجودي في كنيسة القديس بطرس سيساعدني على ذلك.

ــ وما هي هذه الأشياء التي تخيفك يا راينر؟

ــ أن يقرروا أنني يهودي أولاً، وثانياً أن يرسلوا فرقتي إلى روسيا، بعد كل حساب.

ــ إنني أفهم ذلك. لا عجب أنك خائف. هل هناك فعلاً أية امكانية في أن يقرروا أنك يهودي؟

ــ «حسناً، انظر إلي» قال الصبي ببساطة. «عندما كانوا يسجلون مواصفاتي قالوا أنهم سيتحققون من الأمر، ولست أدري إذا كان ذلك بمقدورهم أم لا، ولكنني أعتقد أن الراهبات يعرفن عني أكثر مما أخبرنني».

ـــ «إذا كن يعلمن فلن يصرحن بذلك». قال سيادته مطمئناً.
«لأنهن يعلمن سبب تلك الأسئلة بدون شك».

ـــ هل تعتقد ذلك؟ آه كم أتمنى أن يكون الأمر صحيحاً.

ـــ هل يزعجك أن يجري في عروقك الدم اليهودي؟

ـــ إن نوع ديني لا يهمني. لقد ولدت المانيّاً، وهذا أهم شيء.

ـــ ولكنهم لا يرون الأمور هناك، أليس كذلك؟

ـــ نعم.

ـــ وروسيا؟ لا حاجة بك للقلق بشأن روسيا حالياً، بالتأكيد. أنت في روما، في الجهة المعاكسة تماماً.

ـــ هذا الصباح سمعت قائدنا يقول بأننا سنُرسل إلى روسيا على كل حال. فالأمور لا تسير هكذا بشكل جيد.

ـــ «أنت طفل» قال الأسقف بجفاف «كان عليك أن تكون في المدرسة».

ـــ «لم أكن سأذهب إلى المدرسة على أية حال». وابتسم. «إنني في السادسة عشرة، وكان من المفروض أن أعمل». وتنهد. «كنت أتمنى أن أتابع دروسي، فالعلم مهم».

وأخذ الأسقف بالضحك، ثم نهض ثانية وملأ كأسيهما:

ـــ لا تهتم لضحكي يا راينر، فلا معنى له. إنها مجرد أفكار تأتي الواحدة بعد الأخرى. إنها ساعتي، ساعة الأفكار. أنا لست مضيفاً ناجحاً. أليس كذلك؟

ـــ لا بأس بك. قال الصبي.

ـــ «هكذا إذن»، قال الأسقف وهو يجلس. «عرّف عن نفسك يا راينر مورلنغ هارتهايم».

ـــ أنا ألماني وكاثوليكي. وأريد أن أصنع من ألمانيا مكاناً حيث العرق والدين لا يعنيان الاضطهاد؛ وسوف أكرس حياتي لهذا الهدف، إن عشت.

ـــ سأصلي من أجلك، من أجل أن تحيا وتنجح.

ـــ «هل ستفعل هذا؟» سأله الولد بحياء. «هل أنك حقاً ستصلي من أجلي شخصياً، باسمي أنا؟».

ـــ طبعاً. والواقع أنك علمتني شيئاً. ليس في عملي إلّا سلاح واحد تحت تصرفي وهو الصلاة. ليس لي وظيفة أخرى.

ـــ من أنت؟

ـــ سأل راينر وقد بدأ يغمض عينيه تحت تأثير الخمر.

ـــ أنا البطريرك رالف دو بريكاسار.

ـــ آه، لقد ظننتك كاهناً عادياً.

ـــ أنا كاهن عادي، لا أكثر.

ـــ «سوف أعقد معك اتفاقاً»، قال وعيناه تلمعان. «ستصلي من أجلي يا أبت، وإذا عشت طويلاً لأحقق ما أريد، فسأعود إلى روما حتى أدعك ترى نتيجة صلواتك».

وابتسمت العينان الزرقاوان بحنان:

ـــ حسناً، اتفقنا. وعندما تأتي سأدعك تعلم ماذا «أعتقد» أنه قد حل بصلواتي.

ونهض:

ـــ ابق هنا أيها السياسي الصغير، سأحاول أن أجد لك شيئاً تأكله.

وبقيا يتحدثان حتى انبثق الفجر فوق القباب والأجراس، ورفرفت أجنحة الحمام خارج النافذة. ثم قاد الأسقف ضيفه عبر قاعات القصر العامة وهو يراقب رهبته بفرح، وتركه خارجاً في الهواء البارد النقي. ومع أنه لم يقدر له معرفة ذلك، فقد ذهب الصبي ذو الاسم الرائع إلى روسيا فعلاً، وهو يحمل معه ذكرى حلوة ومطمئنة: ذكرى رجل عظيم يصلي من أجله كل يوم في روما، في كنيسة السيد الرب بالذات.

عندما أصبحت الفرقة التاسعة على استعداد للرحيل إلى غينيا الجديدة، كان كل شيء قد انتهى تقريباً، ولم يبق إلا عمليات التنظيف. وخاب أمل أشهر فرقة عسكرية في استراليا إذ لم يعد باستطاعتها سوى أن تأمل بمجد أكبر، تحوذ عليه في مكان آخر، وهي تطارد اليابانيين عبر أندونيسيا. كان غوادالكانال قد قتل كل أمل عند اليابانيين في الوصول إلى استراليا، ومع ذلك، ومثل الألمان، فقد استسلموا بمرارة وحقد. وبالرغم من أن مواردهم كانت ضئيلة جداً، وجيوشهم مرهقة بسبب نقص المؤن والمساعدات، فقد جعلوا الأميركيين والاستراليين يدفعون غالياً ثمن كل شبر كسبوه. وفي انسحابهم، غادر اليابانيون بونا، وغونا، وسالاماوا، وتسللوا عائدين عبر الضفة الشمالية إلى «لاي» و «فينشافن».

في الخامس من أيلول عام ١٩٤٣، نزلت القوة التاسعة من البحر إلى الشاطىء في شرق «لاي» تماماً. كان الجو حاراً، والرطوبة مئة بالمئة؛ وكان المطر يتساقط كل بعد ظهر، بينما لم يكن فصل الأمطار متوقعاً قبل شهرين تماماً. وكان تهديد الملاريا يعني أن على كل واحد أن يتناول الـ «اتابرين»، وكانت الحبوب الصفراء الصغيرة تثير القيء عند الجميع كما لو كانوا قد أصيبوا بالملاريا

الحقيقية . وبسبب الرطوبة الدائمة كانت أحذيتهم وجواربهم مبللة دائماً ، وقد أصبحت أقدامهم اسفنجية ، وتشقق الجلد ما بين أصابعهم وأدمى . وكانت لدغات الذباب والبعوض تتحول إلى قروح وتلتهب .

وفي « بورت موريسي » رأوا حالة سكان غينيا الجديدة السيئة ، وإذا لم يكن بامكان هؤلاء تحمل المناخ دون الاصابة بفقر الدم والملاريا ، والتهاب الرئة ، والأمراض الجلدية المزمنة ، وتضخم الكبد والكآبة ، فلم يكن هناك أمل كبير بالنسبة للرجال البيض . ولقد رأوا هناك الكثير من الضحايا ، ليس من ضحايا اليابانيين وإنما من ضحايا غينيا الجديدة ، هزالى تملؤهم القروح ، ويهذون من الحمى . ولا شك أن اليابانيين قد قتلوا الكثير ، ولكن الملاريا قتلت عشرة أضعاف ما فعلوا في هذه المناطق التي ترتفع على ألف وثمانمئة متر ، حيث البرد قارس ، وحيث كانوا يرتدون ملابس استوائية خفيفة . كان الوحل لزجاً ودبقاً ، والغابات شيطانية يلتمع بها بعد المغيب ضوء بارد شاحب ، ينبعث من الفطريات الفوسفورية ، وكانت المنحدرات قاسية فوق أكوام من الجذور العارية المتداخلة والتي تعني بأنه لا يمكن للمرء أن ينظر إلى فوق لحظة واحدة ، بينما

كان يشكل هدفاً واضحاً للرماة المتخفين في الغابات. كان الفرق شاسعاً بين هذا المكان وافريقيا الشمالية، ولم يتأسف رجال الفرقة التاسعة بقاءهم هناك واشتراكهم في معركة العملين بدلاً من معركة كوكودا.

كانت «لاي» تقع على الشاطىء وسط مراع تملؤها الغابات الكثيفة، وكانت أكثر ملاءمة للمعارك من كوكودا، وكان بها بضعة منازل أوروبية، ومضخة بترول، ومجموعة من الأكواخ المحلية. وكان اليابانيون ما زالوا يبرهنون عن جَلَدهم، ولكنهم كانوا قلة وقد نفذت ذخيرتهم تقريباً وأرهقتهم غينيا الجديدة تماماً كما أرهقت الاستراليين الذين كانوا يحاربونهم، بسبب الأوبئة. وبعد التركيزات المدفعية الكثيفة والآليات الكبيرة في افريقيا الشمالية كان من المستغرب ألا ترى مدفعاً واحداً ولا مدفع هاون؛ لم يكن هناك إلا البنادق والحراب على استعداد طوال الوقت. ولقد أحب جيمس وباتسي الاشتباكات الفردية، حيث كانا يظلان سوية ويحرسان واحدهما الآخر. كان الأمر نوعاً من السقوط بعد عظمة جيش افريقيا. ولم يكن هؤلاء الأقزام الصفر ذوي الأسنان البارزة، الذين يبدون جميعاً وكأنهم يضعون نظارات، يملكون أية صفة من صفات المحاربين.

وبعد اسبوعين من وصول الفرقة التاسعة إلى «لاي»، لم يبق هناك ياباني واحد. وكان اليوم ربيعياً رائعاً في غينيا الجديدة، والرطوبة قد انخفضت عشرين درجة، والشمس تشع في السماء التي ازرقت فجأة بدلاً من لونها الأبيض البخاري، وتجمعات المياه تلمع خضراء وقرمزية وليلكية ما وراء المدينة. ولقد تراخى النظام قليلاً، وبدا كل من الرجال وكأنه قد أخذ يوم إجازة ليلعب الكريكيت، أو يتمشى، أو يمازح الشبان المحليين ليضحكهم فتظهر لثتهم الحمراء التي فقدت أسنانها بسبب مضغهم المتواصل لنواة التنبول. كان جيمس وباتسي يتمشيان بين الأعشاب الطويلة خارج المدينة لأنها كانت تذكرهم بدروغيدا، فقد كان لها اللون المصفر الباهت نفسه، وكانت طويلة مثل أعشاب دروغيدا بعد فصل من المطر الغزير.

ــ لن نمكث هنا طويلاً بعد الآن يا باتسي، قال جيمس، لقد هزمنا اليابانيين، وكذلك الألمان. والآن إلى المنزل يا باتسي، إلى دروغيدا! لم يعد بامكاني الانتظار.

ــ نعم. قال باتسي.

وسارا وأكتافهما متلاصقة، أكثر قرباً مما هو مسموح بين

رجلين عاديين ؛ وكانا أحياناً يلمسان بعضهما بشكل لا شعوري ، وإنما كانسان يتحسس جسمه هو ، ليحكه مثلاً ، أو ليتأكد من أنه لا يزال هنا بكامله . يا للذة الشعور بأشعة الشمس الحقيقية على وجهيهما بدلاً من ذلك الحمّام التركي الرطب المنبعث من كرة نارية ذائبة مغطاة بالبخار ! ومن وقت لآخر كانا يرفعان وجهيهما نحو السماء، ويحركان أنفيهما لتنشق رائحة الضوء الدافىء فوق العشب الشبيه بعشب دروغيدا ، ويحلمان قليلاً بأنهما قد عادا إلى هناك ، وأنهما يمشيان نحو شجرة ويلغا في قيظ الظهيرة ليستلقيا في الظل ، في عز الحر ، يطالعا كتاباً ، ويغفوا ، ثم يستديرا ويتحسسا الأرض الجميلة ، الطيبة ، فيشعرا بقلب جبار ينبض هناك في مكان ما تحت الأرض ، مثل قلب الأم بقرب طفل نائم .

ــ جيمس ، انظر ! إنها ببغاء مثل ببغاوات دروغيدا . قال باتسي وقد دفعته الصدمة إلى الكلام .

ربما كان أصل الببغاوات من منطقة لاي ، أيضاً ، ولكن مزاج اليوم وهذه الذكرى غير المتوقعة من الوطن خلقا عند باتسي فرحاً عظيماً مفاجئاً ، فأخذ يجري وراء العصفور ضاحكاً ، والعشب يداعب ساقيه العاريتين ، وقد رفع قبعته العتيقة عن رأسه

وأمسكها أمامه كما لو كان يعتقد حقاً أن باستطاعته الامساك بالببغاء، ووقف جيمس ينظر إليه مبتسماً.

ولم يكن قد ابتعد أكثر من عشرين متراً عندما حوّل المدفع العشب إلى نتف تتطاير حوله، ورأى جيمس ذراعيه يرتفعان، وجسده يدور بحيث بدا الذراعان وكأنهما يتوسلان. وتبلل بالدم من خصره إلى ركبتيه، دم الحياة.

ــ «باتسي، باتسي»، صاح جيمس، وشعر بالرصاص في كل خلية من خلايا جسمه هو، وأحس بنفسه ينازع، ويموت.

وتحركت ساقاه في خطوات واسعة واستطاع أن يجري، ولكن حذر الجندي عاوده فارتمى أرضاً في العشب، في الوقت الذي عاد المدفع يطلق قذائفه ثانية.

ــ باتسي، باتسي، هل أنت بخير؟ صاح بغباء وقد رأى الدم.

وجاءه جواب ضعيف لم يكن يتوقعه:

ــ نعم.

وزحف جيمس شبراً شبراً نحوه عبر العشب المعطر، وهو يصغي إلى الريح، وإلى حفيف جسمه على العشب وهو يتقدم.

وعندما بلغ أخاه وضع رأسه على الكتف العارية وأخذ ينتحب.

ـــ اسكت ، إني لم أمت بعد .

ـــ هل تتألم كثيراً؟ سأله جيمس وهو يسحب البنطال القصير الملوث بالدم وينظر مرتعشاً إلى الجسد الدامي .

ـــ لا يبدو أني سأموت ، على أية حال .

وتجمع الرجال حولهما ، ولاعبوا الكريكيت ما زالوا يضعون ربطات الأرجل والقفازات ، وذهب البعض للمجيء بحمالة بينما قام الآخرون باسكات المدفع في الطرف الآخر من الغابة . وقد تمت العملية بحزم أكثر من المعتاد لأن الجميع كانوا يحبون هاربو ، ولو حصل له أي شيء فالله وحده يعلم ما الذي سيجري لجيمس .

يوم جميل ، كانت الببغاء قد ذهبت منذ مدة طويلة ولكن طيوراً أخرى كانت تغرد وتثرثر باطمئنان ، ولم تسكت إلا خلال المعركة القصيرة .

ـــ «إن باتسي سعيد الحظ» ، قال الطبيب لجيمس فيما بعد .

«لقد تلقى على الأقل دزينة من الرصاص ، ولكنها أصابته في فخذيه . أما الأثنتان أو الثلاثة اللواتي أصبنه في المنطقة العليا فقد توضعتا في عظم الحوض أو في العضلة . ولكني أستطيع القول إن أمعاءه لم تصب ، ولا مثانته . والشيء الوحيد ...

ـــ « حسناً ، ماذا ؟ » قال جيمس يستحثه وقد نفذ صبره ؛ وكان لا يزال يرتجف وقد أزرق ما حول فمه .

ـــ من الصعب تأكيد أي شيء في هذه المرحلة بالطبع ، ولست جرّاحاً ماهراً مثل بعضهم في « مورسبي » . سيكون بقدرتهم اعطاءك المزيد من المعلومات ، ولكن مجرى البول قد أصيب وكذلك عدد من الأعصاب الدقيقة في الشرج . إني متأكد أنه يمكن « اصلاحه » تماماً إلا فيما يتعلق بالأعصاب ، فهي لا تتفاعل جيداً مع الأسف » ، وتنحنح . «إن الذي أحاول قوله هو أنه لن يبقى عنده احساس كبير في أعضائه التناسلية » .

وأحنى جيمس رأسه ، ونظر إلى الأرض عبر غشاء من الدموع وقال :

ـــ إنه سيعيش على الأقل .

وحصل على إجازة لكي يطير إلى « بورت مورسبي » مع أخيه ، ويبقى هناك حتى يزول كل خطر عن باتسي . كانت الاصابات شيئاً يقارب الأعجوبة ، فقد انتشر الرصاص حول كل المنطقة السفلى من البطن دون أن يدخله ، ولكن طبيب الفرقة التاسعة كان على حق ، فقد كان العطب في منطقة الحوض كبيراً .

ولم يكن باستطاعة أحد أن يتكهن عن مدى الاحساس الذي سيستعيده فيما بعد .

ــ « ذلك لا يهم كثيراً » قال باتسي من الحمالة التي كان مستلقياً عليها وهو يطير إلى سيدني . « إني لم أكن أبداً شديد الميل للزواج ، على كل حال . والآن ، انتبه إلى نفسك يا جيمس ، أتسمع ؟ إني أكره أن أفارقك » .

ــ سأنتبه لنفسي يا باتسي !

وابتسم جيمس هو يشد بقوة على يد أخيه :

ــ إن من غير المعقول أن أقضي بقية الحرب بدون أعز رفاقي . سأكتب لك وأخبرك عما يحدث . أبلغ سلامي إلى السيدة سميث وإلى ميغي والوالدة والأخوة . إيه ؟ الواقع أنك محظوظ بالعودة إلى دروغيدا .

وطارت « في » والسيدة سميث إلى سيدني لاستقبال الطائرة الأميركية التي كانت تحمل باتسي من تاونسفيل ، وبقيت « في » هناك بضعة أيام ولكن السيدة سميث مكثت في فندق راندويك ، قريبة من المستشفى العسكري ، وبقي باتسي في المستشفى ثلاثة أشهر . وانتهى دوره في الحرب . وبكت السيدة سميث كثيراً ولكنها

شكرت الله كثيراً أيضاً. فمن جهة لن يستطيع باتسي أن يحيا حياة كاملة بعد اليوم، ولكنه يستطيع القيام بكل شيء آخر: ركوب الخيل، والسير، والركض. لم يكن الزواج يبدو مقدراً لعائلة كليري على كل حال. وعندما سمح له بمغادرة المستشفى، قادت ميغي السيارة الرولز من غيللي، ووضعته الامرأتان على مقعد السيارة الخلفي وأحاطتاه بالأغطية والمجلات وهما تصليان من أجل نعمة أخرى: أن يعود جيمس إلى البيت هو أيضاً.

الفصل السادس عشر

ولم تصدق غيللانبون أن الحرب قد انتهت أخيراً إلى أن وقّع مندوب الامبراطـور هيروهيتـو وثيقـة استسلام اليابـان الرسميـة. ووصلت الأنباء يوم الأحد الواقع في الثاني من أيلول عام ١٩٤٥، ست سنوات كاملة منذ بدء الحرب. ست سنوات قاتلة. وبقيت أماكن عديدة فارغة لن يأخذ أحد مكانة فيها: فلقد قتل روري ابن دومينيك اوبروك، وجون ابن هوري هوبتون، وكورماك ابن ايدن كارمايكل. أما انغوس ابن روس ماكوين الأصغر، فلن يستطيع السير بعد الآن، وسيتمكن دافيد ابن انطوني كنغ من السير ولكنه لن يرى أين يضع قدميه. وباتسي، لن يتمكن باتسي مطلقاً من انجاب الأولاد. ثم كان هناك أولئك ذوو الجروح الخفية والتي تركت ندبات لن تمحي؛ أولئك الذين ذهبوا إلى الحرب بفرح،

متلهفين ضاحكين، وعادوا إلى بيوتهم صامتين، يتكلمون القليل ويضحكون نادراً. من كان يحلم فقط عند بدء الحرب أنها ستدوم هكذا أو ستكلف كل ذلك الثمن؟

لم يكن سكان غيللانبون ممن يؤمنون بالخرافات بشكل خاص، ولكن أقلهم إيماناً ارتجف في ذلك اليوم، الأحد، الثاني من أيلول. لأنه في اليوم نفسه الذي انتهت فيه الحرب، انتهى معها أطول جفاف في تاريخ استراليا. وخلال عشر سنوات لم تسقط إلا زخات معدودة من المطر، أما في ذلك اليوم فقد غطت الغيوم السماء، غيوم سوداء تجاوزت سماكتها مئات الأمتار، تفجرت وصبت ستة وثلاثين سنتمتراً من الماء على الأرض الظمأى. ولو سقطت كميات قليلة من الأمطار لما كان ذلك يعني نهاية الجفاف، وأما ستة وثلاثون سنتمتراً فقد كانت تعني «العشب». ووقفت ميغي و «في» وبوب وجاك وهوغي وباتسي على الشرفة ينظرون عبر الظلام، ويستنشقون رائحة المطر الخلابة الحلوة تتصاعد من الأرض المشققة. ووقفت الخيول والخراف والأبقار والخنازير وقد فرجت قوائمها على الأرض الذائبة، وتركت الماء ينصب فوق أجسامها المرتعشة، وكان أكثرها قد ولد بعد أن

سقطت آخر الأمطار المشابهة لهذه على الأرض. وغسل المطر المقبرة، ونظف كل شيء، وأزال الغبار عن أجنحة الملاك المنتصب هناك. وانتفخ الجدول وارتفعت زمجرة مياهه مخلوطة بضجيج المطر العارم. مطر، مطر، مطر! مثل نعمة تغدقها يد ضخمة لا مرئية، أخيراً. المطر المبارك الرائع. لأن المطر يعني الأعشاب، والأعشاب تعني الحياة.

وظهرت على صفحة الأرض نبتات صغيرة خضراء شاحبة، رفعت أوراقها الصغيرة نحو السماء، وتفرعت، وتبرعمت، وغدت أكثر اخضراراً عندما طالت ثم بهت لونها وتحول إلى لون كلون الشحم المصهور، ثم أصبح فضياً. عشب دروغيدا الطويل. وبدا المرج الأوسط وكأنه حقل قمح يتماوج مع كل هبة ريح مداعبة، وتفجرت حدائق المنزل الكبير ألواناً، وانفتحت البراعم الضخمة، وبدت أشجار الصمغ فجأة بيضاء وخضراء مصفرة من جديد بعد تسع سنوات بقيت فيها مدفونة تحت دثار من الغبار. لأنه بالرغم من أن خزانات ذلك المعتوه مايكل كارسون المتعددة كانت لا تزال تحوي من المياه ما يكفي لإبقاء حدائق المنزل حية، إلا أن الغبار كان قد توضع على كل ورقة وكل زهرة، فأبهتَ ثم محى لونها.

وتحققت الأسطورة القديمة : كان في دروغيدا من الماء ما يكفيها فعلاً عشر سنوات من الجفاف ، وإنما لحاجات المنزل الكبير فقط .

وعاد بوب وجاك وهوغي وباتسي إلى المستزادات ، وبدأوا يفكرون بأفضل طريقة لتجديد قطعانهم ؛ وفتحت « في » زجاجة حبر أسود جديدة ، وأغلقت غطاء زجاجة الحبر الأحمر بضراوة ، ورأت ميغي نهاية عملها على ظهور الجياد تقترب ، فلن يطول الوقت حتى يعود جيمس ويأتي الرجال باحثين عن عمل .

بعد هذه السنوات التسع ، لم كن قد بقي هناك ما يذكر من الأبقار أو الخرفان ؛ لم يبق إلا حيوانات التوالد التي كانت محفوظة في الحظائر وتغذى باليد مهما كانت الظروف المناخية ، فهي زهرة القطعان أكانت كبوشاً أو أحصنة أو عجولاً . واتجه بوب نحو الشرق إلى طرف المنحدرات الغربية ، ليشتري بعض النعاج الجيدة الأصل من مزارع لم ينكبها الجفاف كثيراً . ورجع جيمس إلى البيت ، وأضيف ثمانية مربيي ماشية على لوائح العاملين في دروغيدا . وغادرت ميغي السرج .

وبعد هذا بفترة قليلة ، تلقت ميغي رسالة من لوك ، الثانية منذ تركته :

«لن يطول الأمر بعد الآن، أعتقد. قال في رسالته. بضع سنوات أيضاً في قطع القصب وأصل إلى الهدف. إن ظهري العجوز يؤلمني قليلاً هذه الأيام، ولكن بامكاني مجاراة أفضل القاطعين، ثمانية أو تسعة طنات يومياً. هناك اثنا عشر فريقاً آخرين يعملون لحسابنا، أنا وآرن، وهم من خيرة الشباب. والمال ينهمر بسهولة كبرى، كما أن أوروبا بحاجة إلى السكر بالسرعة القصوى. إني أكسب أكثر من خمس آلاف ليرة سنوياً، وأوفرها تقريباً بكاملها. لن يمر وقت طويل يا ميغ حتى ترينني في كينونا، وربما في ذلك الحين، وعندما أكون قد دبرت كل الأمور، سوف ترغبين في العودة إلي. على فكرة، هل أعطيتك الصبي الذي كنت ترغبين به؟ غريب أمر النساء، وكيف لا يحلمن إلا بالأطفال! أعتقد أن هذا هو سبب فراقنا، إيه؟ دعيني أعلم كيف حالك، وكيف تحملت دروغيدا الجفاف. المخلص لوك».

خرجت «في» إلى الشرفة حيث كانت ميغي تجلس وبيدها الرسالة، ونظراتها شاردة عبر مرج المنزل الأخضر البراق.

ــ كيف حال لوك؟

ــ دائماً كما هو يا أماه. لم يتغير قيد شعرة. ولا يزال يتحدث عن

قليل من الوقت أيضاً في قصب السكر اللعين ، وعن المزرعة التي سيشتريها يوماً قرب كينونا .

ــ هل تظنين أنه سيفعل ذلك حقاً ذات يوم ؟

ــ أظن ذلك . ذات يوم .

ــ هل ستلحقين به يا ميغي ؟

ــ ليس طالما حييت .

وجلست « في » على كرسي خيزراني بقرب ابنتها وهي تدير الكرسي حتى ترى ميغي بوضوح . كانت أصوات الرجال تُسمع في البعيد ، وضربات المطرقة ؛ فقد أحيطت الشرفة ونوافذ الطابق العلوي أخيراً بشبكة من الخيوط المعدنية الدقيقة للحماية من الذباب . كانت « في » قد عارضت ذلك لسنوات طويلة ، فلا يهم أعداد الذباب الهائلة ، لكنها لن تشوه شكل المنزل بهذه الشبكة القبيحة . لكن الجفاف قد طال وأصبح الذباب ألعن من قبل ، إلى أن رضخت « في » للأمر قبل أسبوعين من نهاية الجفاف ، وكلفت متعهداً بوضع الشبكة الواقية على كل مباني المزرعة ، ليس فقط المنزل الكبير وإنما كل البيوت والسقائف الموجودة على أرضهم .

ولكنها لم تقبل بادخال الكهرباء إلى البيت ، على الرغم من

أنه ، ومنذ عام ١٩١٥ ، كان هناك مولد كهربائي في سقيفة الجز . وهل يعقل أن تتخيل دروغيدا دون أضواء مصابيحها البترولية الناعمة؟ ومع ذلك فقد كان هناك فرن غاز جديد ، وحوالي دزينة من البرادات تدور على الكيروسين ؛ ولم تكن الصناعة الاسترالية قد بلغت المستوى الانتاجي لزمن السلم ، ولكن الأدوات المنزلية سرعان ما ستفرض وجودها .

وسألتها « في » فجأة :

ــ « لماذا لا تطلّقين لوك يا ميغي ، وتتزوجين من جديد؟ »

ثم تابعت :

ــ « إن أنوك ديفيز لن يتردد ثانية واحدة ، إنه لم ينظر إلى امرأة أخرى أبداً » .

ونظرت عينا ميغي الجميلتان إلى أمها باستغراب :

ــ يا الهي يا أماه ، إني أعتقد أنك تكلمينني كما لو كنت حقاً امرأة مثلك !

ولم تبتسم « في » فهي ما زالت نادرة الابتسام .

ــ حسناً ، إذا لم تكوني قد أصبحت امرأة حتى الآن فلن تصبحي أبداً . إني أقر أنك قد كسبت ، ولا شك أني قد هرمت ، لأني أشعر برغبة في الثرثرة .

وضحكت ميغي وقد أفرحها تصرف أمها، ولم تكن ترغب في تخريب مزاجها الجديد:

ــ إنه المطر يا أماه. لا بد أنه ذلك. أليس من الرائع رؤية العشب في دروغيدا ثانية، والمروج الخضراء حول البيت؟

ــ نعم، هذا رائع. ولكنك تتجنبين أسئلتي. لماذا لا تطلقين لوك وتتزوجين من جديد؟

ــ إن هذا ضد قوانين الكنيسة.

ــ «هراء»، قالت «في» بلطف. «إن نصفك مني وأنا لست كاثوليكية. فلا تراوغيني أنا يا ميغي. لو كنت ترغبين في الزواج ثانية فلن ترددي في طلاق لوك».

ــ نعم، أظن ذلك. ولكني لا أريد الزواج ثانية. إنني سعيدة تماماً مع الأولاد في دروغيدا.

ووصلت إلى أسماع ميغي ضحكة شبيهة جداً بضحكتها، آتية من دغلة قريبة مليئة بالأزهار الأرجوانية التي كانت تخفي الضاحك.

ــ «اسمعي، هذا دين. أتعلمين أنه يستطيع الآن، وبسنه هذا، أن يركب الخيل مثلي تماماً؟» وانحنت إلى الأمام. «دين! ماذا تخترع أيضاً؟ اخرج من عندك حالاً».

وخرج من مخبئه تحت الدغلة ويداه مليئتان بالوحل الأسود، وقد تلطخ ما حول فمه ببقع سوداء مريبة.

ــ ماما! هل تعلمين أن طعم التراب لذيذ؟ إنه لذيذ حقاً، صدقيني!.

وأتى يقف بمواجهتها. كان في السابعة من عمره، طويلاً، نحيلاً، قوياً برشاقة، وكان وجهه جميلاً ورقيقاً كالزجاج.

وظهرت جوستين، وأتت تقف بقربه. كانت هي أيضاً طويلة القامة، ولكنها كانت نحيفة أكثر منها نحيلة، ووجهها منمش بشكل مروع. وكان من الصعب تمييز تقاطيع وجهها تحت البقع البنية، ولكن عينيها المثيرتين كانتا لا تزالان شاحبتين كما في طفولتها، وكان حاجباها ورموشها الرملية شديدي الشقرة حتى كان من الصعب رؤيتهم من خلال النمش. وكانت ضفائرها الحمراء كشعر بادي قد أفلتت تقريباً بين كتلة من التجعيدات التي تحيط بوجهها الشبيه بوجه جنية طفلة. وكان من الصعب القول إنها طفلة جميلة، إنما لم يكن من السهل نسيانها على من يراها، ليس فقط بسبب العينين، ولكن بسبب قوة شخصيتها البارزة. كانت

متعقلة، ذكية، مستقيمة لا تقبل التحيز، وفي الثامنة من عمرها، كانت جوستين لا تأبه بما يقال عنها أكثر مما كانت تفعل وهي طفلة. كان هناك انسان واحد شديد القرب منها: دين. كانت لا تزال تعبده وتنظر إليه وكأنه ملكها الخاص، وأدّى ذلك إلى عدة اصطدامات بينها وبين أمها. وقد تلقت جوستين صدمة كبرى عندما تركت ميغي عملها في المراعي وعادت لتمارس وظيفتها كأم، لأن جوستين أولاً لم تكن من أولئك الفتيات اللواتي يحتجن إلى صديقة يفضين لها بأسرارهن، ولا إلى الاعجاب الحار. ثم إن ميغي كانت شخصاً يحرمها من اللذة التي تجدها بصحبة دين، وكانت أكثر تفاهماً مع جدتها التي كانت من نوع يحظى باستحسان جوستين الصادق، لأنها كانت متحفظة وتدع الجميع يشعرون بأن عندهم شيئاً من العقل.

ــ لقد قلت له ألّا يأكل التراب. قالت جوستين:

ــ حسناً، إني لن أقتله يا جوستين، ولكن ما فعله مضر له.

واستدارت نحو ابنها:

ــ لماذا يا دين؟

وفكر جدياً بالسؤال قبل أن يجيب:

ــ لقد كان التراب موجوداً هناك فأكلته. ولو كان مضراً لي ألا يكون طعمه سيئاً، أيضاً؟ ولكنه طيب المذاق.

ــ «ليس حتماً»، قاطعته جوستين بحكمة. «لقد يئست منك يا دين، حقاً. هناك أشياء لا ألذّ من طعمها ومع ذلك فهي سامية».

ــ «سمّي لي واحداً منها. قال متحدياً:

ــ دبس السكر. قالت بخيلاء.

كان دين قد أصيب بوعكة شديدة بعد أن أكل علبة دبس كاملة وجدها في خزانة السيدة سميث. وتقبل الطعنة ولكنه أجابها معاكساً:

ــ ولكنني لا أزال حياً. إذن فالدبس ليس ساماً.

ــ ذلك أنك قد تقيأت، فلو لم تتقيأ لكنت قد متّ.

كان جواباً لا يقبل النقاش. كان وأخته بالقامة نفسها تقريباً، فتأبط ذراعها بحنان، وابتعد الاثنان يقفزان فوق المرج نحو الكوخ الذي بناه لهما أخوالهما بناء على رغبتهما، تحت أغصان شجرة الفلفل المتداعية صوب الأرض. وكان الخوف من النحل قد أثار معارضة الجميع على موقع الكوخ، ولكن الولدين برهنا أنهما على

حق فقد كانت النحلات تتعايش معهما بصداقة، لأن شجرة الفلفل، كما قالا، كانت من أجمل الأشجار، وتصلح للخلوة، وكانت رائحتها عطرة وجافة جداً، وكانت عناقيدها المؤلفة من كرات وردية دقيقة تتدلى من أغصانها، وتتحول إلى ندف زهرية عطرية عندما تسحقها اليد.

ـ «إنهما مختلفان تماماً عن بعضهما، دين وجوستين، ومع ذلك فهما جد متفاهمان»، قالت ميغي. «إن ذلك لا يكف عن إثارة دهشتي. لا أظن أني رأيتهما مرة يتشاجران غير أني لست أفهم كيف يتجنب دين الشجار مع شخص متصلب وعنيد مثل جوستين».

ولكن «في» كانت تفكر بشيء آخر:

ـ «يا الهي، إنه صورة حية لوالده»، قالت وهي تنظر إلى دين ينحني تحت أغصان شجرة الفلفل المنخفضة ويختفي عن الأنظار.

وشعرت ميغي بنفسها باردة كالثلج، وكان هذا رد فعل تلقائي لم تستطع تجنبه أبداً رغم أنها سمعت هذه العبارة مئات المرات خلال هذه السنوات. كان هذا طبعاً شعورها بالذنب.

كان الناس يقصدون لوك بذلك، ولِمَ لا؟ إذ أن الشبه كان كبيراً بين لوك أونيل ورالف دو بريكاسار. ولكنها رغم محاولاتها لم تكن تستطيع أن تحتفظ برباطة جأشها عندما تسمع أحداً عندما تسمع أحداً يتحدث عن الشبه بين دين ووالده.

وتنهدت طويلاً محاولة أن تبدو لا مبالية:

ـــ هل تعتقدين ذلك يا أماه؟

سألت بتكاسل وهي تؤرجح قدمها. وأضافت:

ـــ أنا نفسي لا أرى الشبه. إن دين لا يشبه لوك على الاطلاق. لا في طبعه ولا في تصرفاته.

وضحكت «في»، ورنت ضحكتها كالشخير ولكنها كانت ضحكة حقيقية. وتوقفت عيناها الشاحبتان بسبب الشخوخة والتعب بسخرية على وجه ميغي وقد علاه الذهول:

ـــ هل تظنينني بلهاء يا ميغي؟ إني لا أقصد لوك اونيل، إني أعني أن دين هو نسخة مطابقة عن رالف دو بريكاسار.

رصاص. أحست بقدمها الثقيلة كالرصاص تهوي على البلاط الاسباني، وارتخى بدنها وقد أصبح ثقيلاً هو أيضاً، كالرصاص، وانتفض قلبها الرصاصي في صدرها محاولاً أن ينبض

رغم ثِقله . انبض ، عليك اللعنة ، انبض ! عليك أن تتابع نبضك من أجل ابني .

ـــ « ولكن ، يا أماه » . كان صوتها مثقلاً بالرصاص أيضاً . « لكن ، يا أماه ، ما هذه الأفكار ؟ الأب رالف دو بريكاسار ؟ »

ـــ وكم من شخص تعرفين يحمل هذا الاسم؟ إن لوك اونيل لم ينجب هذا الصبي . إنه ابن رالف دو بريكاسار . لقد علمت ذلك في اللحظة التي خرج فيها من بطنك عند ولادته .

ـــ إذن ، لماذا لم تقولي شيئاً ؟ لماذا انتظرت حتى أصبح في السابعة حتى تنطقي بهذا الاتهام الجنوني الذي لا أساس له؟

ومدت « في » ساقيها ، وشبكتهما عند الكاحل :

ـــ لقد أصبحت عجوزاً يا ميغي ، ولم تعد الأشياء تؤلمني مثل قبل . إن الشيخوخة نعمة . إني مسرورة برؤية دروغيدا تنتفض ثانية بالحياة ، وأحس بنفسي أفضل حالاً من قبل بسبب ذلك . وللمرة الأولى منذ سنتين أشعر برغبة في الكلام .

ـــ حسناً ، يجب القول أنك عندما تقررين الكلام فأنت بارعة في العثور على موضوع للكلام ! أماه ، ليس لك الحق على الاطلاق في أن تقولي شيئاً من هذا القبيل . إنه غير صحيح .

قالت ميغي بصوت يائس وهي غير متأكدة إن كانت تريد تعذيبها أو مؤاساتها. وفجأة مدت «في» يدها ووضعتها على ركبة ميغي، وكانت تبتسم، ليس بمرارة أو احتقار، بل باستلطاف عجيب:

ـ لا تكذبي علي يا ميغي. اكذبي على أي مخلوق تحت الشمس وإنما لا تكذبي علي. لن يقنعني شيء أبداً أن لوك اونيل هو والد هذا الصبي. إني لست خرفاء، كما أن لي عينين. ليس به أي شيء من لوك، وليس به أي شيء لأن ذلك غير ممكن. إنه صورة الكاهن. انظري إلى يديه، إلى شكل شعره وكيف يتموج فوق الجبين، إلى هيئة وجهه، وجفنيه، وفمه. حتى طريقته في التحرك. رالف دو بريكاسار يا ميغي، رالف دو بريكاسار.

واستسلمت ميغي وبدا عليها ارتياح هائل ظهر في الطريقة التي جلست بها مسترخية، مستريحة.

ـ وذلك التحفظ في عينيه. هذا ما لاحظته بنفسي أكثر من أي شيء آخر. أهو واضح إلى هذا الحد؟ هل يعلم الجميع بذلك يا أماه؟

ــ « كلا بالطبع » ، قالت « في » أكيدة . « إن الناس لا يلاحظون أبعد من لون العينين ، وشكل الأنف ، والهيئة العامة . وكل هذه المواصفات قريبة من لوك . لقد عرفت أنا لأني كنت أراقبك طوال تلك السنوات . لم يكن عليه إلا أن يشير لك باصبعه الصغير لكي تجري اليه وترتمي بين ذراعيه . وهكذا فعندما أكلمك عن الطلاق ، فلا تجيبيني بترهات من نوع : « إنه يتعارض وقوانين الكنيسة » ، لقد كنت على استعداد لتحدي قوانين كنيسة أكبر من هذا الذي يتعلق بالطلاق . ليس عندك ذرة من الخجل يا ميغي . هكذا أنت . بلا حياء » . وعلا صوتها بشيء من القسوة . « ولكنه كان عنيداً . وكان يريد قبل كل شيء أن يصبح كاهناً كاملاً ، وأتيت أنت في المرتبة الثانية . يا للحماقة ! لم يفده ذلك بشيء ، أليس كذلك ؟ كانت المسألة كلها مسألة وقت ، قبل أن يحدث الذي لا مفر منه » .

وهوت مطرقة من يد أحد العمال على زاوية الشرفة ، وتبعها سيل من الشتائم ، وتصلبت « في » وارتعشت :

ــ هل تظنين أنك خدعتني عندما رفضت أن يكون رالف دو بريكاسار هو من يبارك زواجك من لوك ؟ كنت أعلم .

كنت تريدنه كعريس وليس ككاهن يبارك العرس. ثم عندما جاء إلى دروغيدا قبل أن يسافر إلى أثينا ولم يجدك هنا، كنت أعلم أنه سيذهب باحثاً عنك، وسيجدك عاجلاً أم آجلاً. لقد هام هنا على وجهه وكأنه طفل صغير ضائع. لقد كان زواجك من لوك أذكى ما قمت به يا ميغي، فحين كان يعرف أنك تتوقين إليه، لم يكن يريدك؛ ولكنه في اللحظة التي علم بها أنك أصبحت ملكاً لشخص آخر، أصبح حالاً مثل الكلب في المعلف. وبالطبع كان يقنع نفسه بأن تعلقه بك كان نقياً كالثلج، ولكن الواقع أنه كان بحاجة إليك. كنت ضرورية بالنسبة إليه بطريقة لم تكنها امرأة غيرك، ولن تكونها، على ما أظن. عجيب»، قالت «في» باستغراب حقيقي. «كنت دائماً أتساءل عما يجده بك، ولكنني أعتقد أن الأمهات يعمين غالباً عن رؤية بناتهن إلا عندما يصبحن عجائز ويفقدن الغيرة من الشباب. أنت ترين جوستين كما كنت أراك».

واستندت إلى الوراء على كرسيها وهي تتأرجح بلطف، وقد أغمضت عينيها نصف اغماضة، ولكنها كانت تنظر إلى ميغي كعالم ينظر إلى عينة نادرة. وتابعت:

ـــ ومهما يكن ما رآه فيك فقد رآه منذ اللحظة الأولى التي قابلك بها، ولم يكف هذا عن سحره. وكان أصعب شيء عليه رؤيتك تكبرين، ولكنه واجه هذا عندما جاء ليكتشف أنك قد ذهبت، تزوجت. مسكين رالف! لم يكن له أي خيار سوى البحث عنك. ولقد وجدك، أليس كذلك؟ لقد علمت ذلك عندما عدت إلى البيت قبل أن تضعي دين. فحالما حصلت على رالف دو بريكاسار لم يعد لك حاجة للبقاء مع لوك.

ـــ نعم. قالت ميغي متنهدة. لقد وجدني. ولكن ذلك لم يحل مشكلتنا، أليس كذلك؟ كنت أعلم أنه لن يرغب أبداً في التخلي عن إلهه. ولهذا السبب كنت مصممة على الحصول على الجزء الوحيد منه الذي لا يستطيع الله الحصول عليه. ولده. دين.

ـــ «لكأني أسمع صدى صوتي»، قالت «في» وهي تضحك ضحكة حادة. «يبدو لي وكأني أسمع نفسي أردد هذه الكلمات».

ـــ فرانك؟

وصرّت الكرسي على الأرض، ونهضت «في» تمشي على بلاط الشرفة، ثم عادت ونظرت بقسوة إلى ابنتها:

ـــ حسناً، حسناً، واحدة بواحدة، أليس كذلك يا ميغي؟ منذ متى وأنت تعلمين؟

ـــ منذ كنت طفلة صغيرة. منذ اليوم الذي هرب فيه فرانك.

ـــ كان والده متزوجاً عندما عرفته. كان أكبر مني بكثير، سياسياً مهماً جداً. ولو قلت لك اسمه فسوف تعرفينه. هناك شوارع سميت باسمه في كل أنحاء نيوزيلاندة، ومدينة أو اثنتان. لا بد أنه قد مات، بالطبع. دعينا نسميه باهيكا، إنه اسم ماووري لا يليق برجل أبيض، ولكن لا بأس. هناك بعض الدم الماووري في عروقي، ولكن والد فرانك نصف ماووري، ذلك واضح في فرانك لأنه أخذه منا نحن الاثنين. آه، ولكني أحببت ذلك الرجل! ربما كان ذلك نداء الدم فينا، لست أدري. كان وسيماً، طويل القامة، شعره أسود كثيف، وعيناه سوداوان براقتان ضاحكتان. كان يملك كل شيء لم يملكه بادي. مثقفاً، عالي التربية، ولقد دفنت نفسي في ذلك الوهم طويلاً إلى أن فات الأوان. فات الأوان.

وتكسر صوتها، واستدارت تنظر إلى الحديقة:

ـــ إن علي أن أكفر عن أشياء كثيرة يا ميغي، صدقيني.

ــ ألهذا السبب كنت تحبين فرانك أكثر منا جميعاً ؟
ــ كنت أظن ذلك لأنه كان ابن باهيكا ، ولأن الباقين كانوا أولاد بادي .

وجلست وأطلقت زفرة حزينة أليمة :

ــ وهكذا أعادت القصة نفسها . لقد ضحكت عندما رأيت دين ، صدقيني .
ــ أماه ، أنت امرأة فريدة .
ــ حقاً ! وطقطق الكرسي ، وانحنت « في » إلى الأمام .
ــ دعيني أهمس لك بسر يا ميغي ، غير عادي أو ربما أكثر من عادي . إنني امرأة تعيسة جداً . لقد كنت تعيسة دائماً لسبب أو لآخر منذ اليوم الذي قابلت فيه باهيكا ، وكان الخطأ خطأي في أغلب الأحوال . لقد أحببته ولكن ما حدث لي لا يمكن أن يحدث لامرأة أخرى . ثم كان هناك فرانك ... وتعلقت بفرانك ، وتجاهلتكم أنتم . وتجاهلت بادي الذي كان أفضل ما حدث لي في حياتي . ولكنني لم أفهم ذلك في حينه . كنت مشغولة بمقارنته مع باهيكا . آه ، نعم ، لقد كنت ممتنة له ، ولم يكن باستطاعتي إلا الاعجاب به . ــ وهزت بكتفيها ــ حسناً ، كل هذا من

الماضي. والذي أريد أن أقوله هو أن كل ذلك كان خطأ، وأنت تعلمين ذلك، أليس كذلك؟

ـ كلا، لا أعلم. والكنيسة بنظري مخطئة عندما تصر على أن تحرم كهنتها من هذه السعادة.

ـ غريب كيف نتحدث عن الكنيسة بالمؤنث. لقد سرقت رجلاً يخص أنثى أخرى يا ميغي، كما فعلت أنا تماماً.

ـ لم يكن رالف مرتبطاً بأية امرأة أخرى سواي. فالكنيسة ليست امرأة يا أماه. إنها شيء، إنها مؤسسة.

ـ لا ترهقي ذاتك أو تحاولي تبرير نفسك أمامي. إنني أعرف كل الأجوبة. لقد كنت أفكر كما تفكرين، في ذلك الوقت. وكان الطلاق أمراً غير معقول بالنسبة له. كان أول رجل من شعبه يصل إلى مركز سياسي مرموق، وكان عليه أن يختار بين شعبه وبيني. وأي رجل يتردد أمام فرصة كهذه ليبرهن عن نبله؟ مثل رالف الذي اختار الكنيسة، أليس كذلك؟ وهكذا فكرت أن الأمر لا أهمية له، وإني سأرضى بما يمكنني أن آخذ منه، سآخذ ولده لكي أحبه على الأقل.

ولكن ميغي وجدت نفسها تكره أمها لأنها ترثي لها، ولأنها

تحاول أن تفهمها بأنها هي أيضاً، ميغي، قد حطمت كل شيء حولها. وهكذا فقد قالت:

ـ لقد برهنت على فطنة أشد من فطنتك يا أماه. إن دين يحمل اسماً ليس بامكان أحد انتزاعه منه، حتى لوك نفسه.

وانطلقت أنفاس «في» مثل الصفير من بين أسنانها:

ـ مقرفة! آه، إنك غشاشة يا ميغي! وكيف تبدين كالملاك! حسناً، إن والدي اشترى لي زوجاً لكي أستطيع أن أعطي اسماً لفرانك، ولكي يتخلص مني: إني أراهن أنك لم تكوني تعرفين ذلك! وكيف عرفت؟

ـ هذا شيء يخصني.

ـ إنك ستدفعين ثمن فعلتك يا ميغي. صدقيني، سوف تدفعين. لن تستطيعي الهرب من النتائج أكثر مما فعلت أنا. لقد فقدت فرانك بأبشع طريقة يمكن لأم أن تتحملها، وليس بامكاني حتى رؤيته، وأنا مشتاقة له... انتظري! إنك ستفقدين دين أنت أيضاً.

ـ ليس إذا استطعت تجنب ذلك. لقد فقدت فرانك لأنه لم يكن قادراً على التفاهم مع والدي. ولقد فعلت ما بوسعي حتى لا

يكون لدين والد يتحكم به، سوف أقيده إلى دروغيدا. لماذا تظنين أني أجعل منه مربي ماشية منذ الآن؟ سيكون في أمان في دروغيدا.

ــ وهل كان والدك في مأمن؟ وستوارت؟ ليس هناك من مكان أمين. ولن يكون باستطاعتك الاحتفاظ بدين هنا إذا رغب هو في الرحيل. إن أباك لم يقيّد فرانك. لم يكن بالامكان تقييد فرانك. وإذا كنت تعتقدين أن بامكانك أنت، امرأة، أن تقيّدي ابن رالف دو بريكاسار فأنت تخطئين خطأً جسيماً. وهذا حتمي، أليس كذلك؟ إذا لم نستطع، لا أنا ولا أنت، تقييد الأب، فكيف نأمل الامساك بالابن؟

ــ إن الطريقة الوحيدة التي ستفقدني دين هي أن تتكلمي يا أماه. وأنا أحذرك، إنني سأقتلك في تلك الحال.

ــ لا تخافي، إني لا أستحق أن تشنقي بسببي. إن سرك في أمان عندي؛ لأني لست إلا متفرجة مهتمة بما أرى. نعم، حقاً، هذا كل ما أنا. متفرجة.

ــ آه يا أماه! ما الذي جعلك هكذا؟ لماذا تبقين هكذا، منطوية على نفسك ترفضين العطاء؟

وتنهدت «في»:

ــ أشياء حصلت قبل أن تولدي بسنوات طويلة. قالت بصوت مثير للشفقة.

ولكن ميغي هزت قبضتها بشدة:

ــ كلا، بعد كل ما أخبرتني؟ انك لن تعللي كل شيء بالقاء اللوم على الماضي ثانية! هراء، هراء، هراء! هل تسمعينني يا أماه؟ لقد سبحتِ في هذا معظم حياتك مثل الذبابة في الدبس.

وانفرجت شفتا «في» عن ابتسامة عريضة، وهي تشعر بارتياح حقيقي:

ــ لقد نشأتُ على التفكير بأن انجاب فتاة ليس مهماً بقدر انجاب الصبيان، ولكني كنت على خطأ. إنك تدخلين الفرح إلى قلبي كما لم يستطع صبياني أن يفعلوا أبداً. فالبنت مساوية لأمها. أما الصبيان فلا. إنهم ليسوا إلا دمى عزلاء نُجلسها ثم نرميها حين نشاء.

وفتحت ميغي عينيها على سعتهما:

ــ أنت عديمة الرحمة. أخبريني إذن أين يكمن فشلنا؟

ــ في مجيئنا إلى هذه الدنيا.

○

كان الرجال يرجعون إلى بيوتهم بالآلاف، مستبدلين ملابسهم الكاكية وقبعاتهم الرخوة بالثياب المدنية. وأولت حكومة العمال التي كانت لا تزال تمسك بزمام السلطة اهتماماً كبيراً للملكيات الواسعة في السهول الغربية، وبعض أكبر المزارع القريبة. لم يكن من العدالة بشيء أن تملك عائلة واحدة كل هذه الأرض، بينما كان الرجال الذين خدموا استراليا يبحثون عن سقف يؤويهم، والبلاد بحاجة إلى إنتاج زراعي وحيواني أضخم. كان ستة ملايين شخص يعيشون على أرض تبلغ مساحتها مساحة الولايات المتحدة الأميركية، ومن هذه الملايين الستة لم يكن هناك أكثر من حفنة تمتلك امتيازات على تلك الأرض. يجب الآن توزيع الملكيات الكبيرة، ومنح بعض الهكتارات منها إلى المحاربين القدماء.

ومن ستين ألف هكتار تحولت بوغيلا إلى ثمانية وعشرين، فقد حصل اثنان من المحاربين القدماء على ستة عشر ألف هكتار كل منهما من مارتن كنغ. أما رودنا هانيش فكانت خمسين ألف هكتار، خسر منها روس ماكوين خمسة وعشرين ألفاً ذهبت لاثنين آخرين من المحاربين. وهكذا. وبالطبع فقد أعطت الحكومة تعويضاً لمربيي المواشي ولكنه كان أقل بكثير مما لو باعوها في السوق

الحرة. وكان ذلك مؤلماً. آه. كم كان ذلك مؤلماً. ولم تصغ «كانـبيرا» إلى أي جدال حول ذلك الموضوع، وأصرت على تجزيء الملكيات الضخمة مثل رودنا، وبوغيلا، والحقيقة أنه لم يكن هناك عائلة بحاجة لكل هذا، إذ أن منطقة غيللي كانت تحتوي على مزارع مزدهرة فوق أقل من عشرين ألف هكتار.

والأكثر إيلاماً من أي شيء آخر هو أن الملاكين كانوا يعلمون أن المحاربين القدماء سيتمسكون بالأرض هذه المرة. فبعد الحرب العالمية الأولى، وُزع عدد كبير من المزارع الكبرى بالطريقة نفسها، ولكن العملية دارت بطريقة سيئة؛ فالمربون الجدد كانوا بدون خبرة ولا تمرين، وتدريجياً، أعاد الملاكون القدماء شراء أرضهم السابقة بأسعار زهيدة من المحاربين اليائسين. أما في هذه المرة فقد فكانت الحكومة قد قررت تمرين الملاكين الجدد وتدريبهم على نفقتها الخاصة.

كان كل الملاكين الكبار تقريباً أعضاء في حزب المحافظين، ويكرهون أشد الكره حزب العمال الحالي، ويقارنونه بعمال المدن الصناعية، والنقابات، والمفكرين الماركسيين الفارغين. ولقد صعب عليهم جداً أن يكتشفوا أن آل كليري المعروفين بولائهم للحكومة العمالية لم يفقدوا هكتاراً واحداً من أرض دروغيدا الشاسعة.

وبما أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تمتلكها، فقد كانت بالطبع معفاة من التقسيم. ووصلت صرخات الاعتراض على هذا إلى «كانبيرا» ولكنها تجاهلتها. وكان من القسوة بمكان على الملاكين الكبار الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أكبر قوة ضاغطة في البلاد أن يكتشفوا أن من يرفع السوط في كانبيرا يمكنه أن يفعل ما يشاء. فاستراليا كانت فيديرالية قبل كل شيء، وحكوماتها شبه عاجزة. وهكذا، مثل عملاق في بلاد الأقزام، احتفظت دروغيدا بكل أراضيها البالغة مئة ألف هكتار.

○

وجاءت الأمطار وذهبت، أحياناً كافية، وأحياناً أكثر مما يجب، وأحياناً أخرى ضئيلة جداً، ولكن لم يحدث والحمد لله، جفافاً آخر مثل «الجفاف العظيم». وتحسنت تدريجياً أعداد الخرفان ونوعية صوفها بالمقارنة مع فترة ما بعد الجفاف. ولم يكن ذلك بالسهل، فتربية المواشي أصبحت شيئاً شائعاً، وكان الرجال يتحدثون عن «هادون ريغ» قرب «وارن»، ويحاولون منافسة صاحبها ماكس فالكنر، لتقديم أفضل الكبوش والنعاج في المعرض الملكي في سيدني، والذي يقام في عيد الفصح. وأخذت أسعار

الصوف بالصعود تدريجياً ثم انطلقت كالسهم. كانت أوروبا والولايات المتحدة، واليابان بحاجة لكل ندفة من الصوف الممتاز الذي تنتجه استراليا؛ وكانت بلاد أخرى تنتج أصوافاً أقل نعومة لصناعة السجاد والجوخ، ولكن لم يكن لصوف استراليا الحريري المصنوع من وبر خرفان الميرينوس الطويل مثيله لصناعة الأقمشة الصوفية الناعمة التي تنزلق بين الأصابع كالحرير. وبلغت جودة هذا النوع من الصوف قمتها في سهول الأراضي السوداء في الشمال الغربي من ويلز الجنوبية الجديدة، وفي كوينزلاند الجنوبية الغربية. وبدا أن المكافأة قد أتت بعد كل هذه السنوات الصعبة. وتعدت أرباح دروغيدا كل ما يمكن أن يتصوره العقل، ملايين من الليرات الاسترلينية كل عام. وكانت «في» تطير فرحاً وهي جالسة وراء مكتبها، وأضاف بوب مربيين آخرين إلى قائمة المعاشات. ولو لم تكن هناك الأرانب اللعينة لكانت الظروف الرعوية مثالية، ولكن الأرانب كانت تشكل وباء حقيقياً.

وأصبحت الحياة فجأة هانئة في المنزل الكبير، فشبكة الأسلاك المعدنية الدقيقة كانت تحمي منزل دروغيدا من الذباب، ومنذ وُضعت هذه الشبكة بدأ الجميع يعتادون على منظرها

ويتساءلون كيف استطاعوا العيش حتى الآن بدونها. فقد كانت لها منافع كبيرة تعوض عن قباحتها، كأن يتناولوا الطعام مثلاً على الشرفة الرطبة وتحت أغصان عريشة الوستارية، حين يكون الجو شديد الحرارة.

كانت الضفادع أيضاً تحب هذه الشبكة، وكانت هذه الحيوانات صغيرة، خضراء، موشاة بمعطف ذهبي لامع ناعم. وكانت تتسلق الشبكة من الخارج بأقدامها اللاصقة، لتنظر إليهم يتناولون طعامهم، وقد جمدت بكل وقار ورصانة. وفجأة يقفز أحدها ويلتقط فراشة أكبر منه، ثم يعاود الجلوس بلا حراك، وقد اختفى ثلث جسم الفراشة وهي تتخبط بجنون في فمه المليء. كان دين وجوستين يتسليان بقياس الوقت الذي تأخذه الضفدعة لابتلاع فراشة وهي تنظر بجد عبر الأسلاك، وتبتلع جزءاً من الفراشة كل عشر دقائق. كان ابتلاع الفراشة يستغرق وقتاً طويلاً، وأحياناً كان الجزء الأخير منها لا يزال يتخبط عندما تتلاشى آخر قطعة من الجناح في فم الضفدع.

ــ «يا للقدر العجيب!» قال دين ضاحكاً. «تصوري أن نصف جسمك قد هضم بينما لا يزال النصف الآخر حياً».

وبما أن الاثنين كانا مولعين بالقراءة ـ هواية دروغيدا ـ فقد كانت مفرداتهما غنية منذ طفولتهما. كانا ذكيين، متيقظين، ويهتمان بكل شيء. وكانت الحياة سارة بشكل خاص بالنسبة لهما. كانا يملكان مهرين أصليين يكبران معهما، وكانا يحتملان بجَلَد دروسهما بالمراسلة، ويقومان باتمام وظائفهما على طاولة المطبخ الخضراء، عند السيدة سميث. كانا أيضاً يلعبان في الكوخ تحت شجرة الفلفل، ويملكان قططاً وكلاباً، وحتى «غوانا» كان يحتمل طوقه بكل طاعة، ويجيب إذا ما نادياه باسمه. أما الحيوان الذي كانا يفضلانه فقد كان خنزيراً صغيراً وردي اللون، وذكياً مثل كلب، وقد أطلقا عليه اسم «ايغل ـ بيغل». وبعيداً عن اكتظاظ المدن، لم يمرضا إلا نادراً، ولم يصابا بالزكام أبداً ولا بالانفلونزا. وكان شلل الأطفال يرعب ميغي، وكذلك الخناق أو أي شيء آخر يمكن أن يظهر فجأة من أي مكان ويأخذهما، ولذلك فقد تلقيا كل اللقاحات المتوفرة في ذلك الوقت. كانت حياتهما مثالية مليئة بالنشاط الجسدي والمنشطات العقلية.

عندما بلغ دين العاشرة، وجوستين الثانية عشرة، أُرسلا إلى مدرسة داخلية في سيدني، فذهب دين إلى ريفرفيو، كما تقضي

التقاليد، وجوستين إلى كينكوبال. وعندما وضعتهما ميغي على الطائرة للمرة الأولى، نظرت إليهما وهما يتطلعان عبر النافذة بوجهيهما الشاحبين، ويحاولان أن يتماسكا نفسيهما بشجاعة، ويلوحان بمنديلهما؛ لم يكونا قد ابتعدا عن البيت من قبل. كانت تتمنى بحرارة أن تذهب معهما، لتطمئن عليهما بنفسها هناك، ولكن رأي الجميع كان مضاداً لها، فرضخت، وقد كانوا كلهم، بدءاً من «في» حتى جيمس وباتسي، متأكدين أن من الأفضل لهما بكثير أن يطيرا بأجنحتهما.

ـــ لا تدلليهما. قالت «في» بصرامة.

ولكن ميغي كانت تشعر بالفعل أنهما شخصان مختلفان، عندما ارتفعت الطائرة وسط غيمة من الغبار، وانزلقت في الجو البراق. كان قلبها يتفطر لفقدانها دين، ويشعر بالفرح لفقدان جوستين. لم يكن هناك أية ازدواجية في مشاعرها نحو دين، فطبيعته المرحة والمتوازنة كانت تعطي وتأخذ الحب بشكل طبيعي كالتنفس. ولكن جوستين كانت محببة، وفي الوقت نفسه مخيفة. لم يكن بامكانك أن تمتنع عن حبها، لأنها كانت تملك أشياء كثيرة تستحق الحب: قوتها، واستقامتها، واستقلاليتها، وأشياء

أخرى كثيرة. ولكن المشكلة هي أنها لم تكن تسمح بالحب بطريقة دين نفسها، ولم تعطِ ميغي أبداً هذا الاحساس الرائع بأنها تحتاج إليها. لم تكن ترتبط بأحد، ولا تحب المزاح، وكانت تملك عادة سيئة جداً، إذ كانت تضع الجميع عند حدهم، وخاصة أمها على ما يبدو. ووجدت ميغي بها كثيراً من الأشياء التي كانت تغيظها في لوك، ولكن جوستين لم تكن بخيلة، على الأقل. وشكراً للسماء على ذلك.

كانت الرحلات الجوية المنتظمة تعني أن باستطاعة الطفلين قضاء كل اجازاتهما حتى أقصرها في دروغيدا. ومع ذلك، وبعد فترة من التأقلم، أحب الولدان مدرستيهما، وكان دين دائماً يحن إلى دروغيدا بعد زيارة لها، ولكن جوستين اعتادت على سيدني كما لو أنها قد عاشت هناك طوال حياتها، وكانت تقضي عطلها في دروغيدا وهي تتشوق للعودة إلى المدينة. وكان يسوعيو ريفرفيو شديدي السرور من دين، فقد كان طالباً رائعاً، في الصف وفي الملعب. وبالعكس، فإن راهبات كينكوبال لم يكن مسرورات مطلقاً؛ فلا يمكن لفتاة تملك عيني جوستين ولسانها الحاد أن تأمل في أن يكون لها أية شعبية. وكانت تسبق دين بصف، وربما كانت أفضل منه من ناحية الدراسة، إنما داخل الصف فقط.

كان عدد الـ «سيدني مورنينغ هيرالد» الصادر في الرابع من آب ١٩٥٢ بالغ الأهمية. فنادراً ما كانت صفحتها الأولى تحمل أكثر من صورة واحدة، تطبع في النصف العلوي منها، وتتعلق بالمقال اليومي. وكانت في ذلك اليوم تحمل صورة رائعة لرالف دو بريكاسار.

«تلقى اليوم غبطة البطريرك رالف دو بريكاسار، الذي يعمل حالياً كمساعد لأمين سر الدولة إلى جانب الكرسي الأقدس في روما، رتبة كاردينال من قداسة البابا بيوس الثاني عشر».

«إن رالف راوول، كاردينال دو بريكاسار، قد تميز بخدمته للكنيسة الكاثوليكية في استراليا فترة طويلة استمرت منذ وصوله ككاهن جديد في تموز عام ١٩١٩ إلى حين رحيله للفاتيكان في آذار عام ١٩٣٨».

«ولد الكاردينال دو بريكاسار في الثالث والعشرين من أيلول عام ١٨٩٣ في جمهورية ايرلندا، وكان الابن الثاني لعائلة تعود أصولها إلى البارون رانولف دو بريكاسار، الذي أتى إلى انجلترا ضمن حاشية ويليام الفاتح. وكما جرت التقاليد، دخل الأب دو بريكاسار الكهنوت. وقد التحق بالمعهد اللاهوتي في السابعة

عشرة من عمره، وأُرسل إلى استراليا بعد سيامته، حيث أمضى الأشهر الأولى هناك في خدمة المطران مايكل كلابي في رعية وينامورا».

«وفي حزيران من عام ١٩٢٠ نُقل إلى غيللانبون، في شمال غرب ويلز الجنوبية الجديدة، ثم رُقي إلى رتبة «مونسينيور» وبقي في غيللانبون حتى كانون الأول من عام ١٩٢٨، وعندها أصبح السكرتير الخاص لغبطة البطريرك كلوني دارك، وأخيراً السكرتير الخاص للمبعوث البابوي، نيافة الكاردينال دي كونتيني فيركيزي. وخلال هذه الفترة أصبح مطراناً. وعندما نقل الكاردينال دي كونتيني فيركيزي إلى روما لبدء وظيفته المرموقة في الفاتيكان، رقي المطران دو بريكاسار إلى بطريرك، وعاد من أثينا إلى استراليا بصفة مبعوث بابوي. ولقد بقي في هذه الوظيفة الفاتيكانية الهامة حتى استدعي إلى روما عام ١٩٣٨؛ ومنذ ذلك الحين وهو يصعد سلم الارتقاء في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وهو الآن في الثامنة والخمسين من العمر، والمعروف عنه هو أنه أحد الرجال القلة الذين يؤثرون جداً بسياسة الفاتيكان».

«ولقد تحدث أمس مراسل الـ «سيدني مورنينغ هيرالد» إلى

بعض الرعايا السابقين للكاردينال دو بريكاسار في منطقة غيللانبون . أنهم يذكرونه بالحسنى وبكثير من الحب . وهذه المنطقة الغنية بالخراف تدين في غالبيتها بولائها للكنيسة الكاثوليكية . وقد قال السيد هاري غوف ، عمدة غيللانبون :

«إن الأب دو بريكاسار قد أسس «مكتبة الصليب المقدس» ويعتبر هذا في ذلك الوقت خدمة كبرى ، وقد تلقت منحاً ضخمة أولاً من السيدة ميري كارسون ، ومن ثم وبعد وفاتها ، من الكاردينال نفسه الذي لم ينسنا أبداً ، ولم ينس احتياجاتنا» .

«وقالت فيونا كليري ، سيدة دروغيدا الحالية ، وهي واحدة من أكبر وأثرى المزارع في ويلز الجنوبية : «إن الأب دو بريكاسار من أكثر الرجال الذين رأيتهم في حياتي وسامة . وأثناء خدمته في غيللي ، كان سنداً روحياً كبيراً لرعاياه ، وخاصة لنا في دروغيدا ، ونحن كما تعلمون تابعون للكنيسة الكاثوليكية . وهو لم يتردد لحظة في مساعدتنا أثناء الفيضانات والحرائق ، حتى وإن كان ذلك لمجرد دفن موتانا . كان في الحقيقة رجلاً متميزاً في كل شيء ، وكان جذاباً أكثر من أي رجل قابلته من قبل . كان من الواضح أن له مستقبلاً . ونحن بالفعل نتذكره رغم أنه قد غادرنا منذ أكثر من

عشرين سنة. نعم، أظن أن من العدل أن أقول أن هناك من يفتقده جداً في منطقة غيللي».

«وأثناء الحرب، خدم البطريرك دو بريكاسار قداسة البابا بصدق وثبات، ويقال أنه أثّر كثيراً على الفيلد مارشال البرت كيسلرنغ في قرارة بإبقاء روما مدينة مفتوحة بعد أن أصبحت إيطاليا عدوة للألمان. ولقد فقدت فلورنسا الكثير من كنوزها، وكانت قد طلبت الامتياز نفسه، هي أيضاً، وأعيد ترميم هذه الآثار مؤخراً بعد أن خسرت ألمانيا الحرب. وفي الفترة التي أعقبت الحرب مباشرة، ساعد الكاردينال دو بريكاسار آلاف المشردين الباحثين عن ملاجىء في أوطان جديدة، وساهم بقوة في برنامج الهجرة إلى استراليا».

«ورغم أصله الايرلندي، ورغم أنه على ما يبدو لا يمارس نفوذه ككاردينال في استراليا، فإننا لا نزال نشعر، وعلى نطاق واسع، بأن استراليا يمكنها أن تنادي بهذا الرجل الفريد كولد من أولادها».

○

أعادت ميغي الصحيفة لأمها وابتسمت لها بحزن قائلة :

ــ لقد قلتِ لمراسل الهيرالد «إنه يستحق التهنئة» ولكنهم لم ينشروا ذلك رغم أنهم قد نشروا كلمتك بحذافيرها كما أرى . إن لسانك حاد حقاً ! إني أعلم الآن على الأقل من أين أتت جوستين بلسانها الحاد . وإني لأتساءل إذا كان هنـاك العديـد من الأشخاص الأذكياء الذين يستطيعون قراءة ما بين السطور .

ــ إنه سيفعل على كل حال ، لو رأى الصحيفة .

ــ هل يا ترى لا يزال يتذكرنا ؟ قالت ميغي متنهدة .

ــ بدون شك . فهو لا يزال يجد الوقت الكافي لادارة دروغيدا بنفسه . وبالطبع فهو يتذكرنا يا ميغي . وكيف يمكنه أن ينسى ؟

ــ طبعاً ، لقد نسيت دروغيدا ، فنحن نمثل أكبر موارد الرزق للكنيسة ، أليس كذلك ؟ ولا بد أنه راض . وبما أن أصوافنا قد بيعت في المزادات بليرتين للكيلو فلا شك أن عائدات مناجم الذهب تبدو شاحبة بقرب مردود دروغيدا . إنها حقاً الجزة الذهبية . أكثر من أربعة ملايين ليرة أتت فقط من حلاقة نعاجنا الثاغية .

ــ لا تكوني قاسية يا ميغي ، فذلك لا يليق بك .

كانت معاملتها لميغي هذه الأيام قد صبغت بالاحترام والحنان رغم شيء من التعالي :

ـــ لقد عملنا بجد ، أليس كذلك ؟ ولا تنسي أننا نحصل على نقودنا كل سنة ، سيئة أم جيدة . ألم يدفع لبوب مئة ألف ليرة مكافأة ، وخمسين ألفاً لكل منا ؟ إنه لو طردنا من دروغيدا غداً ، فسيكون بامكاننا ابتياع بوغيلا حتى بسعرها الباهظ الحالي . وكم أعطى أولادك ؟ الفاً فوق ألف . عليك أن تكوني عادلة معه .

ـــ ولكن أولادي لا يعرفون شيئاً عن سخائه ولن يعرفوا . سيكبر دين وجوستين وهما يظنان أن عليهما أن يعتمدا على نفسيهما في الحياة ، دون مساعدة العزيز رالف راوول ، كاردينال دو بريكاسار . من المسلي أن اسمه الثاني هو راوول . نورماندي فعلاً ، أليس كذلك ؟

نهضت « في » ، وتوجهت صوب النار ورمت الصفحة الأولى من الهيرالد في اللهب . وأخذ رالف راوول ، كاردينال دو بريكاسار يرتعش . وغمزهما ثم تقلص في النار .

ـــ ماذا ستفعلين لو عاد يا ميغي ؟

ـــ ليس هناك أي خطر من ذلك .

ـــ ولكن ذلك ممكن . قالت « في » بشكل مبهم .

وأتى . في كانون الأول . بهدوء تام ودون أن يعلم أحداً ، وقد قاد بنفسه سيارته المكشوفة كل المسافة من سيدني . ولم تكتب الصحافة كلمة واحدة عن قدومه إلى استراليا ، وهكذا فلم يكن أحد في دروغيدا يتوقع مجيئه على الاطلاق . وعندما تقدمت السيارة على الطريق المفروشة بالحصى على جانب البيت ، لم ير هناك أحد ، والظاهر أن أحداً لم يسمع صوت السيارة ، لأن أحداً لم يخرج إلى الشرفة .

كان قدأحس بالمسافة التي قطعها من غيللي في كل خلية من خلايا جسمه ، واستنشق روائح الآجام ، والخراف ، والعشب الجاف الملتمع دوماً تحت الشمس . كان هناك الكنغر والأمو والغالا والغوانا ، وملايين من الحشرات تزم وتهتز ، وطوابير من النمل تجتاز الطريق ، وخراف سمينة في كل مكـان . وكان يحب هذا المنظر ، لأنه من بعض النواحي الغريبة ، كان يتماشى وما يحب في كل شيء ؛ ولم يكن يبدو أن السنوات التي مرت قد غيرته .

لم يكن هناك من جديد إلا الشبكة المعدنية على النوافذ، ولكنه لاحظ أن «في» لم تسمح بتحصين الشرفة المواجهة لطريق غيللي كباقي البيت، بل النوافذ التي كانت تطل عليها فقط. كانت على حق طبعاً، فالكثير من الشباك المعدنية كان سيشوه تماماً منظر الواجهة الجورجية الرائع. كم تعيش أشجار الصمغ يا ترى؟ لا بد أن هذه قد نقلت من داخل البلاد منذ ثمانين عاماً. وكانت البوغنفيلية تتدلى كتلاً حمراء ونحاسية.

كان الصيف قد بدأ ولم يبق إلا أسبوعان لحلول عيد الميلاد، وكانت ورود دروغيدا في أوج تفتحها. كانت الورود في كل مكان، زهرية وبيضاء وصفراء، وحمراء كدم القلب، وقرمزية كرداء الكاردينال؛ ومن بين أغصان الوستارية الخضراء في ذلك الوقت، كانت الورود المتسلقة تتدلى متناعسة، زهرية وبيضاء، وتتعلق بدلال في خشب نوافذ الطابق العلوي، وتمد غصونها نحو السماء. كانت أماكن الخزانات محجوبة عن الأنظار حالياً، وكذلك الخزانات نفسها. وكان هناك لون واحد يسود في كل مكان بين الورود، لون رمادي فاتح يميل إلى الزهري. رماد الورود؟ نعم كان هذا اسم اللون. لا بد أن ميغي هي التي زرعتهم. لا بد أنها هي.

وسمع ضحكة ميغي، ووقف بلا حراك وقد ملأه الرعب، ثم دفع بقدميه إلى الجهة التي أتى منها الصوت وقد تحول إلى ضحكات صغيرة فضية. تماماً كما اعتادت أن تضحك عندما كانت صغيرة. لقد وصل الصوت من هنا! خلف دغلة من الورود الرمادية الزهرية، قرب شجرة الفلفل. ونحّى عناقيد الأزهار جانباً بيده، وقد شعر بالدوار من رائحتها ومن الضحكة.

ولكن ميغي لم تكن هناك، وإنما كان هناك صبي يجلس القرفصاء على العشب، وهو يداعب خنزيراً صغيراً وردي اللون كان يركض نحوه بغباء ثم يقفز وينزلق عائداً. ودون أن يشعر بوجود غريب، رمى الصبي برأسه البراق إلى الخلف، وضحك. ضحكة ميغي، من تلك الحنجرة الغريبة. ودون تعمد، أعاد الأب رالف عناقيد الزهور إلى مكانها وتسلل خلال دغلة الورد، غير عابىء بالأشواك. ونظر الصبي بدهشة، وكان في حوالي الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، قريباً من المراهقة؛ وصاح الخنزير ولوى ذنبه بشدة، ثم اختفى عن الأنظار.

لم يكن يرتدي إلا بنطالاً قصيراً قديماً من الخاكي، ويسير حافياً. وكانت بشرته بنيّة مذهبة، وجلده ناعماً كالحرير؛ أما

جسمه النحيل الصبياني فقد كان يوحي بقوة كبيرة فيما بعد، تدل عليها الأكتاف العريضة المستقيمة، وبطّات السيقان والعضلات القوية، والبطن الأملس والردفان الضيقان. كان شعره طويلاً نوعاً ما، ومجعداً، بلون عشب دروغيدا تماماً، وعيناه شديدتي الزرقة تحت رموش سوداء كثيفة. كان يبدو مثل ملاك صغير هرب من السماء.

ــ مرحباً. قال الصبي مبتسماً.

ــ «مرحباً». قال الكاردينال رالف وقد وجد من الصعوبة بمكان مقاومة سحر هذه الابتسامة. «من أنت؟»

ــ «أنا دين أونيل»، أجاب الصبي. «ومن أنت؟»

ــ إنني أدعى رالف دو بريكاسار.

دين اونيل. إنه إذن ابن ميغي. إنها لم تترك لوك اونيل بعد كل حساب، لقد عادت إليه، وحملت منه هذا الصبي الرائع الذي كان من الممكن أن يكون ابنه هو لو أنه لم يتزوج من الكنيسة أولاً. كم كان عمره عندما تزوج من الكنيسة؟ لم يكن أكبر بكثير من هذا الولد، ولا أكثر نضجاً. لو أنه انتظر لكان هذا الصبي ابنه. أي هراء هذا، يا كاردينال دو بريكاسار! لو لم

تتزوج من الكنيسة لكنت بقيت في ايرلندا تربي الأحصنة، ولما كنت علمت بمصيرك على الاطلاق، ولا بدروغيدا، ولا بميغي كليري.

ــ هل أستطيع مساعدتك؟ سأل الصبي بتهذيب منتصباً على قدميه برشاقة عرفها الكاردينال رالف دو بريكاسار عند ميغي.

ــ هل والدك هنا يا دين؟

ــ «والدي»؟ وانعقد الحاجبان السوداوان الدقيقان. «كلا، إنه لم يأت إلى هنا أبداً».

ــ آه، لقد فهمت. هل والدتك هنا، إذن؟

ــ إنها في غيللي، ولكنها ستعود قريباً. إن جدتي في البيت، هل تريد أن تراها؟ باستطاعتي أن آخذك إليها». وحدقت إليه العينان الزرقاوان واتسعتا ثم ضاقتا:

ــ رالف دو بريكاسار! لقد سمعت عنك. آه، الكاردينال دو بريكاسار، إني آسف يا نيافة الكاردينال، لم أكن أقصد أن أكون قليل التهذيب.

ورغم أنه كان قد خلع ملابسه الكهنوتية واستعاض عنها بجزمة وبنطال وقميص أبيض، فقد كان لا يزال يلبس الخاتم

العقيقي في اصبعه، فهو لن يخلعه طالما بقي حياً. وركع دين اونيل، وتناول يد الكاردينال النحيلة في يديه النحيلتين، وقبّل الخاتم باحترام.

ـــ انهض يا دين، إنني لم آت إلى هنا بصفة الكاردينال دو بريكاسار، ولكنني أتيت كصديق لوالدتك وجدتك.

ـــ أنا آسف يا نيافة الكاردينال. كان علي أن أعرفك منذ اللحظة التي سمعت فيها اسمك، أننا ننطق به غالباً هنا. ولكنك تلفظه بطريقة مختلفة قليلاً؛ كما أن اسمك الأول قد خدعني. إني أعلم أن أمي ستكون شديدة السرور برؤيتك.

ـــ دين، دين، أين أنت؟

ناداه صوت نافذ الصبر، عميق جداً، فيه بحة أخّاذة. وانفرجت أغصان شجرة الفلفل المتدلية، وبرزت من بينها فتاة في حوالي الخامسة عشرة، وانتصبت. وعلم حالاً من تكون، من هاتين العينين المذهلتين. ابنة ميغي. وجه دقيق، صغير التقاطيع، يغطيه النمش، ولا يشبه أبداً وجه ميغي.

ـــ آه، مرحبا، إني آسفة. لم أكن أعلم أن لدينا زواراً. أنا جوستين اونيل.

ـــ « جوسي ، هذا هو الكاردينـال دو بريكـاسار » ، قال ديـن بهمس . « قبّلي خاتمه ، بسرعة » .

وبرقت العينان الشاحبتان بالاحتقار :

ـــ « إنك بالحقيقة كالبرغوث فيما يتعلق بالدين ، يا دين » . قالت دون أن تكلف نفسها عناء اخفاض صوتها . « إن من الخطأ أن تقبّل الخاتم ، ولن أفعل ، وفضلاً عن ذلك ، فمن قال لك أن هذا هو الكاردينال دو بريكاسار ؟ إنه يبدو كمربي مواش من الجيل الماضي ، مثل السيد غوردون » .

ـــ « إنه هو ، إنه هو » ، قال دين ملحاً . « أرجوك يا جوسي ، كوني لطيفة ، كوني لطيفة من أجلي » .

ـــ حسناً ، سأكون لطيفة ، وإنما من أجلك فقط . لكني لن أقبل الخاتم . إن هذا مقرف . كيف أعلم من قبّله قبلي ؟ ربما كان ذلك الشخص مصاباً بالزكام .

ـــ ليس عليك أن تقبلي خاتمي يا جوستين . إني هنا في إجازة ، ولست كاردينالاً حالياً .

ـــ « هذا جيد . لأني أقول لك بصراحة إنني ملحدة » . قالت ابنة ميغي كليري بهدوء . « فبعد أربع سنوات في كينكوبال تأكدت من أن الدين ليس إلا مجموعة من الترهات » .

ــ « هذا من حقك » قال الكاردينال رالف وهو يحاول بيأس أن يبدو وقوراً وجاداً مثلها . « هل أستطيع أن أرى جدتك ؟ » .

ــ بالطبع . هل أنت بحاجة إلينا ؟

ــ كلا ، شكراً . إني أعرف الطريق .

ــ « حسناً » ، واستدارت نحو أخيها الذي كان لا يزال يقف مشدوهاً أمام ضيفه :

« تعال يا دين وساعدني . هيا ، تعال » .

وبالرغم من أنها كانت تشد على ذراعه بقسوة فقد بقي دين واقفاً ينظر إلى الكاردينال رالف وهو يختفي خلف الورد بقامته الطويلة المنتصبة .

ــ إنك حقاً سخيف يا دين . ما الشيء الخاص الذي تجده به ؟

ــ إنه كاردينال ، تصوري ذلك ! كاردينال حقيقي حي في دروغيدا !

ــ « إن الكرادلة امراء الكنيسة » قالت جوستين . « أظن أنك على حق ، هذا شيء غير اعتيادي . ولكني لا أحبه » .

أين ستكون « في » إذا لم تكن وراء مكتبها ؟ واجتاز الباب إلى غرفة الجلوس ، وكان عليه حالياً أن يفتح الباب الشبكي .

ولا بد أنها سمعته ولكنها تابعت عملها وقد أحنت ظهرها، وقد تحول لون شعرها الذهبي الجميل إلى الفضي. وتذكر بصعوبة أنها قد قاربت الثانية والسبعين من العمر بدون شك.

ـــ مرحبا يا «في».

وعندما رفعت رأسها لاحظ تغييراً في وجهها، ولكنه لم يدرك طبيعته بالضبط، كانت اللامبالاة لا تزال هناك، ولكن كان إلى جانبها أشياء أخرى عديدة. وكأنها قد صُهرت وتصلبت في الوقت نفسه، وأصبحت أكثر إنسانية، إنسانية من نوع ميري كارسون. يا إلهي، ما الذي يجري لسيدات دروغيدا! هل سيحدث هذا لميغي أيضاً عندما يأتي دورها؟

ـــ «مرحباً يا رالف»، قالت وكأنه يدخل من ذلك الباب كل يوم. «إني مسرورة جداً برؤيتك».

ـــ وأنا أيضاً مسرور برؤيتك.

ـــ لم أكن أعلم أنك في استراليا.

ـــ لا أحد يعلم. إني في إجازة لعدة أسابيع.

ـــ أرجو إذن أن تمكث معنا.

ـــ وأين إذن؟

وجالت عيناه على الحيطان الرائعة، وتوقفت على صورة ميري كارسون.

ــ «أتعلمين يا «في» أن ذوقك لا عيب فيه ولا خلل. فهذه الغرفة تعادل أحسن غرفة في الفاتيكان. وهذه الأشكال البيضاوية المزينة بالورد هي نوع من العبقرية.

ــ آه، أشكرك! إننا نعمل ما في وسعنا. ولكنني شخصياً أفضل غرفة الطعام، لقد غيرتها مرة أخرى منذ آخر زيارة لك. إنها الآن وردية وبيضاء وخضراء. ذلك يبدو رائعاً، ولكن انتظر لتراها. ولماذا أبذل كل تلك الجهود؟ لست أدري. إنه منزلك وليس منزلنا، أليس كذلك؟

ــ ليس طالما بقي شخص واحد حي من آل كليري، يا «في».

قال بهدوء:

ــ ذلك يدعو للارتياح. حسناً، يبدو أنك ترقيت جداً منذ أيام غيللي، أليس كذلك؟ هل قرأت مقال الـ «هيرالـد» عن ترفيعك؟

وارتعشت أساريره:

ــ لقد رأيته. إن لسانك قد أصبح حاداً يا «في».

ــ « نعم ، والأكثر من هذا أني أستمتع بذلك . لقد صمتت كل تلك السنوات ولم انطق بكلمة واحدة . لم أكن أعلم مدى خسارتي » . وابتسمت . «إن ميغي في غيللي ، ولكنها ستعود قريباً » .

ودخل دين وجوستين :

ــ جدتي ، أيمكننا أن نقوم بنزهة على الحصان حتى « رأس البئر » ؟

ــ أنتما تعلمان الأوامر ، لا نزهة على الحصان حتى تسمح أمكما بنفسها بذلك . إني آسفة ، ولكن هذه تعليمات والدتكما . أين تربيتكما ؟ تعالا لأقدمكما إلى زائرنا .

ــ لقد قابلتهما .

ــ آه .

ــ « كنت أظن أنك لا بد أن تكون بعيداً ، في المدرسة الداخلية» . قال متوجهاً بكلامه لدين ، ومبتسماً :

ــ ليس في كانون الأول ، نيافتك . فنحن في عطلة لمدة شهرين ، عطلة الصيف .

لقد مرت سنون طويلة ، ولقد نسي أن التلامذة في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية يأخذون عطلتهم في كانون الأول وكانون الثاني .

ــ هل ستبقى نيافتك هنا طويلاً؟ سأل دين وهو لا يزال مسحوراً.

ــ «سيبقى نيافته معنا يا دين ما استطاع»، قالت جدته. «لكنني أعتقد أنه سينزعج إذا ناديناه طول الوقت بـ «نيافتك». ماذا ستناديه، خالي رالف؟».

ــ «خالي!» صاحت جوستين. «أنت تعلمين أن كلمة «خالي» هي ضد قوانين العائلة يا جدتي، فأخوالي هم بوب وجاك وهوغي وجيمس وباتسي. وهذا يعني أننا سنناديه رالف».

ــ لا تكوني قليلة الأدب يا جوستين. أين تهذيبك؟ قالت «في».

ــ كلا يا «في»، هذا حسن. إني أفضل أن يناديني الجميع بـ «رالف»، حقاً». قال الكاردينال بسرعة. لماذا تكرهه هكذا، هذه الفتاة الغريبة؟.

ــ «لن أستطيع ذلك» شهق دين. «لن أستطيع أن أناديك «رالف» فقط».

واجتاز الكاردينال الغرفة، وأمسك الكتفين العاريتين بيديه

وابتسم ، وعيناه الزرقاوان مليئتان بالحنان ، تشعان في عتمة الغرفة .

ـــ إنك تستطيع ذلك بالطبع يا دين . هذه ليست خطيئة .

وقالت جوستين آمرة :

ـــ دعنا نذهب إلى الكوخ .

واستدار الكاردينال رالف وابنه نحو « في » ونظرا إليها سوية .

ـــ « لتساعدنا السماء » قالت « في » . « اذهب يا دين ، اذهب والعب خارجاً ، أرجوك » .

وصفقت بيديها قائلة :

ـــ هيا ، اجرِ .

وخرج الصبي جرياً ، واتجهت « في » نحو مكتبها ، وأشفق عليها الكاردينال فقال لها أنه سيذهب إلى المطابخ . لم يتغير المكان أبداً تقريباً ! فما زال يضاء بالمصباح البترولي ، كما هو واضح . وما زال يفوح برائحة النظافة والورود المكتظة في المزهريات . وبقي طويلاً يتحدث إلى السيدة سميث والخادمتين . كن قد شخن كثيراً خلال السنوات التي مرت منذ غادر دروغيدا ، ولكن الشيخوخة بدت أكثر ملاءمة لهن مما هي لـ « في » . سعيدات . هذا ما كن

عليه . سعيدات حقاً ، وبتمام السعادة . مسكينة « في » ، فهي لم تكن سعيدة . وكان ذلك يجعله أكثر شوقاً لرؤية ميغي ، ليعرف إن كانت سعيدة .

ولم تكن ميغي قد عادت بعد عندما ترك المطابخ . ولكي يمضي الوقت أخذ يسير عبر الأرض نحو الجدول . كم كانت المقبرة هادئة . كان هناك ست لوحات برونزية على جدار ضريح العائلة ، تماماً كما كانت آخر مرة . سوف يطلب أن يدفن هو أيضاً هنا ، يجب أن يتذكر أن يعلمهم بذلك عندما يعود إلى روما . وقرب الضريح لاحظ وجود قبرين جديدين ، قبر العجوز توم البستاني ، وزوجة أحد مربيي المواشي الذي كان يعمل في دروغيدا منذ عام ١٩٤٦ . كان هذا مثل السجل . وكانت السيدة سميث تظن أن الرجل لا يزال موجوداً لأن زوجته كانت ترقد هنا . وكانت مظلة الطاهي الصيني التقليدية قد فقدت ألوانها بسبب السنوات الطويلة التي قضتها تحت ضوء الشمس الوحشي ، وتحولت من لونها الأرجواني الأصلي إلى لون زهري شاحب ، وكأنه رماد الورود . ميغي ، ميغي . لقد ذهبت إليه من بعدي ، وحملت منه ولداً .

كان الجو شديد الحرارة ، وهبت ريح خفيفة حركت

أغصان الصفصاف الباكي قرب الجدول، وجعلت الأجراس على المظلة الصينية تغني أغنيتها الحزينة الناعمة: هي سنغ، هي سنغ، هي سنغ. «هنا يرقد شارلي السكير، وقد كان شاباً طيباً». هذه العبارة أيضاً كانت قد بهتت، ولم يعد بالامكان قراءتها تقريباً. كان كل شيء طبيعياً، فالالحاد تغوص في الأرض الأم، فتفقد حمولتها البشرية، ويغسلها الزمن، حتى يختفي كل شيء، والهواء وحده يتذكر، ويتنهد. إنه لم يكن يرغب في أن يدفن في مدافن الفاتيكان، بصحبة رجال مثله، وإنما هنا، بصحبة أناس عاشوا فعلاً.

وعندما استدار قابلت عيناه نظرات الملاك الرخامي الزجاجية، فرفع يده محيياً، ونظر فوق العشب نحو المنزل الكبير. كانت قادمة، ميغي. نحيلة، ذهبية، في بنطال وقميص رجالي أبيض، مثل قميصه بالضبط، وقد وضعت قبعة رجالية على مؤخرة رأسها، وجزمة بنية في قدميها. مثل صبي، مثل ولدها الذي كان يمكن أن يكون ابنه. لقد كان هو رجلاً، ولكنه حين سيرقد هنا رقدته الأخيرة، فلن يبقى منه أي شيء يذكر بذلك الرجل. واقتربت وقفزت فوق السياج الأبيض، واقتربت أيضاً حتى أصبح

بامكانه رؤية عينيها، هاتين العينين الرماديتين المليئتين بالنور واللتين لم تفقدا شيئاً من جمالهما أو من سلطانهما على قلبه. وفجأة أصبحت ذراعاها حول رقبته، وقدره في متناول يديها ثانية، وكأنه لم يبتعد عنها أبداً؛ وهذا الفم الحي تحت شفتيه لم يكن حلماً، وكم اشتهاه! كم اشتهاه! نوع آخر من الأسرار المقدسة، أسود مثل الأرض، ولا شيء يربطه بالسماء.

ــ ميغي، ميغي.

قال وقد دفن رأسه في شعرها، ولف ذراعيه حولها، وسقطت قبعتها على العشب.

ــ لا يبدو أن هناك أية مشكلة، أليس كذلك؟ لم يتغير شيء أبداً. قالت وعيناها مغمضتان.

ــ كلا لم يتغير شيء. قال وهو يصدق ما يقوله.

ــ هذه دروغيدا يا رالف، ولقد حذرتك، إنك ملكي في دروغيدا، ولست ملك الله.

ــ إني أعلم ذلك وأتقبله. ولكنني أتيت.

وجذبها معه إلى العشب:

ــ لماذا يا ميغي؟

ــــ لماذا ماذا؟

كانت يدها تمسد شعره، وقد أصبح الآن أشد بياضاً من شعر «في» وما زال كثيفاً، جميلاً.

ــــ لماذا عدت إلى لوك وحملت ولده؟ سألها بغيرة.

ونظرت روحها من خلال النافذتين الرماديتين المضيئتين فنشرتا قناعاً على أفكارها تخبئها عنه:

ــــ لقد أجبرني على ذلك. قالت برقة: كان ذلك مرة واحدة. ولكنني حصلت على دين. ولهذا فأنا لست نادمة. إن دين يستأهل كل ما قاسيت للحصول عليه.

ــــ إني آسف، لم يكن من حقي أن أسأل. لقد تخليت عنك للوك، أليس كذلك؟

ــــ هذا حقيقي ولقد فعلته.

ــــ إنه ولد رائع. هل يشبه لوك؟

وابتسمت بغموض، واقتلعت قبضة من العشب، ثم وضعت يدها داخل قميصه، على صدره.

ــــ ليس تماماً. لا أحد من أولادي يشبه لوك جداً، ولا يشبهني.

ــــ إني أحبهما لأنهما ولداك.

ــ إنك لا تزال عاطفياً. إن العمر يناسبك يا رالف. كنت أعلم ذلك، وكنت أتمنى أن أستطيع رؤيتك ثلاثين سنة بعد معرفتي بك! تبدو وكأنها ثلاثين يوماً.

ــ ثلاثون عاماً؟ كل هذا؟

ــ «إنني في الحادية والأربعين يا عزيزي، لا تنس ذلك».

وانتصبت على قدميها.

«لقد أرسلوني لكي أعود بك إلى المنزل. إن السيدة سميث قد هيأت لك الشاي، وهو فاخر؛ وفيما بعد، حين يبرد الجو قليلاً، سيكون هناك خنزير مشوي ترافقه كومة من الخبز المقلي.

وبدأ يسير معها ببطء:

ــ إن ابنك يضحك مثلك بالضبط يا ميغي. كانت ضحكته هي أول صوت بشري سمعته في دروغيدا عند وصولي. لقد ظننته أنت، وذهبت لأبحث عنك فاكتشفته بديلاً.

ــ لقد كان إذن أول شخص تراه في دروغيدا؟

ــ نعم، أظن ذلك.

ــ وما رأيك به يا رالف؟ سألت بلهفة.

ــ لقد أحببته، وكيف لا وهو ابنك؟ ولكنني انجذبت إليه بقوة،

أكثر بكثير من ابنتك . هي أيضاً لم تحبني .

ـــ صحيح أن جوستين ابنتي ، ولكنها لا تطاق (...) هل ترى ؟ لقد تعلمت الشتائم في شيخوختي ، والفضل يعود لجوستين . ولك أنت أيضاً ، نوعاً ما ، وللوك ، بعض الشيء ، وللحرب قليلاً . ومجموعكم معاً ضخم .

ـــ لقد تغيرت كثيراً يا ميغي .

ـــ « صحيح ؟ » وانحنى الفم الناعم يشع بابتسامة . « لا أظن ذلك ، حقاً . إنه الشمال الغربي فقط هو الذي أبلاني ، ونزع عني الغلافات مثل وشاحات سالومة السبعة ، أو مثل بصلة ، كما كانت جوستين ستقول . ليس هناك أية شاعرية عند هذه الفتاة . إنني لا أزال ميغي القديمة نفسها يا رالف ، وإنما أكثر عرياً » .

ـــ ربما كان ذلك حقيقياً .

ـــ آه ، ولكنك أنت قد تغيرت يا رالف .

ـــ بأي شكل يا ميغي ؟

ـــ لكأن عرشك يتأرجح مع كل هبة نسيم ، وكأن ما تراه من فوق ، من عرشك ، لم يسبب لك إلا خيبة الأمل .

ـــ « هذا صحيح » . وضحك بصمت . « تصوري أنني قد تجرأت

ذات يوم وقلت أنك لا تملكين أي شيء غير عادي! إني أسحب كلامي . أنت المرأة الوحيدة يا ميغي ، الوحيدة ! » .

ـــ ما الذي جرى ؟.

ـــ « لست أدري . هل اكتشفتُ أن آلهة الكنيسة نفسها كانت لها أقدام ترابية؟ هل بعت نفسي بوعاء حساء؟ وهل أتعلق بالعدم؟ » وانعقد حاجباه ، كما لو كان يتألم . « هذا ما في الأمر ، وباختصار ، ربما لم أكن إلا حزمة من الأفكار المبتذلة . إن عالم الفاتيكان هو عالم عتيق ، فاسد ، متحجر » .

ـــ لقد كنت أكثر واقعية منه ولكنك لم تستطع أن ترى ذلك .

ـــ لم يكن هناك أي شيء أستطيع فعله ، حقاً ! إني أعلم أين كان بامكاني الذهاب ، ولكن ذلك لم يكن باستطاعتي . كنت سأصبح انساناً أفضل معك ، أقل عظمة ربما ، ولكني لم أكن أستطيع يا ميغي . آه ، كم أتمنى أن أجعلك تفهمين ذلك !.

وزحفت يدها على ذراعه العاري ، بحنان :

ـــ يا رالف العزيز ، إنني أفهم . إني أعلم ، إني أعلم ... كل منا يملك في داخله شيئاً لا يمكنه انكاره ، حتى لو دفعنا ذلك إلى الصراخ متمنين الموت . نحن ما نحن ، هذا كل شيء . كما في

تلك الأسطورة «السلتية» التي تحكي قصة الطائر الذي يغرز الشوكة في صدره وهو يغني قلبه حتى يموت. لأنه مجبر على ذلك. لأن ذلك قدره. إننا نستطيع أن نعلم بخطأ ما نفعل، حتى قبل أن نفعله، ولكن هذه المعرفة تعجز عن التأثير على النتيجة أو تغييرها، أليس كذلك؟ وكل منا يغني أغنيته الصغيرة وهو متأكد أنها أروع أغنية يسمعها العالم. ألا تفهم؟ لقد خلقنا أشواكنا بأنفسنا دون أن نتوقف لنقدر الثمن. وكل ما نستطيع القيام به هو أن نتألم، وأن نقول لأنفسنا أن ما فعلناه كان يستحق كل هذا الألم».

ـ «هذا ما لا أفهمه. الألم» ونظر إلى يدها وقد وضعتها بحنان على ذراعه، فأثارت فيه الما لا يحتمل. «لماذا الألم يا ميغي؟»

ـ اسأل الرب يا رالف، إنه المرجع الأعلى في مجال الألم، أليس كذلك؟ لقد خلقنا كما نحن، لقد خلق الكون بأسره، فهو إذن قد خلق الألم أيضاً».

○

جاء بوب وجاك وهوغي وباتسي إلى المنزل لتناول العشاء، فقد كان ذلك مساء السبت، وغداً سيأتي الأب واتي ليقيم

القداس، ولكن بوب اتصل به هاتفياً وأبلغه أنهم سيكونون جميعاً غياباً. كذبة بيضاء للتكتم على وجود الكاردينال رالف. وكان الشبان الخمسة يشبهون بادي أكثر من أي وقت مضى، ولقد تقدموا في السن وأصبحوا يتكلمون بطريقة أكثر بطئاً من قبل، صامدين وصابرين كالأرض نفسها.

وكم كانوا يحبون دين! كان يبدو أن عيونهم لا تكف عن النظر إليه، وتلاحقه دائماً حتى عندما يذهب إلى الفراش. ولم يكن من الصعب رؤية أنهم ينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذي يكبر فيه كفاية لينضم إليهم في إدارة دروغيدا.

كما اكتشف الكاردينال رالف سبب الروح العدائية عند جوستين. كان دين قد شغف به، وأصبح يتعلق بكل كلمة يقولها، ويلازمه؛ وكانت جوستين تغار، بكل بساطة. وبعد أن صعد الولدان للنوم، نظر الكاردينال إلى الآخرين: الأخوة، وميغي، و «في».

ـــ «في»، اتركي مكتبك لحظة، وتعالي اجلسي معنا. أريد أن أتكلم إليكم جميعاً.

كانت لا تزال محافظة على انتصاب قامتها، وعلى جمالها.

كان صدرها فقط قد ترهل قليلاً، وسمنت قامتها بعض الشيء بسبب الشيخوخة أكثر مما هو بسبب ازدياد وزنها.

وجلست بصمت في أحد المقاعد ذات اللون القشدي بمواجهة الكاردينال، وميغي إلى جانبها، والأخوة على معقد حجري قريب.

وقال الكاردينال:

ـ إنه بخصوص فرانك.

وتعلق الاسم في وسطهم، يرجع صدى بعيداً.

ـ ماذا بخصوص فرانك؟ سألت «في» بهدوء.

ووضعت ميغي صنارتي الصوف جانباً، ونظرت إلى أمها، ثم إلى الكاردينال «رالف».

ـ «أخبرنا يا رالف». قالت بتسارع، وهي غير قادرة على تحمل هدوء أمها لحظة أخرى:

ـ «لقد خدم فرانك في السجن ثلاثين عاماً تقريباً، هل تصدقون ذلك؟» سأل الكاردينال.. «إني أعلم أن أصدقائي كانوا يرسلون لكم أنباءه دائماً، كما رتبت ذلك، ولكني كنت قد

طلبت منهم ألّا يحزنوكم بلا سبب. وبصراحة، لم أكن أفهم ما الذي ستجنونه أنتم وفرانك لو علمتم بتفاصيل وحدته ويأسه، لأنه لم يكن بقدرتنا أن نغير شيئاً من الوضع. وأعتقد أنه كان بامكان فرانك الخروج من السجن منذ سنوات لو لم يكن قد جعل نفسه يشتهر بالعنف وعدم الاستقرار خلال السنوات الأولى التي قضاها في معتقل غولبرن. وقد رفضوا الافراج عن فرانك حتى خلال الحرب، عندما حُرر بعض المساجين ليدخلوا الخدمة العسكرية».

ورفعت «في» عينيها اللتين كانتا مثبتتين على يديها:
ـــ هذا هو طبعه. قالت بدون تأثر.

وكان يبدو أن الكاردينال يجد صعوبة في اختيار كلماته، وبينما كان يفتش عنها، كانت العائلة تنظر إليه بمزيج من الخوف والأمل مع أن رفاهية فرانك لم تكن هي التي تقلقهم.
ـــ «لا بد أنكم جد مدهوشون من عودتي إلى استراليا بعد كل تلك السنين»، قال الكاردينال دون أن ينظر إلى ميغي. «إني لم أفكر بكم دائماً، وأنا أعلم ذلك. فمنذ اليوم الذي قابلتكم به، فكرت أولاً بنفسي، ووضعت نفسي قبل كل شيء. ثم

كافأ الأب الأقدس جهودي نحو الكنيسة بمعطف الكاردينال ، فسألت نفسي إذا كان بامكاني أن أقدم لعائلة كليري خدمة ما ، أستطيع بها أن أعبر لهم عن مدى اهتمامي العميق بهم » ، واستل نفساً عميقاً ، وركز بصره على « في » ، وليس على ميغي . « فعدت إلى استراليا لأرى ما أستطيع فعله لأجل فرانك . هل تذكرين يا « في » ذلك اليوم الذي حدثتك به بعد موت بادي وستو ؟ عشرون سنة مضت ولم أستطع أن أنس تلك النظرة في عينيك وقد مات النشاط والحيوية فيك » .

ــ « نعم » قال بوب فجأة : « نعم ، إنه كذلك » .

ــ سوف يُخلى سبيل فرانك تحت كفالة ، هذا هو الشيء الوحيد الذي استطعت القيام به لأجعلكم تعلمون كم أنا مهتم بكم .

ولو كان يتوقع بريقاً ساطعاً مفاجئاً من أعماق ظلمة « في » لأصيب بخيبة أمل كبيرة ، فلم يكن هناك إلا وميض خافت ، وربما لم تكن السن المتقدمة لتسمح لهذه الشرارة بالتوهج . ولكنه رأى كل قوته في عيني أولاد « في » ، وشعر بأنه حقق هدفاً ، شعوراً لم يشعر به منذ تلك الليلة التي تحدث بها إلى الجندي الألماني الصبي ذي الاسم الطنان .

ــ شكراً. قالت «في»:

ــ «هل سترحبون بعودته إلى دروغيدا؟» سأل موجهاً كلامه إلى الرجال.

ــ هذا منزله، وهنا يجب أن يكون. أجاب بوب باختصار.

وهز الجميع برؤوسهم موافقين ما عدا «في» التي بدت ضائعة في رؤيا داخلية.

ــ «إنه ليس فرانك نفسه الذي عرفتموه من قبل» تابع الكاردينال رالف بلطف. «لقد زرته في المعتقل في غولبرن لأعلمه بالنبأ قبل أن آتي إلى هنا، وكان علي أن أخبره أن جميع من في دروغيدا كانوا يعلمون بما جرى له. ولو رأيتم الهدوء الذي تحمل به ذلك لفهمتم مدى تغيره. لقد كان ببساطة ممتناً، وكان يتطلع بشوق كبير لرؤية عائلته ثانية، خاصة أنت يا «في».

ــ «متى سيطلق سراحه؟» سأل بوب وهو يتنحنح، وقد امتزج فرحه من أجل أمه بالخوف مما سيحدث عندما يعود فرانك.

ــ خلال أسبوع أو اثنين. سيأتي على القطار الليلي. كنت أريده أن يأتي بالطائرة، ولكنه قال إنه يفضل القطار.

ــ « سنذهب أنا وباتسي لمقابلته » . قال جيمس بلهفة ، ثم تهاوى وجهه . « لكننا لا نعرف شكله » .

ــ « كلا » قالت « في » . « سأقابله بنفسي . وحدي . إنني لست عجوزاً تماماً بعد ، وأستطيع أن أقود السيارة بنفسي إلى غيللي » .

ــ « إن الوالدة على حق » ، قالت ميغي بحزم وهي تقطع الطريق على جوقة من الاعتراضات من اخوتها . « دعوا والدتنا تقابله وحدها . إنها الوحيدة التي يجب أن تراه أولاً » .

ــ « حسناً ، إن علي أن أتابع عملي » ، قالت « في » بصوت أجش وهي تنهض وتتجه نحو مكتبها .

ونهض الأخوة الخمسة كرجل واحد .

وقال بوب وهو يتثاءب :

ــ أعتقد أن الوقت قد حان لنا كي ننام .

وابتسم بحياء للكاردينال رالف :

ــ أظن أنك ستقيم لنا القداس غداً كما فيما مضى .

وطوت ميغي شغلها الصوفي ، ووضعته جانباً ، ونهضت :

ــ أنا أيضاً أتمنى لك ليلة سعيدة يا رالف .

ـــ طابت ليلتك يا ميغي .

وتبعتها عيناه وهي تخرج من الغرفة ، ثم استدارتا نحو ظهر « في » المحني :

ـــ طابت ليلتك يا « في » .

ـــ عفواً ؟ هل قلت شيئاً ؟

ـــ قلت « طابت ليلتك » .

ـــ آه ، ليلة سعيدة يا رالف .

لم يكن يريد الصعود مباشرة على أعقاب ميغي :

ـــ أظن أني سأقوم بجولة قبل النوم . هل تعلمين شيئاً يا « في » ؟

ـــ كلا . كان صوتها بعيداً .

ـــ إنك لم تخدعينني ولا ثانية واحدة .

وشخرت وهي تضحك بصوت غريب :

ـــ حقاً إني متعجبة من ذلك .

كان الوقت متأخراً ، وكانت هناك النجوم . النجوم الجنوبية ، تدور في السماوات . كان قد فقد سلطته عليها إلى الأبد ، مع أنها كانت لا تزال هناك ، بعيداً جداً لا تدفىء ، وضعيفة جداً عاجزة

عن المؤاساة. أقرب إلى الله الذي كان يقف حاجزاً بينه وبينها. ووقف طويلاً ينظر إلى السماء، ويصغي إلى الريح في الأشجار مبتسماً.

لم يكن يرغب بالاقتراب من «في»، فصعد السلالم في الطرف الآخر من البيت، وكان المصباح على مكتبها لا يزال مضاء، وباستطاعته رؤية ظهرها المنحني هناك، وهي تعمل. مسكينة «في». كم كانت تخشى الذهاب إلى السرير، لكن ربما كان ذلك سيصبح أسهل عند عودة فرانك إلى البيت. ربما.

وقابله الصمت في أعلى الدرج، سميكا، كان هناك مصباح من الكريستال على طاولة الردهة، يلقي ضوءه الخافت لينير طريق من ينهض ليلاً، ويرتعش حين يحرك نسيم الليل الستائر على النوافذ المجاورة له. ومر من أمامه، وقدماه لا تصدران أي صوت على السجادة السميكة. كان باب غرفة ميغي مشرعاً، والضوء يشع من خلاله؛ وحجب الأشعة لفترة قصيرة وهو يغلق الباب خلفه ويقفله. كانت ترتدي ثوباً فضفاضاً وتجلس في كرسي قرب النافذة تنظر إلى الخارج، إلى المرج المركزي المظلم، لكنها أدارت رأسها

لتنظر إليه وهو يتقدم إلى السرير، ويجلس على حافته. فنهضت ببطء وأتت إليه.

ـ دعني أساعدك في خلع جزمتك. إنني لا ألبس جزمة طويلة لهذا السبب، فأنا لا أستطيع خلعها بنفسي.

ـ هل ارتديت هذا اللون عن عمد يا ميغي؟

ـ «رماد الورود» وابتسمت. «لقد كان دوماً لوني المفضل. إنه لا يتضارب مع لون شعري».

ووضع إحدى قدميه على خاصرتها وهي تخلع له فردة الجزمة، ثم القدم الأخرى.

ـ هل كنت متأكدة أني سآتي إليك يا ميغي؟

ـ لقد قلت لك. إنك ملكي في دروغيدا. وإن لم تكن قد أتيت، لكنت ذهبت إليك بنفسي. لا تغلط».

ونزعت قميصه من فوق رأسه، وتوقفت يدها لحظة بحساسية فائقة على ظهره العاري، ثم ذهبت نحو المصباح وأطفأته، بينما كان يطوي ملابسه ويضعها على ظهر كرسي. كان باستطاعته أن يسمعها تتحرك وتنزع ثوبها. وغداً صباحاً، سأقيم القداس.

ولكن ذلك غداً صباحاً ، وسيكون السحر قد مر منذ زمن طويل . لا يزال هناك الليل ، وميغي . لقد أردتها ، فهي أيضاً سر مقدس .

○

كانت خيبة أمل دين كبيرة ، وقال له :

ـــ لقد ظننت أنك سترتدي ملابس حمراء .

ـــ أحياناً أفعل ذلك يا دين ، وإنما داخل جدران القصر . أما خارجها فأنا أرتدي رداءً أسودَ مكفوفاً بالأحمر ، مثل هذا .

ـــ هل عندك قصر حقاً ؟

ـــ نعم .

ـــ وهل هو مليء بالشمعدانات ؟

ـــ نعم ، ودروغيدا أيضاً .

ـــ « آه ، دروغيدا ! » ، قال دين بقرف . « إني أراهن أن شمعداناتنا صغيرة جداً بالمقارنة مع شمعداناتكم . إني أتمنى رؤية قصرك ، ورؤيتك بالرداء الأحمر » .

وابتسم الكاردينال رالف :

من يعلم يا دين ؟ ربما سيمكنك القيام بذلك ذات يوم .

كان هناك تعبير غريب في أعماق الصبي، نظرة بعيدة. وعندما كان الكاردينال رالف يستدير أثناء القداس، كان يرى تلك النظرة وقد ازدادت وضوحاً، ولكنه لم يتعرف عليها، إنما أحس بها وكأنه يعرفها. فليس هناك من رجل يرى نفسه في المرآة كما هو على حقيقته. ولا امرأة.

○

كان من المتوقع وصول لودي وآن مولر على عيد الميلاد، وكانا يفعلان ذلك كل عام. كان المنزل الكبير مليئاً بالناس الفرحين، ينتظرون أفضل عيد ميلاد يقضونه منذ أعوام.

كانت ميني وكات تغنيان وهما تعملان، وقد شع وجه السيدة سميث المتورم بالابتسامات. أما ميغي فقد تركت دين للكاردينال رالف دون تعليق، وبدت «في» أكثر سعادة، وأقل التصاقاً بمكتبها. وكان الرجال يتذرعون بأي عذر ليعودوا إلى البيت كل مساء، لأن غرفة الطعام بعد العشاء كانت تعج بالحديث. وكانت السيدة سميث قد أخذت عادة تحضير وجبة خفيفة لآخر السهرة، مؤلفة من الخبز والجبنة المسخنين، وبعض شطائر الزبدة والكعك بالزبيب. واعترض الكاردينال رالف قائلاً أن ذلك

سيجعله بديناً ؛ ولكنه ، وبعد ثلاثة أيام من هواء دروغيدا ، وسكان دروغيدا ، وطعام دروغيدا ، بدأ يفقد النظرة الكئيبة ، شبه القاتمة التي كانت في عينيه عندما وصل . وفي اليوم الرابع لوصوله ، كان الحر مرتفعاً جداً ، وذهب الكاردينال رالف مع دين للبحث عن أحد قطعان الخراف . وانزوت جوستين في الكوخ تحت شجرة الفلفل ، بينما استرخت ميغي على وسائد أحد المقاعد الخيزرانية على الشرفة ، وهي تشعر بالارتياح والقوة ، وكانت سعيدة جداً . فلا يمكن لامرأة أن تعيش « بدون .. » سنوات عديدة متتالية . ولكنه كان شيئاً لذيذاً ، خاصة معه ، مع الرجل الوحيد . وهي عندما تكون مع رالف تشعر بالحياة في كل جزء منها ، إلا ذلك الجزء الذي يخص دين . وأما حين تكون مع دين ، فكل جزء منها يضج بالحياة إلا ذلك الجزء الذي يخص رالف . وهي لا تشعر أنها مكتملة تماماً إلا عندما يكون الاثنان حاضرين معاً في عالمها ، كما هي الحال الآن . حسناً ، كان ذلك محتماً ، فدين كان ابنها ، ورالف كان رجلها . لكن شيئاً واحداً كان يعكر سعادتها ، وهو أن رالف لم يلاحظ شيئاً . وهكذا أطبقت فمها على سرها . إذ لم يكن باستطاعته أن يلاحظ بنفسه فلماذا تخبره؟ ما الذي فعله لكي يستحق أن تخبره؟ أمّا أن يكون بمقدوره أن يفكر لحظة واحدة أنها

قد عادت إلى لوك بإرادتها، فإن ذلك أكثر مما تستطيع احتماله. إنه لا يستحق أن تخبره إذا كان يفكر بها هكذا. أحياناً كانت تشعر بنظرات «في» الشاحبة، الساخرة، فكانت تنظر إليها دون تأثر. وكانت «في» تفهم، تفهم حقاً. كانت تفهم هذا الكره الجزئي، والغيظ، والرغبة في أن تجعله يدفع ثمن سنوات من الوحدة. صياد أوهام. هذا هو رالف دو بريكاسار، ولماذا تهديه أروع وهم؟ ولده؟ دعيه يحرم منه. دعيه يتألم، دون أن يعرف أنه يتألم.

ورن الهاتف، وأصغت ميغي بتكاسل، ثم عندما لاحظت أن أمها ليست موجودة بقربه نهضت بامتعاض وذهبت لتجيب عليه:

ــ السيدة فيونا كليري من فضلك. قال صوت رجل.

ونادتها ميغي، وتناولت «في» السماعة:

ــ فيونا كليري تتكلم. قالت. ووقفت تصغي والدم ينسحب تدريجياً من وجهها، فبدا كما كان في الأيام التي تلت موت بادي وستو؛ دقيقاً، حساساً:

ــ شكراً. قالت، ثم علقت السماعة.

ــ ما الأمر يا أماه؟

ـــ «لقد أُخلي سبيل فرانك. سيصل على القطار الليلي، بعد الظهر». ونظرت ساعتها. «علي أن أذهب قريباً، الساعة قد جاوزت الثانية».

ـــ «دعيني آتي معك»، قالت ميغي وهي لشدة سعادتها لا تحتمل رؤية كآبة أمها، وقد أحست أن هذا اللقاء لا يمكن أن يشكل فرحة كاملة لها.

ـــ كلا يا ميغي، سأكون بخير. اهتمي بما يجري هنا، ولا تقدمي العشاء قبل أن أعود.

ـــ أليس هذا رائعاً يا أمي؟ إن فرانك سيصل إلى البيت لقضاء عيد الميلاد!

ـــ نعم. قالت «في». إن هذا رائع.

لم يكن أحد يركب القطار هذه الأيام إذا كان باستطاعته السفر بالطائرة. وكان القطار قد لهث على مسافة ألف كيلو متر من سيدني، وأنزل أغلب مسافري الدرجة الثانية في المدن الصغيرة، فلم يبق إلا ركاب قلة أتوا عليه إلى غيللي.

كان رئيس المحطة يعرف السيدة كليري، من بعيد، ولكنه لم يحلم قط بأن يعقد معها حديثاً؛ وهكذا اكتفى بالنظر إليها وهي

تهبط درجات المعبر الخشبية، وتركها تقف وحيدة بقامتها المنتصبة على الرصيف المرتفع. كانت امرأة أنيقة، فكر، وقد لبست ثوباً وقبعة على الطراز الحديث، وحذاء عالي الكعب. وكان وجهها لا يزال جميلاً، قليل التجاعيد إذا ما قورن إلى عمرها، وكان ذلك دليلاً على ما تفعله حياة الرخاء بنساء كبار الملاكين.

ولهذا فقد تعرف فرانك على والدته بسرعة أكثر منها، مع أن قلبها عرفه في الحال. كان في الثانية والخمسين من عمره الآن، وكانت السنوات التي غابها هي التي نقلته من الشباب إلى الكهولة. كان الرجل الذي يقف تحت أشعة الغروب في غيللي شديد النحول، هزيلاً تقريباً، شديد الشحوب، وقد صلعت مقدمة رأسه. وكان يرتدي ملابس لا شكل لها، تتدلى حول جسمه الذي لا يزال يوحي بالقوة رغم صغر حجمه، وقد تقلصت يداه الجميلتان على حافة قبعة من الجوخ الرمادي. لم يكن محني الظهر ولا مريضاً، ومع ذلك فقد كان يقف بارتباك وهو يدير قبعته بيديه ويبدو وكأنه لا ينتظر أن يقابله أحد، ولا يدري ما سيفعل.

وسيطرت «في» على أعصابها، ونزلت من الرصيف بحزم:

ــ مرحباً يا فرانك .

ورفع عينيه اللتين كانتا تبرقان وتشعان ذات يوم ، واللتين كانتا الآن تغوصان في وجه رجل كهل . لم تكن هاتان عيني فرانك . كانتا مرهقتين ، صبورتين ، يبدو فيهما تعب لا نهاية له . ولكن ما إن استوعبتا صورة « في » حتى ظهر فيهما تعبير غريب ، جريح ، ضعيف ، مليء بنداء استغاثة يطلقه رجل ينازع .

ــ « آه يا فرانك » ، قالت وهي تأخذه بين ذراعيها ، وتهدهد رأسه على كتفها .

« لابأس ، لابأس » ، قالت وكأنها تغني . ثم تابعت بصوت أكثر نعومة « لابأس » .

○

وجلس في السيارة مسترخياً وصامتاً في البدء ، ولكن ما إن أخذت سرعة الرولز تتزايد ، واتجهت خارج المدينة ، حتى بدأ يبدي اهتماماً بما يحيط به ، وينظر من النافذة .

ــ يبدو كل شيء كما كان . قال متمتماً .

ــ أعتقد ذلك ، فالزمن يتحرك ببطء هنا .

واجتازا جسر الألواح الخشبية المخلعة، فوق النهر الموحل والذي تحف به أشجار الصفصاف الباكي، وقد بان الجزء الأكبر من قاعه مغطى بالجذور المتشابكة والحصى، وكانت لا تزال به بعض البرك البنية، بينما نمت أشجار الصمغ في كل مكان من الأرض الشاسعة الحجرية.

ـــ «نهر الباروون»، قال: «لم أكن أعتقد أني سأراه ثانية».

وارتفعت خلفهم سحابة كثيفة ضخمة من الغبار، وأمامهم امتدت الطريق مستقيمة مثل الرسم المنظوري عبر سهل معشوشب خال من الأشجار.

ـــ «هل هذه الطريق حديثة يا أماه؟» كان يبدو وكأنه يبحث بيأس عن موضوع للحديث، لكي يجعل الموقف طبيعياً.

ـــ نعم، لقد شقوها بين غيللي وميلبارينكا بعد نهاية الحرب حالاً.

ـــ كان عليهم أن يضعوا عليها شيئاً من القطران بدلاً من تركها بغبارها القديم القذر.

ـــ ولماذا؟ نحن معتادون على ابتلاع الغبار هنا. ثم فكر قليلاً بالكلفة الباهظة فيما لو رصفوها بالحجارة لكي تقاوم الوحل. إن الطريق الجديدة مستقيمة، وهم يعتنون بها دائماً لتبقى

مستوية، ولقد أغنتنا عن ثلاث عشرة بوابة من السبع والعشرين التي كانت موجودة. لم يبق هناك إلا أربع عشرة بوابة بين غيللي والمزرعة، ولكن انتظر قليلاً وسوف ترى ما فعلنا بتلك البوابات يا فرانك. لم يعد هناك من حاجة لفتحها وإغلاقها.

وتقدمت الرولز على منحدر باتجاه بوابة معدنية انفتحت بتكاسل، وما إن مرت السيارة منها وابتعدت بضعة أمتار على الطريق حتى انغلقت البوابة بنفسها.

ــ إن التقدم لا يتوقف حتماً! قال فرانك.

ــ لقد كنا أول مزرعة هنا تضع البوابات الأوتوماتيكية، ما بين ملبارنكا والمنزل فقط، بالطبع. فلا يزال من الضروري فتح وإغلاق بوابات المراعي يدوياً.

ــ حسناً، لا بد أن الرجل الذي اخترع هذه البوابات قد فتح وأغلق عدداً لا يحصى منها في حياته، على ما أظن، أليس كذلك؟

وابتسم فرانك وكانت هذه أول علامة ارتياح يبديها. ولكنه بعدها عاد إلى صمته، وركزت «في» انتباهها على قيادة السيارة، إذ لم تكن ترغب في دفعه إلى الكلام بسرعة. وعندما عبرا آخر البوابات ودخلا المرج الأوسط، شهق.

ـــ كنت قد نسيت كم هو جميل. قال.
ـــ «إنه البيت» قالت «في»، «وقد اعتنينا به».

وقادت السيارة إلى المرآب ثم مشت معه إلى البيت، ولكنه حمل هذه المرة حقيبته بنفسه.

وسألته أمه:
ـــ هل ترغب في أن تكون لك غرفة في المنزل الكبير، أو أن يكون لك بيت من بيوت الضيوف لك وحدك؟
ـــ «إني أفضل بيتاً لوحدي، شكراً». واستقرت عيناه المرهقتان على وجهها. «من الرائع أن يستطيع الانسان الابتعاد عن الآخرين». قال مفسراً، وكانت هذه هي الملاحظة الوحيدة التي صرح بها عن ظروف حياته في السجن.
ـــ «أظن أن ذلك سيكون أفضل بالنسبة لك»، قالت وهي تمر أمامه إلى غرفة الجلوس. «إن المنزل الكبير مليء حالياً، فالكاردينال هنا، ودين وجوستين قد عادا من المدرسة، ولودي وآن مولر سيصلان بعد غد لقضاء عيد الميلاد».

وشدت على حبل الجرس لتأمر بالشاي، ثم أخذت تطوف الغرفة بسرعة وتضيء مصابيح البترول.

ـــ لودي وآن مولر ؟ سألها .

وتوقفت في منتصف حركتها، كانت تدير فتيلة المصباح، ونظرت إليه :
ـــ «لقد مضى وقت طويل على رحيلك يا فرانك، إن آل مولر هم أصدقاء ميغي» .

وعندما ضبطت ارتفاع اللهب في المصباح، جلست في كرسيها المجنح . «سنتناول العشاء خلال ساعة من الآن، ولكننا سنأخذ أولاً فنجاناً من الشاي . يجب أن أغسل غبار الطريق من فمي .

وجلس فرانك بارتباك على حافة أحد المقاعد المغطاة بحرير تركي قشدي اللون، وهو ينظر إلى الغرفة بذهول :
ـــ يبدو هذا المكان مختلفاً عما كان عليه في زمن ميري كارسون .

وابتسمت «في» :
ـــ حسناً، أعتقد ذلك .

وجاءت ميغي، وكان من الصعب عليه أن يتصور أن أخته قد كبرت وأصبحت امرأة، وأن يرى أن أمه قد شاخت . وعندما

كانت أخته تعانقه وتقبله أدار وجهه جانباً، وتقلص داخل سترته المتهدلة وهو يبحث بعينيه عن أمه، وقد جلست تنظر إليه وكأنها تقول له: «لابأس. كل شيء سيبدو طبيعياً قريباً، خذ وقتك». وبعد ذلك ببرهة، وبينما كان لا يزال يبدو وكأنه يبحث عن شيء يقوله لهذه الغريبة، أتت ابنة ميغي، شابة طويلة، نحيلة، وجلست متصلبة ويداها الكبيرتان تمسدان طيات ثوبها، وعيناها الشاحبتان مثبتتان على وجه ثم على آخر. ووصل ابن ميغي برفقة الكاردينال، وذهب يجلس على الأرض بقرب شقيقته، ووجد فرانك أنه صبي جميل، هادىء، وإن نظراته كانت بعيدة، بعيدة.

ــ «من الرائع رؤيتك يا فرانك»، قال الكاردينال رالف وهو يهز يده، ثم استدار نحو «في» وقد رفع حاجبه الأيسر. «شاي؟ إنها فكرة جيدة».

وأتى رجال العائلة سوية إلى الغرفة، وكان الموقف شديد الصعوبة، لأنهم لم يغفروا له أبداً. وكان فرانك يعلم السبب، ذلك أنه قد سبب لوالدتهم الكثير من الألم. ولكنه لم يكن يعلم كيف يشرح لهم الأمر كي يفهموه، كما لم يكن يستطيع أن يخبرهم بكل ألمه ووحدته، ولا أن يطلب مغفرتهم. والشخص الوحيد الذي كان

يهمه فعلاً هو أمه، وهي لم تكن تفكر على الاطلاق أن هناك شيئاً للصفح.

وكان على الكاردينال أن يقوم بكل ما في وسعه لاضفاء نوع من الانسجام على الأمسية، ولقد أدار دفة الحديث حول المائدة، ومن بعد في غرفة الجلوس، متكلماً بسلاسة دبلوماسية، ومتعمداً خاصة أن يشمل فرانك في العائلة.

ــ «بوب، كنت أريد أن أسألك منذ وصولي.. أين الأرانب؟» سأل الكاردينال: «لقد رأيت ملايين الجحور، ولكنني لم أر أرنباً واحداً تقريباً».

ــ لقد ماتت الأرانب كلها. أجابه بوب.

ــ ماتت؟

ــ «نعم، بسبب أحد الأوبئة. فلقد عانت استراليا الأمرين بسبب الأرانب والجفاف منذ عام ١٩٤٧، وكنا يائسين»، قال بوب وقد أخذ حماسه يعلو لهذا الموضوع، وشعر بالارتياح لمناقشة شيء يقصي فرانك عن الحديث.

وفي هذه اللحظة أثار فرانك عدوانية أخيه من غير قصد إذ قال:

ـــ كنت أعلم أن الأمر كان سيئاً ، ولكن ليس إلى هذه الدرجة .

واستند إلى مقعده آملاً أن يكون قد أعجب الكاردينال لمشاركته في الحديث .

ـــ حسناً ، إنني لا أبالغ ، صدقني » ، قال بوب بجفاف ؛ فكيف لفرانك أن يعلم ؟

ـــ ما الذي جرى ؟ سأل الكاردينال بسرعة .

ـــ منذ سنتين ، بدأت منظمة الكومونويلث للأبحاث العلمية والصناعية برنامج أبحاث في فيكتوريا حيث قامت بحقن الأرانب بفيروس كانوا قد زرعوه في مخابرهم . ولست أدري ما معنى فيروس ، ولكنني أظن أنه بذرة ما . على كل لقد أطلقوا عليه اسماً . وفي البدء ، لم يكن يبدو أن الوباء ينتشر بشكل مرضي ولكن كل الأرانب التي أصيبت به ماتت . ولكن ، وبعد العدوى التجريبية ، بدأ الوباء ينتشر بسرعة الحريق في القش ، وكانوا يظنون أنه ينتقل بواسطة البعوض ، إنما يبدو أن له علاقة بنوع من الأعشاب . وماتت الأرانب بالملايين منذ ذلك الحين ، وقضي عليها . وأحياناً ، يمكنك أن تصادف بعضها ، مريضة ، وقد ملأت رؤوسها أورام قبيحة المنظر . ولكنه كان عملاً رائعاً

يا رالف، حقاً. وهذا المرض لا يصيب أياً من المخلوقات الأخرى، حتى تلك التي هي من نفس الفصيلة. وهكذا، وبفضل منظمة الأبحاث لم يعد هناك وباء أرانب.

ونظر الكاردينال إلى فرانك:

ــ هل تتصور الأمر يا فرانك؟

وهز فرانك المسكين برأسه وهو يتمنى أن يتركه الجميع في عزلته.

ــ الحرب البيولوجية على نطاق واسع. إني أتساءل إذا كان بقية العالم يعلم أن حرباً جرثومية قد نشبت هنا في استراليا ما بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٢، ضد ملايين الملايين من المخلوقات، ونجحت في القضاء عليها؟ حسناً، هذا ممكن، أليس كذلك؟ وليس ذلك مجرد مقالات طنانة في الصحف فقط، وإنما هو حدث علمي. يمكن للبلاد التي تملك سلاحاً كهذا أن تستغني عن القنبلة الذرية والهيدروجينية أيضاً. إني أعلم أنه كان يجب القيام بذلك، فقد كان ضرورياً جداً، ولا شك أنه أعظم انجاز حققه العلم دون أن تثار الضجة حوله. ولكنه مروّع أيضاً.

كان دين يتابع الحديث بانتباه :

ــ حرب جرثومية ؟ لم أسمع بها أبداً . ما هي بالضبط يا رالف ؟

ــ إن التعبير حديث يا دين ، ولكنني دبلوماسي بابوي ، ومن المفروض علي ، للأسف ، أن أطلع على كل الكلمات الجديدة مثل « الحرب الجرثومية » مثلاً . وببساطة فإن التعبير يعني تربية بذور قادرة على قتل أو شل نوع معين من الكائنات الحية .

وبدون قصد ، رسم دين إشارة الصليب على وجهه ، واستند إلى ركبتي رالف دو بريكاسار :

ــ من الأفضل أن نصلي .

ونظر الكاردينال إلى الرأس الأشقر وابتسم .

وإذا كان فرانك قد حاول التأقلم مع الحياة في دروغيدا ، فقد كان الفضل في ذلك لـ « في » ، التي واجهت معارضة رجال العائلة المتصلبين ، وظلت تتصرف وكأن ابنها البكر لم يتغيب إلا لبرهة وجيزة ، ولم يحمل العار لعائلته ، ولا آلم أمه أبداً . وبهدوء وتكتم ، وجدت له الملجأ الذي كان يرغب به ، بعيداً عن أولادها الآخرين ؛ كما أنها لم تشجعه على استعادة شيء من حيويته السابقة ، لأنها كلها كانت قد تلاشت ، ولقد علمت ذلك في

اللحظة التي نظر فيها إليها على رصيف محطة غيللي. لقد انعدمت حيويته القديمة تماماً، ابتلعها نوع من الحياة كان يرفض الحديث عنه معها. ولم يكن باستطاعتها أن تفعل من أجله أكثر من أن تؤمن له أكبر قسط من السعادة؛ وبالتأكيد، فإن الطريقة لذلك كانت في تقبل فرانك الحالي كفرانك السابق.

ولم ثرِد فكرة عمله في المراعي على الاطلاق، لأن اخوته لم يكونوا راغبين به، ولم يكن هو راغباً في هذا النوع من الحياة التي كان دائماً يكرهها. وكان منظر الأشياء التي تنمو يسعده، وهكذا حثته «في» على الاهتمام بحدائق المنزل، وتركته بسلام. وبدأ رجال كليري يعتادون تدريجياً على رؤية فرانك وسط العائلة، وبدأوا يفهمون أن التهديد الذي كان فرانك يمثله عادة لراحتهم لم يبق له أساس. ولم يكن بامكان أي شيء أن يغير شعور والدتهم نحوه، ولا يهم إن كان في السجن أو في دروغيدا، فهي ستشعر الشعور نفسه. والمهم أن وجوده في دروغيدا كان يسعدها. ولم يتدخل في حياتهم ولم يصبح أكثر ولا أقل مما كان دائماً.

ومع ذلك فلم تكن عودة فرانك إلى دروغيدا تشكل أية سعادة بالنسبة لـ «في». وكيف يكون ذلك ممكناً؟ كانت رؤيته

كل يوم نوعاً آخر من الأسى، كعدم رؤيته على الاطلاق. هذا عدا عن الحزن الهائل الذي كانت تسببه لها رؤية هذا الرجل الذي تحطمت حياته، هذا الرجل المحطم، الذي كان ابنها المحبوب، والذي لا بد أنه قد قاسى من العذاب أكثر مما تستطيع أن تتصور.

وذات يوم بعد عودة فرانك إلى البيت بحوالي ستة أشهر، أتت ميغي إلى غرفة الجلوس لتجد أمها جالسة تنظر عبر النوافذ إلى حيث كان فرانك يشذب شجيرات الورد المحاذية للممر. فاستدارت. ورأت ميغي في وجهها الذي كان يتصنع الهدوء شيئاً جعلها تضع يدها على قلبها:

ــ آه يا أماه. قالت بيأس.

ونظرت إليها أمها، وهزت رأسها وابتسمت قائلة:

ــ لا يهم يا ميغي.

ــ لو كان باستطاعتي أن أفعل شيئاً!

ــ ذلك باستطاعتك. لا تغيري شيئاً من موقفك. إني ممتنة لك. لقد أصبحت حليفة لي.

الكتاب السادس

ديـن

١٩٥٤ ــ ١٩٦٥

الفصل السابع عشر

ــ «حسناً»، قالت جوستين لوالدتها. «**لقد قررت ما سأفعله**».

ــ كنت أظن أن كل شيء قد قرر منذ زمن طويل. الفنون في جامعتي سيدني، أليس كذلك؟

ــ آه، ذلك كان خدعة صغيرة لاطمئنك بينما أرتب مخططاتي. أما الآن فكل شيء قد تم وبإمكاني أن أخبرك.

ورفعت ميغي رأسها عن عملها الذي كان يتمثل في تقطيع البسكويت على شكل شجر صنوبر؛ فالسيدة سميث كانت مريضة، وكانت ميغي وأمها تمدان يد المساعدة في المطبخ. ونظرت إلى ابنتها بتعب ونفاذ صبر، وضعف. ما العمل مع مخلوقة مثل جوستين؟ فهي لو قررت أنها ستأخذ القطار لتعمل بائعة هوى في

أحد مواخير سيدني، فقد كانت ميغي تشك جداً في إمكانية اثنائها عن عزمها. جوستين العزيزة، المروّعة، ملكة البغال في عنادها.

ــ تكلمي، فكلي آذان صاغية. قالت وهي تعود إلى بسكويتها:

ــ سأصبح ممثلة.

ــ ماذا؟

ــ ممثلة.

ــ «أيها الرب القدير»، وتركت من جديد شجرات الصنوبر. «انظري يا جوستين، إنني أكره تعكير صفو الناس، ولا أقصد بالحقيقة أن أجرح مشاعرك، ولكن هل تظنين أنك... حسناً، إنك مؤهلة جسمياً لتكوني ممثلة؟

ــ «آه يا أماه» قالت جوستين باشمئزاز: «لن أكون ممثلة سينمائية، وإنما ممثلة! أنا لا أريد أن أرقّص أردافي وأعرض صدري، أو أن أمرر بلساني على شفتيّ! أريد أن أمثل. «وكانت تكوم قطعاً من لحم البقر الأحمر في برميل من الملح لحفظها. «إن عندي من المال ما يكفي لأن أتحمل عبء نفسي خلال هذا النوع من التمرين الذي اخترته. أليس ذلك صحيحاً؟

ــ نعم، وبفضل الكاردينال دو برِيكاسار .

ــ كل شيء على ما يرام إذن . سأدرس التمثيل مع ألبرت جونز على مسرح كلّودن، ولقد كتبت إلى الأكاديمية الملكية للفنون الدرامية في لندن، طالبة منهم أن يضعوا اسمي على لائحة الانتظار .

ــ أأنت متأكدة من ذلك يا جوسي؟

ــ «تمام التأكد . كنت أعلم ذلك من زمن»، وذهبت آخر قطعة من اللحم الدامي في البرميل تحت طبقة من المحلول الملحي، ووضعت جوستين الغطاء على البرميل بقوة . «انتهينا! آمل ألا أرى قطعة أخرى من اللحم المالح ما حييت» .

وناولتها ميغي صينية مليئة بالبسكويت :

ــ ضعي هذه في الفرن، لو سمحت، وضعي الفرن على درجة ٤٠٠ . الحقيقة أنها كانت مفاجأة . كنت أعتقد... أن الشابات اللواتي يرغبن في أن يصبحن ممثلات، يقمن بالتمثيل دون انقطاع، ولكن الشخصية الوحيدة التي رأيتك تمثلينها كانت شخصيتك أنت .

ــ أماه! هل ستعودين ثانية للخلط بين نجوم السينما والممثلات. الحقيقة أني قد يئست منك.

ــ أليست نجوم السينما ممثلات أيضاً؟

ــ على مستوى منخفض جداً. إلا إذا كن قد اشتغلن على المسرح أولاً. وأقصد أن لورنس أوليفييه نفسه يمثل بعض الأفلام من وقت لآخر.

كانت هناك صورة موقعة من لورنس أوليفييه على طاولة جوستين، وكانت ميغي قد نسبتها إلى نزوة من نزوات الشباب الاعتيادية، مع أنها في ذلك الوقت فكرت أن جوستين لا تخلو من الذوق كما تتذكر الآن، والصديقات اللواتي كن يأتين معها أحياناً إلى البيت لقضاء بضعة أيام كن يجمعن صور تاب هنتر، وروري كالهون.

ــ «إنني لم أفهم بعد»، قالت ميغي وهي تهز رأسها: «ممثلة!».

ورفعت جوستين كتفيها:

ــ حسناً، إني لا أستطيع أن أصرخ وأصيح إلا على المسرح، إذ لا يسمح لي بالقيام بأي شيء من هذا هنا، ولا في المدرسة،

ولا في أي مكان! إني أحب الصراخ، والصياح، والـزئير. اللعنة!

ــ ولكنك جيدة في الفنون يا جوسي، فلم لا تصبحين فنانة؟ تابعت ميغي.

فاستدارت جوستين من أمام الفرن الغازي الضخم وهي تنقر بإصبعها على عداد إسطوانة الغاز:

ــ «علي أن أقول لمساعد البستاني أن يغير قوارير الغاز، فلم يبق هناك الكثير من الغاز. ومع ذلك لا يزال هناك ما يكفينا اليوم.

» وكانت العينان الشاحبتان تراقبان ميغي بشفقة:

ــ إنك حقاً لست واقعية يا أمي. كنت أظن أن الأطفال فقط يعجزون عن رؤية الجهة الواقعية في مهنة ما. دعيني أقل لك، أني لا أريد أن أموت من الجوع في سقيفة، وأحصل على الشهرة بعد موتي. أريد أن أستمتع بالشهرة وأنا ما زلت حية، وأن أكون غنية. وهكذا فإني سأقوم بالرسم كهواية، وسأمثل لكسب رزقي. ما رأيك؟

ــ «إن لك مدخولاً من دروغيدا يا جوسي»، قالت ميغي يائسة وهي تخون القسم الذي قطعته على نفسها بأن تحفظ الصمت

بهذا الخصوص. «لن تموتي من الجوع أبداً في سقيفة. ولو رغبت في الرسم فقط، فذلك ممكن، وباستطاعتك فعله».

وبدت جوستين متيقظة، مهتمة:

ــ وكم هو دخلي يا أماه؟

ــ ما يكفي لئلا تعملي طوال حياتك إن رغبت في ذلك.

ــ «يا للملل! سأنتهي بأن أولع بالهاتف وألعب البريدج، هذا على الأقل ما تفعله أمهات رفيقاتي لأني سأعيش في سيدني، وليس في دروغيدا. إني أحب سيدني أكثر بكثير من دروغيدا». ولمع في عينيها بريق أمل. «هل عندي ما يكفي من المال لأقوم بعملية تخلصني من النمش؟ إن هناك علاجاً جديداً لذلك بالكهرباء».

ــ أظن ذلك، ولكن لماذا؟

ــ لأنه لا بد عندها أن ينتبه أحد ما إلى وجهي. لهذا.

ــ كنت أظن أن جمال الوجه لا يهم بالنسبة للممثلة!

ــ كل ما زاد عن حده نقص، فالنمش في وجهي كارثة.

ــ هل أنت متأكدة أنك لا تفضلين أن تكوني فنانة؟

ــ «متأكدة تماماً، شكراً». وقامت بحركة رقص قصيرة. «سأصعد إلى خشبة المسرح».

ـــ وكيف استطعت التوصل إلى دخول مسرح كلّودن ؟
ـــ لقد قمت بتجربة ؟
ـــ وقبلوك ؟
ـــ إن ثقتك بابنتك مؤثرة يا أماه . بالطبع لقد قبلوني ! إنني رائعة . وذات يوم سأصبح مشهورة .

وخلطت ميغي بعضاً من الصبغة الغذائية في وعاء مقعر يحتوي على ماء مثلج ، وأخذت تمسح به البسكويت المشوي على أشكال شجر الصنوبر .

ـــ وهل الشهرة هامة بالنسبة لك يا جوستين ؟
ـــ « وكيف إذن ! » ووضعت السكر على الزبدة الرخوة التي كانت تلتصق بالوعاء؛ وبالرغم من أن فرن الغاز قد حل محل فرن الحطب ، فقد كان المطبخ حاراً . «إني مصممة تمام التصميم على أن أصبح مشهورة » .
ـــ ألا تريدين الزواج ؟

وبدا الازدراء على وجه جوستين :

ـــ لا يبدو ذلك ممكناً ! ولماذا أقضي حياتي في تنظيف أنوف الأطفال ؟ ولماذا أقوم بأداء واجب الطاعة والاحترام لرجل

لا يساوي نصف ما أساوي ولو ظن أنه أفضل؟ آه، كلا، كلا، ليس أنا!

ـــ بصراحة، إنك تبالغين! أين تعلمت هذا الكلام؟

وأخذت جوستين تكسر البيض بيد واحدة، بسرعة ورشاقة، في وعاء كبير:

ـــ «في معهد السيدات الخاص حيث كنت، بالطبع»، وأخذت تخفق البيض بشدة، بخفاقة فرنسية. «لقد كنا مجموعة لائقة من الصبايا. ومثقفات جداً. هناك القلة من الفتيات البريئات اللواتي بامكانهن أن يقدرن هذه الأبيات اللاتينية مثلاً:

كان هناك إيطالي في فينيديوم
يرتدي قميصاً من الايريديوم
ولما سُئل لم هذه السترة
أجاب:
إنها واقية... جداً.

ـــ «هل هذا كل شيء؟» قالت ميغي. «كنت أظن أن الأمر أسوأ من ذلك. أنت مدهشة. ولكن لنعد إلى حديثنا، يا ابنتي

العزيزة، رغم مجهودك الواضح لتغيير الحديث. ما العيب في الزواج؟».

وقلدت جوستين ضحكة جدتها الساخرة التي تشبه الشخير:

ــ أماه، كان عليك أن تكوني آخر من يطرح هذا السؤال.

وشعرت ميغي بالدم يصعد إلى وجنتيها، وأخفضت رأسها تنظر إلى صينية البسكويت:

ــ لا تكوني وقحة، رغم بلوغك السابعة عشر بالتمام والكمال.

ــ «هذا عجيب!» قالت جوستين مخاطبة وعاء الخلط: «ما إن يغامر أحدهم على الأرض المحفوظة لحقوق الأهل، حتى يقال عنه وقح. كل ما قلته هو أنك آخر من كان عليه أن يطرح مثل هذا السؤال. وهذا صحيح تماماً، اللعنة! إني لا أقصد بكلامي أنك فاشلة أو خاطئة، أو أسوأ من هذا. والحقيقة، فأنا أعتقد أنك قد برهنت عن تعقل ملحوظ، كبير، عندما استغنيت عن زوجك. ولماذا كنت بحاجة لزوج؟ هناك أطنان من النفوذ الرجالي هنا لتربية أولادك، بوجود أخوالي؛ ومعك ما يكفي من المال. وأنا على اتفاق معك من أن الزواج للعصافير.

ــ أنت مثل والدك بالضبط .

ــ تهرب آخر . ما إن أكف عن أن أعجبك حتى أصبح في الحال مثل والدي . حسناً ، علي أن أصدق ما تقولين بما أن عينيّ لم تقعا على هذا السيد .

ــ متى ستسافرين؟ سألت ميغي وقد يئست .

وابتسمت جوستين :

ــ إنك تتلهفين للتخلص مني ، إيه؟ لابأس يا أماه ، أنا لا ألومك على الاطلاق . ولكنني لا أستطيع أن أقاوم ذلك ، إني أحب أن أصدم الآخرين وخاصة أنت . ما رأيك في أن تأخذيني إلى المطار غداً؟

ــ دعي ذلك إلى ما بعد الغد ، فغداً سآخذك إلى المصرف ، فمن الأفضل أن تعرفي مقدار ما تملكين . ثم يا جوستين . . .

كانت جوستين تضيف الدقيق الآن وتخلطه بمهارة ، ولكنها نظرت إلى أمها ، إذ أنها سمعت تغييراً في لهجة صوتها :

ــ نعم؟

ــ إذا حصلت لك أية مشاكل ، عودي إلى البيت ، أرجوك . إن

لك دائماً مكاناً في دروغيدا ، وأريدك أن تتذكري ذلك . ومهما فعلت فلن يكون سيئاً بشكل يمنعك من العودة .

ورقت نظرة جوستين :

ــ شكراً يا أماه . إنك لست سيئة في الواقع ، إنما أنت ... عجوز خرفة .

ــ « عجوز ؟ » شهقت ميغي . إني لست مسنة ، فأنا في الثالثة والأربعين فقط » .

ــ يا إلهي ! كل هذا ؟

وقذفت ميغي بقطعة البسكويت التي كانت في يدها على أنف جوستين :

ــ « آه أيتها القبيحة ! » وضحكت . « أنت وحشة ! لقد جعلتيني أشعر وكأن عمري مئة عام » .

وابتسمت ابنتها ، وفي هذه اللحظة وصلت « في » لترى كيف تسير الأمور في المطبخ ؛ واستقبلت ميغي قدومها بالارتياح :

ــ أماه ، أتدرين ماذا قالت جوستين ؟

لم تعد عينا « في » حالياً قادرتين على رؤية أكثر من دفاتر

حساباتها، ولكن الدماغ الذي كان مستتراً وراء هذه الحدقات المعتمة كان لا يزال حاداً كسابق عهده:

ــ وكيف أعلم ما قالته جوستين.

سألت بنعومة وهي تنظر إلى البسكويت الأخضر برعشة اشمئزاز خفيفة.

ــ لأني أشعر أحياناً أنك وجوستين تخفيان عني بعض الأسرار الصغيرة. والآن وعندما انتهت ابنتي من اطلاعي على بعض مشاريعها، إذا بك تصلين في الوقت الملائم إلى المطبخ.

ــ «هم، هم، إن طعمهم على الأقل أفضل من منظرهم»، قالت «في» وهي تقضم قطعة بسكويت: «إني أؤكد لك يا ميغي أني لا أشجع ابنتك على التآمر وراء ظهرك. ما الذي فَعَلْتِهِ لاغضاب أمك يا جوستين؟» سألت وهي تستدير إلى حيث كانت جوستين تصب خليطها الاسفنجي في قالبين معدنيين كانت قد دهنتهما بالزبدة ورشتهما بالدقيق.

ــ لقد قلت لأمي أني سأصبح ممثلة يا جدتي. هذا كل شيء.

ــ هذا كل شيء، إيه؟ أهذا صحيح أم أنه إحدى مزحاتك المريبة؟

ـــ هذا صحيح، وسأبدأ على مسرح كلّودن.

ـــ «حسناً، حسناً». قالت «في» وهي تستند إلى المائدة وتراقب ابنتها بسخرية:

ـــ أليس من الغريب أن الأولاد يستطيعون التقرير بأنفسهم يا ميغي؟

ولم تجب ميغي.

ـــ هل أنت ضد هذا القرار يا جدتي؟ زمجرت جوستين وهي على استعداد للهجوم.

ـــ أنا ضده؟ إن ما تفعلينه بحياتك ليس من شأني يا جوستين. وعدا عن ذلك فأنا أعتقد أنك ستكونين ممثلة جيدة.

ـــ حقاً؟ شهقت ميغي.

ـــ بالطبع. قالت «في»، إن جوستين ليست من النوع الذي يختار بدون تفكير، أليس كذلك يا بنيتي؟

ـــ «نعم» قالت جوستين مبتسمة وهي تدفع خصلة شعر سقطت فوق عينيها، ونظرت ميغي إليها وهي تنظر إلى جدتها بحنان لم يبدُ أنها تشمل به أمها.

ـــ «أنت فتاة طيبة يا جوستين»، قالت «في» وهي تنهي قطعة

البسكويت التي كانت تقضمها بحماسة. «لابأس بهذا البسكويت، ولكنني أفضل أن تلوينه بالأبيض».

ــ لا يمكن تلوين الأشجار بالأبيض. قالت ميغي معترضة.

ــ بالطبع يمكن ذلك عندما تكون تلك الأشجار صنوبراً، فالأبيض هو الثلج. قالت «في».

ــ لقد فات الأوان الآنَ، لقد لَوّنْتها بلون القيء الأخضر، قالت جوستين ضاحكة.

ــ جوستين!

ــ آه، إني آسفة يا أمي، لم أقصد إيلامك. إني أنس دائماً أن معدتك حساسة.

ــ إن معدتي ليست حساسة. قالت ميغي بغضب.

ــ لقد أتيت لأرى إذا كان من الممكن أن أتناول فنجاناً من الشاي. قاطعتهما «في» وهي تسحب كرسياً وتجلس.

ــ ضعي الابريق على النار يا جوستين، كوني لطيفة.

وجلست ميغي أيضاً:

ــ هل تظنين أن الأمر سيكون حقاً على ما يرام بالنسبة لجوستين يا أماه؟ سألت ميغي بقلق.

ـــ ولم لا ؟ أجابت « في » وهي تنظر إلى حفيدتها التي كانت تحضر الشاي .

ـــ ربما كانت هذه نزوة عابرة .

ـــ هل هي نزوة عابرة يا جوستين ؟ سألت « في » .

ـــ « كلا » أجابت جوستين بحزم ، وهي تضع الصحون والفناجين على طاولة المطبخ الخضراء العتيقة .

ـــ « ضعي البسكويت على طبق يا جوستين ، ولا تقدميه هكذا في العلبة » ، قالت ميغي بطريقة آلية . « وبحق السماء لا تأتي بكل صفيحة الحليب إلى الطاولة ، بل ضعي قليلاً منه في وعاء فخاري صغير » .

ـــ « نعم يا أماه ، آسفة يا أماه » ، أجابت جوستين هي الأخرى بطريقة آلية . « إني لا أفهم لماذا كل هذا التكلف في المطبخ : سأضطر بعد ذلك أن أعيد البسكويت المتبقي إلى العلبة ، وأن أغسل الأطباق الإضافية » .

ـــ افعلي فقط ما يقال لك ، ذلك أجمل .

ـــ « لنعد إلى حديثنا » تابعت « في » : « لا أعتقد أن هناك أي شيء للمناقشة . إن علينا برأيي أن نسمح لجوستين بأن تجرب ، وربما ستكون جيدة جداً » .

ــ « أتمنى لو أستطيع أن أكون أكيدة من ذلك » ، قالت ميغي بلهجة حزينة .

ــ هل لحت بالمجد والشهرة لأمك يا جوستين ؟

ــ « هذه أشياء تدخل في الحساب أيضاً » ، قالت جوستين وهي تضع ابريق الشاي البني القديم على الطاولة بتحدٍ ، وتجلس متسارعة : « لا تشتكي يا أمي ، أني لن أضع الشاي في وعاء فضي في المطبخ . هذا قراري الأخير » .

ــ إن وعاء الشاي مناسب جداً . وابتسمت ميغي .

ــ « هذا حسن ! ليس هناك ألذّ من فنجان من الشاي » ، تنهدت « في » وهي ترشف الشاي : « جوستين ، لماذا تصرين على أن ترسمي الأمور لأمك بهذه الصورة السيئة ؟ أنت تعلمين أن المسألة ليست مسألة شهرة أو نزوة . إنها مشكلة « الذات » ، أليس كذلك ؟

ــ الذات يا جدتي ؟

ــ بالطبع ، الذات . فالتمثيل هو ما تشعرين أنك خلقت لأجله ، أليس هذا صحيحاً ؟

ــ نعم .

ــ إذن، لماذا لم يكن بامكانك أن تفسريه هكذا لأمك؟ لماذا تزعجينها بكل هذا الهراء؟

فهزت جوستين كتفيها، وشربت الشاي ثم دفعت بالفنجان الفارغ نحو أمها طالبة المزيد، وهي تجيب:

ــ «لسٌّ» أدري.

ــ «لست أدري». صلّحت «في» كلماتها. إن عليك أن تلفظي كلماتك بوضوح على المسرح، كما أعتقد». ولكن «الذات» هو سبب رغبتك بأن تكوني ممثلة، أليس كذلك؟

ــ «أعتقد ذلك»، أجابت جوستين على مضض.

ــ «آه من هذا العنفوان العنيد المتصلب الذي ورثتِهِ عن آل كليري! إنه سوف يقضي عليك أنت أيضاً يا جوستين إذا لم تتعلمي كيف تسيطرين عليه. وهذا الخوف السخيف من أن يسخر منك الآخرون! أو يضحكون عليك. لست أعتقد لماذا تظنين أن أمك ستكون بهذة القسوة.» وربّتت ظهر يد الصبية «لا تكوني متصلبة يا جوستين، كوني أكثر سلاسة».

ولكن جوستين هزت برأسها وهي تقول:

ــ لا أستطيع.

وتنهدت «في»:

ــ حسناً، إني أمنحك بركتي في مشروعك يا ابنتي، على افتراض أنه لمصلحتك.

ــ شكراً يا جدتي، إني أقدّر لك ذلك.

ــ إذن، أريني تقديرك بطريقة ملموسة. اذهبي وابحثي عن خالك فرانك، وقولي له أن الشاي جاهز في المطبخ.

فخرجت جوستين، وحدقت ميغي بأمها:

ــ أمي، أنت حقاً مدهشة.

وابتسمت «في»:

ــ حسناً، عليك أن تعترفي بأني لم أحاول أبداً أن أقول لأحد من أولادي ما عليه أن يفعل.

ــ «كلا، لم تحاولي ذلك أبداً»، قالت ميغي برقة: «ونحن أيضاً نقدّر لك ذلك».

○

كان أول ما فعلته جوستين عند عودتها إلى سيدني هو أنها بدأت عملية إزالة النمش من وجهها. ولسوء الحظ، لم يكن ذلك

سريعاً، فقد كان وجهها مليئاً بالنمش، وسوف تستغرق العملية حوالي الاثني عشر شهراً؛ وعندها عليها أن تبقى بعيـدة عن الشمس بقية حياتها وإلا عاد النمش كما كان. والشيء الثاني الذي فعلته هو أنها وجدت لنفسها شقة، ولم يكن ذلك بالأمر السهل في سيدني في ذلك الوقت حيث كان الناس يبنون منازل فردية، ويعتبرون الحياة الجماعية في المباني الضخمة نوعاً من اللعنة. ولكنها وجدت في آخر الأمر شقة مؤلفة من غرفتين في «نوترال بي» في أحد المباني القديمة الفيكتورية الضخمة التي قاست كثيراً قبل أن تتحول إلى شقق صغيرة حقيرة. كان الأجر خمس ليرات وعشرة شلنات أسبوعياً، وهو ثمن فاحش نظراً لأن الحمّام والمطبخ كانا مشتركين بين كل المستأجرين. ومع ذلك فقد كانت جوستين مسرورة. وبالرغم من أنها قد تلقت أحسن التدريب فيما يتعلق بالأعمال المنزلية، إلا أنها لم تكن تملك غريزة ربة بيت.

كانت الحياة في «بوثويل غاردنز» أكثر سحراً بكثير من تدربها على التمثيل في مسرح كلّودن، حيث كان يبدو لها أنها تقضي حياتها في التسلل وراء الديكور لتراقب أناساً آخرين يقومون بالتجريب، أو في القاء عبارة عابرة بين حين وآخر، أو في حفظ نصوص من شكسبير، وشو، وشيريدان عن ظهر قلب.

وفضلاً عن شقة جوستين، كان في بوثويل غاردنز ست شقق أخرى إلى جانب شقة السيدة «ديفين»، صاحبة البيت. كانت السيدة ديفين لندنية في الخامسة والستين من عمرها، ذات عينين بارزتين، تشكو دائماً، ولا تخفي احتقارها لاستراليا والاستراليين مع أنها لم تكن تشمئز من سرقتهم. كان همها الوحيد في الحياة يبدو محصوراً في ثمن الغاز، وكلفة الكهرباء، ونقطة ضعفها الوحيدة هي جار جوستين، شاب إنجليزي كان يستغل جنسيته الانجليزية بكل ارتياح.

وقال لجوستين يوماً:

ــ إني لا أتردد في إثارة اهتمام البطة العجوز من وقت لآخر، بتذكيرها بانجلترا، فهذا يوفر علي تحاملها. ولا يحق لكن أنتن البنات باستعمال المدافىء الكهربائية حتى في الشتاء، أما أنا فقد «أُعطيت» واحدة كهربائية، و «سُمح» لي بتشغيلها حتى في الصيف لو رغبت بذلك...

ــ خنزير. قال جوستين لا مبالية.

كان يدعى بيتر ويلكنز، وكان وكيل تجارة متجول.

ــ «تعالي وزوريني ذات يوم، وسأحضر لك فنجان شيء ما»، ناداها وقد أسرته عيناها الشاحبتان الغريبتان.

وأتت جوستين لزيارته وقد احترست ألا تقوم بها في الوقت الذي تقوم به السيدة ديفين بجولتها الحسودة في الممرات، ولكنها بعد دقائق معدودة كانت تصارع بيتر. كانت السنوات التي قضتها في دروغيدا في العمل وركوب الخيل قد منحتها قوة لا يستهان بها، ولم تتردد في انتهاك قواعد القتال القديمة وهي تضربه في المنطقة الواقعة ما تحت الحزام.

ــ «لعنة الله عليك يا جوستين»، لهث بيتر وهو يمسح دموع الألم من عينيه، «استسلمي يا فتاة، إنك ستفقدينه ذات يوم على كل حال! نحن لسنا في انجلترا الفيكتورية، ولست مجبرة أن تحافظي عليه إلى ليلة الزفاف».

ــ «إنني لا أنوي الاحتفاظ به حتى ليلة الزفاف»، أجابت وهي تُسوّي ثوبها. «ولكنني لست متأكدة بعدُ من سيحظى بهذا الشرف. هذا كل ما في الأمر».

ــ «لا تتوهمي إنك شيء غير اعتيادي»، قال بلهجة شريرة، فقد آلمته جداً في الحقيقة.

ــ كلا، إني أعلم. إنني لست إلا جلداً وعظماً يا بيتر. إنك لا تستطيع إيذائي بالكلام. وهناك بعض الرجال الذين لا يترددون في الارتماء على أي شيء إذا كان هذا الشيء «عذراء».

ـــ والكثير من النساء أيضاً يفعلن ذلك، راقبي الشقة الأمامية مثلاً.

ـــ آه، إني أراقبها.

كانت الفتاتان اللتان تقطنان الشقة الأمامية شاذتين، وقد رحبتا بقدوم جوستين بابتهاج حتى اكتشفتا أنها لم تكن فقط غير مبالية بما يجري، بل أنها لم تكن حتى فضولية. وفي البدء، لم تكن متأكدة تماماً من تلميحاتهما؛ ولكنها، وبعد أن أوضحتا لها الأمر بصراحة شديدة، هزت كتفيها دون تأثر. وهكذا، وبعد فترة من التأقلم، أخذت تصغي إليهما باهتمام، وأصبحت صديقتهما الحميمة المحايدة، وملجأهما في كل المشاكل؛ فقد دفعت كفالة لـ «بيلي» لاخراجها من السجن، وأخذت «بوبي» إلى المستشفى لغسل معدتها بعد مشاجرة عنيفة جداً مع بيلي، ورفضت أن تدافع عن واحدة منهما دون الأخرى عندما كانت «بات»، أو «آل»، أو «جورجي»، أو «روني»، يظهرن من وقت لآخر في الأفق. وفكرت في أن هذا النوع من الحياة العاطفية يبدو مزعزعاً. فالرجال كانوا سيئين بما فيه الكفاية، ولكن كان عندهم على الأقل نفحة من الجاذبية، نابعة عن الفارق الجسمي الحقيقي. وهكذا

إذن، بين كلّودن، وبوثويل غاردنز، والفتيات التي عرفتهن خلال دراستها في كينكوبال، كان لجوستين كثير من الأصدقاء، وكانت هي نفسها صديقة طيبة. لم تخبرهم أبداً عن مشاكلها كما كانوا يخبرونها هم؛ فقد كان عندها دين لهذا الغرض، ولم يكن يبدو أن للمشاكل الصغيرة التي كانت تقر بوجودها أي تأثير عليها. والشيء الذي كان يسحر أصدقاءها أكثر من كل شيء آخر عندها، هو سيطرتها العجيبة على نفسها، وكأنها قد تدربت منذ طفولتها على ألّا تدع الظروف تعكر سعادتها.

كان كل من أصدقائها يتساءل باهتمام شديد كيف، ومتى، ومع من ستقرر جوستين أن تصبح امرأة كاملة، ولكنها لم تكن متعجلة.

كان آرثر ليسترانج الشاب الذي لا يشيخ في فرقة البرت جونز، وكان قد ودّع بكآبة عامه الأربعين في السنة التي سبقت قدوم جوستين إلى مسرح الكلّودن. كان شديد الهيبة، وممثلاً ذا ضمير حي يمكن الاعتماد عليه. وكان وجهه الحازم، ذو الخطوط النقية، محاطاً بخصلات من الشعر المجعد الأشقر الذي يثير حماس الجمهور وتصفيقه. وفي السنة الأولى لم يعط بالاً لجوستين التي

كانت هادئة جداً، والتي كانت تنفذ بالضبط كل ما يقال لها. ولكن عملية استئصال النمش من وجهها انتهت في آخر السنة، وبدأت تظهر على الديكور بدلاً من أن تذوب فيه.

وبعد زوال النمش، بدأت تتزين وتضع ظلالاً غامقة على جفنيها ورموشها، وأصبحت فتاة جميلة لها وجه كوجه جنية من الجان. لم تكن تملك شيئاً من جمال لوك اونيل الملفت للأنظار، ولا من نعومة والدتها؛ كان وجهها مقبولاً دون أن يلفت الأنظار، وجسمها يميل إلى النحول. ولكن الشعر الأحمر البراق كان يبرز دوماً. أما على المسرح فقد كانت مختلفة تماماً. كان بامكانها أن تجعل الجمهور يعتقد أنها بجمال هيلين أميرة طروادة، أو قبيحة مثل الساحرات.

وانتبه آرثر إليها خلال فترة تدربها حيث كان عليها أن تلقي مقطعاً من مسرحية كونراد «اللورد جيم» وهي تستعمل لهجات مختلفة. كانت رائعة في الحقيقة؛ وشعر آرثر بالاثارة التي يشعر بها البرت جونز، وفهم أخيراً لماذا يكرس لها «آل» كل هذا الوقت. لقد ولدت ممثلة. ولكنها كانت تملك شيئاً آخر أكبر بكثير من

هذا، فقد كانت تنفخ الروح في كل كلمة تقولها. ثم كان هناك صوتها، هبة طبيعية رائعة لكل ممثلة، عميق، مبحوح، نفاذ.

وهكذا فعندما رآها جالسة وبيدها فنجان من الشاي، وعلى ركبتيها كتاب مفتوح، أتى يجلس بقربها:

ــ ما الذي تقرئينه؟

فنظرت إليه وابتسمت:

ــ بروست.

ــ ألا تجدينه مملاً قليلاً؟

ــ بروست، ممل؟ ليس مملاً إلا لمن يخشى الكلام والشائعات. وهذا هو بروست، عجوز ثرثار، مرعب.

وأحس منزعجاً أنها كانت تتنازل عقلياً مراعاة له، وغفر لها ذلك، فهو ليس إلا هفوة شباب.

ــ لقد سمعتك في مقطع من كونراد، وكنت رائعة.

ــ شكراً.

ــ ربما يمكننا أن نتناول القهوة سوية ذات مرة ونناقش مشاريعك.

ــ إذا أردت. قالت وهي تعود إلى بروست.

وكان مسروراً لأنه دعاها إلى القهوة بدلاً من العشاء، فقد كانت زوجته تجبره على اتباع نظام غذائي، والعشاء يتطلب من جوستين قدراً من الامتنان لم يكن واثقاً أنها مستعدة لابدائه. وعلى كل حال، فقد استغل دعوته وأخذها إلى مطعم صغير يقع في شارع اليزابت حيث كان واثقاً تمام الثقة تقريباً بأن زوجته لن تفكر بالبحث عنه هناك.

وكنوع من التحدي كانت جوستين قد تعلمت التدخين، وقد تعبت من أن تبدو دوماً بمظهر البريئة الغبية كلما رفضت سيغارة تقدم لها. وبعد أن جلسا، سحبت من حقيبتها علبة سغائر جديدة تماماً، ونزعت عنها الورق الشفاف بعناية من الأعلى وهي تحاول أن تحتفظ بقطعة الورق الشفاف المتبقية ملتصقة بالعلبة. وكان آرثر يراقب حركاتها المتأنية بتسلية واهتمام.

ــ لماذا تتعبين نفسك بالابقاء على الورقة؟ انزعيها يا جوستين.

ــ ذلك اهمال كبير.

وتناول علبة السغائر وهو يداعب غلافها الشفاف الرقيق السليم تماماً، وقد غرق في أفكاره.

ــ لو أني كنت من أتباع سيغموند فرويد العظيم...

ـ لو كنت فرويد، ماذا؟ ونظرت إلى فوق لترى النادلة تقف بقربها:

ـ قهوة بالقشدة لو سمحت.

وأزعجه أن تطلب بنفسها، ولكنه لم يعلق وهو يتابع الفكرة التي في رأسه:

ـ قهوة نمساوية من فضلك. والآن لنعد إلى ما كنت أقوله بخصوص فرويد. إني أتساءل ماذا كان سيفكر لو رأى طريقتك في انتزاع ورقة علبة السغائر. لا بد أنه كان سيقول...

وأخذت العلبة منه وفتحتها، وتناولت لفافة وأشعلتها بنفسها دون أن تعطيه الوقت للبحث عن علبة الثقاب في جيبه.

ـ حسناً؟

ـ سوف يفكر بأنك ترغبين في الحفاظ على أنسجتك الغشائية سليمة، أليس كذلك؟

ورنت ضحكتها في الجو المفعم بالدخان، والتفت عدة رجال بفضول:

ـ هل سيفكر بذلك؟ أهي طريقة ملتوية لمعرفة ما إن كنت لا أزال عذراء أم لا يا آرثر؟

وطقطق بلسانه ساخطاً :

ـــ جوستين ! إني ألاحظ أن علي أن أعلمك فنّ تقنيع الأفكار ، إلى جانب أشياء أخرى .

ـــ إلى جانب أية أشياء أخرى يا آرثر ؟ وانحنت تستند بمرفقيها إلى الطاولة ، وعيناها تشعان في العتمة .

ـــ حسناً ، ماذا تريدين أن تتعلمي ؟

ـــ إنني مثقفة بما فيه الكفاية ، حقاً .

ـــ في كل شيء ؟

ـــ يا للسماوات ! إنك بارع في تضخيم الكلمات ، أليس كذلك ؟ حسناً ، سأتذكر دائماً كيف تلفظت بهذه الكلمة .

ـــ هناك أشياء لا يمكن تعلمها إلا بالخبرة الشخصية . قال برقة وهو يمد يده ليرفع إحدى خصلاتها وراء أذنها :

ـــ حقاً ؟ كنت أظن أن الملاحظة تكفي .

ـــ « آه ، ولكن ماذا عن الحب ؟ » ووضع في كلمته عمقاً ناعماً . « كيف بامكانك أن تقومي بدور جولييت دون أن تعرفي ماالحب ؟ »

ـــ وجهة نظر معقولة ، وأنا أوافقك .

ـــ هل أحببت يوماً ؟

ـــ لا .
ـــ أتعلمين شيئاً عن الحب؟ وهذه المرة شدد على كلمة «شيء» أكثر من كلمة «حب».
ـــ لا شيء على الاطلاق .
ـــ آه ، إذن سيكون فرويد على حق ، إيه ؟.

فتناولت علبة التبغ ونظرت إلى غلافها الرقيق :
ـــ من بعض الجهات فقط .

وقبض بسرعة على غطاء العلبة الشفاف من أسفله وجذبه ، ثم أمسكه بيده ، وبحركة مسرحية ، سحقه ورماه في منفضة السغائر ، حيث أخذ يتلوى ويئز وهو ينفتح .
ـــ إني أود أن أعلمك ما معنى أن تكوني امرأة ، لو سمحت .

ولم تقل شيئاً لفترة ، وقد ركزت انتباهها على تقلصات الورقة الرقيقة في المنفضة ، ثم تناولت عود ثقاب ، فأشعلته وأحرقت الورقة .
ـــ «ولم لا ؟» ، سألت موجهة كلامها إلى الشعلة المتلاشية . «نعم ، لم لا ؟» .
ـــ «هل ترغبين في أن يكون شيئاً سماوياً في ضوء القمر ، وبين

الورود ، شيئاً عاطفياً ؟ أو أن يكون سريعاً وحاداً كالسهم ؟ » ، قال وكأنه يلقي عبارة على المسرح وقد وضع يده على قلبه .

وضحكت :

ــ الحقيقة يا آرثر ، إني أريده أن يكون طويلاً وحاداً ، ولكن بدون ضوء قمر ، ولا ورود ، أرجوك ، فأنا لست من النوع العاطفي .

ونظر إليها بشيء من الحزن ، وهز برأسه :

ــ آه يا جوستين ، إننا جميعاً عاطفيون ، حتى أنت ، أيتها الراهبة الباردة ، سوف ترين ذات يوم ، انتظري فقط . إنك سوف تذوبين شوقاً له .

ــ « أوه ! » ونهضت . « تعال يا آرثر ، دعنا نقوم بذلك وننتهي قبل أن أغير رأيي .

ــ اليوم ؟ الليلة ؟

ــ ولم لا بحق الشيطان ؟ إن معي ما يكفي من النقود لاستئجار غرفة في الفندق ، إذا لم يكن معك ما يكفي .

○

كانت جوستين أقرب إلى دين منها إلى أمها ، من أوجه عدة . وما كانا يشعران به نحو أمهما كان خاصاً بأمهما ، إذ لم

يكن ذلك يؤثر على ما يشعر به أحدهما للآخر ، ولا يتعارض معه . وكانت روابطهما قد ولدت في وقت مبكر ، وكبرت بدلاً من أن تصغر . وفي الوقت الذي تحررت به ميغي من واجباتها نحو دروغيدا ، كان الولدان قد كبرا كفاية للقيام بوظائفهما ، وحفظ دروسهما بالمراسلة ، على طاولة المطبخ ، قرب السيدة سميث . وقد كسبا من ذلك عادة ارتياح كل منهما للآخر ، هذه العادة التي ستدوم إلى الأبد .

وعلى الرغم من اختلاف طبعيهما ، فقد كان يتقاسمان أذواقاً ورغبات عديدة . أما الفوارق بينهما فقد كانا يتحملانها الواحد في الآخر باحترام وتقدير ، وكأنها ضرورية . وكانا يعرفان بعضهما بشكل جيد ، فعلاً . كان عندها ميل طبيعي لانتقاد الضعف البشري عند الآخرين ، وتجاهله في نفسها ، وكان هو يملك ميلاً طبيعياً للتفهم ومغفرة الضعف البشري عند الآخرين ، ولأن يكون قاسياً تجاه هذا الضعف في نفسه . كانت تشعر بنفسها قوية لا تغلب ، وكان يعرف نفسه ضعيفاً بشكل خطير .

وبطريقة ما ، امتزج كل هذا ليعطي صداقة شبه كاملة بينهما ؛ وباسم هذه الصداقة ، لم يكن للامعقول وجود . ومع ذلك ،

وبما أن جوستين كانت أكثر كلاماً بكثير من دين، فقد كان عليه أن يصغي أكثر بكثير لما تقوله له عن نفسها وعن مشاعرها، مما يحكيه لها هو. ومن جهة، كانت تبدو له غبية أخلاقياً نوعاً ما، بمعنى أنها لم تكن تحترم شيئاً. وقد فهم أن دوره هو أن يعطيها بعض الشعور الأخلاقي الذي كانت تفتقد إليه في داخلها. ولذا فقد قبل دوره كمستمع سلبي، بحنان وشفقة كانا سيغضبان جوستين جداً لو علمت بوجودهما. ولكنها لم تعلم بذلك أبداً. كانت تثقب له أذنيه بثرثرتها عن كل شيء وعن لا شيء، وذلك منذ طفولته.

ــ «احذر ما فعلت ليلة أمس؟»، سألته وهي تركز قبعتها القشية الكبيرة بعناية فوق رأسها كي تظلل وجهها وعنقها.

ــ «لقد قمت بتمثيل دورك الأول». قال دين.

ــ هراء! ألن أخبرك بذلك لكي تأتي وتراني؟ احذر ثانية.

ــ ربما تلقيت أخيراً لكمة من بوبي كانت تقصد بها بيلي.

ــ إنك بارد، مثل صدر زوجة أب.

وهز بكتفيه ضجراً:

ــ ليس عندي أية فكرة عما فعلته ليلة أمس.

كانا يجلسان على العشب تحت كاتدرائية القديسة ماري، المبنية على الطراز القوطي. كان دين قد اتصل هاتفياً بجوستين ليخبرها أنه سيأتي إلى الكاتدرائية لاحتفال خاص، ويسألها إذا كان باستطاعتها أن تقابله قليلاً في الحديقة العامة. وبالطبع كان ذلك باستطاعتها، وكانت تموت لهفة لتخبره بآخر ما فعلت.

كان على وشك أن ينهي سنته الدراسية الأخيرة في ريفرفيو، وكان دين رئيس المدرسة؛ رئيس فريق الكريكيت، وفريق الركبي، وكرة اليد، وكرة المضرب، والأول في صفه فوق كل شيء. وفي السابعة عشرة من عمره، كان طوله يبلغ المتر وخمسة وثمانين سنتمتراً، وصوته جهيراً، وقد نجا بأعجوبة من كل بلايا الشباب، مثل البثور، والارتباك، وتفاحة آدم المتهزهزة. ولأنه كان شديد الشقرة، فلم يكن قد بدأ بحلاقة ذقنه بشكل حقيقي؛ ولكنه من بقية الجوانب كان يبدو شاباً ناضجاً أكثر منه بطالب، ولم يكن إلا لباس المدرسة لينبىء عنه.

كان اليوم مشمساً، دافئاً. ورفع دين قبعة المدرسة القشية المستديرة، واستلقى على العشب، وجوستين تجلس منحنية بقربه، وقد عقدت ذراعيها حول ركبتيها لتتأكد من أن الشمس لن تبلغ

أي مكان عار من جسمها . وفتح إحدى عينيه الزرقاوين بكسل ، ونظر إليها :

ــ ماذا فعلت ليلة أمس يا جوس ؟

ــ لقد فقدت بكارتي . هذا ما أعتقد على الأقل .

وفتح عينيه الاثنتين :

ــ أنت مجنونة .

ــ لقد حان الوقت لذلك . كيف آمل أن أكون ممثلة جيدة دون أن أعرف شيئاً واحداً مما يجري بين الرجل والامرأة ؟

ــ كان عليك أن تحتفظي بنفسك للرجل الذي ستتزوجينه .

والتوت تقاطيع وجهها بسخط :

ــ بصراحة يا دين ، إنك تبدو أحياناً متخلفاً جداً ، وذلك يحرجني . أفرض أني لم أقابل الرجل الذي سأتزوجه حتى أصبح في الأربعين من عمري ! ماذا تتوقع أن أفعل ؟ أن أنتظر كل تلك السنين ؟ أهل هذا ما ستفعله أنت ، تحتفظ به للزواج ؟

ــ أنا لا أعتقد أني سأتزوج .

ــ حسناً ، ولا أنا . وفي هذه الحال ، لماذا أربط حوله شريطة زرقاء ، وأخبئه في جارور من جوارير الأمل الذي لا وجود له ؟ إني لا أريد أن أموت بفضولي .

وابتسم :

ـ لن يمكنك ذلك بعد الآن . واستدار مسلتقياً على معدته وقد أسند ذقنه إلى يده ، ونظر إليها بإمعان ، وقد رق وجهه وبدا قلقاً :

ـ هل تم الأمر كما يجب ؟ أقصد ، هل كان شنيعاً أو مقرفاً ؟

وارتعشت شفتاها وهي تتذكر :

ـ إني لم أشمئز على أية حال . ولم يكن شنيعاً . ولكنني من جهة ثانية لم أجد فيه تلك النشوة التي يتحدث عنها الجميع . لابأس به ، هذا فيما يتعلق بي . وأنا لم أختر أول من وقعت عليه ، لقد اخترته وسيماً ، ومتقدماً في العمر بحيث يملك الخبرة الكافية .

وتنهد :

ـ أنت حقاً مجنونة يا جوستين . كنت سأسعد أكثر لو قلت لي : «إنه ليس وسيماً ، ولكننا تعرفنا على بعضنا ، ولم أستطع أن أمنع نفسي» . إن بمقدوري أن أفهم أنه ليس باستطاعتك الانتظار حتى تتزوجي ، ولكن هذا شيء ترغبين القيام به بسبب الرجل الذي يقوم به ، وليس أبداً بسبب العمل نفسه يا جوس . ولا يدهشني أنك لم تحصلي على النشوة .

واختفى من وجهها كل أثر للانتصار الفرح :

ـــ آه ، عليك اللعنة . لقد جعلتني أشعر بنفسي شنيعة . لو لم أكن أعرفك ، لكنت ظننت أنك تريد إذلالي أو على الأقل الحط من دوافعي .

ـــ « ولكنك تعرفينني ، أليس كذلك ؟ لن أحط أبداً منك ، ولكن دوافعك غبية ، وبدون أي تفكير أحياناً » . وتحول صوته إلى صوت بارد رسمي : « أنا صوت ضميرك ، يا جوستين اونيل » .

ـــ « أنت أيضاً مجنون » ، ونسيت الشمس ، وارتمت في العشب على ظهرها بالقرب منه بشكل لا يستطيع به رؤية وجهها :

ـــ انظر ، أنت تعلم لماذا ، أليس كذلك ؟

ـــ « آه يا جوسي » ، قال بحزن . ولكنها لم تسمع ما كان يريد أن يقول ، مهما كان ذلك ، لأنها أخذت في الكلام ثانية ، بوحشية :

ـــ إني لن أحب أحداً في حياتي ، أبداً ، أبداً ، أبداً . فعندما تحب الناس ، يقتلونك . إنهم يقتلونك ، صدقني .

كان يؤلمه جداً أن يراها مقفلة أمام الحب ، ويؤلمه أكثر علمه أنه هو السبب . وإذا كان هناك تعليل واحداً لأهميتها بالنسبة له ،

فقد كان هو حبها العميق له، الذي لا يحاسب على شيء. وهو لم يشعر مطلقاً أن هذا الحب الذي تحمله له قد تناقض يوماً بفعل الغيرة أو الاستياء. أما من جهته، فقد كان يتألم عندما يراها تنتقل في مدار خارجي هو مركزه. وكان قد صلّى لكي تتغير الأمور، ولكنها لم تتغير. ولم يضعف هذا إيمانه، وإنما أراه بوضوح أكبر أن عليه ذات يوم، وفي مكان ما، أن يدفع ثمن المشاعر التي أُهرقت عليه، على حسابها هي. ومع ذلك فإنها كانت تبدو على ما يرام، وقد حاولت أن تقنع حتى ذاتها بأنها على ما يرام في مكانها ذلك، على المدار الخارجي، لكنه كان يحس بألمها. كان يعلم. كان بها أشياء كثيرة تستحق الحب، وبه هو القليل. ودون أمل في رؤية الأمور على ضوء مختلف، كان يعتبر أنه قد حظي بنصيب الأسد من الحب، بسبب جماله، وطبيعته الأكثر مرونة من طبيعتها، وقدرته على الانسجام مع أمه، ومع بقية سكان دروغيدا. ولأنه كان ذكراً. كان القليل القليل يفوته، إلّا ما لا يعلمه، وقد حاز على صداقة جوستين الحميمة ورفقتها بطريقة لم تكن في متناول أحد. وكانت جوستين تعلق على أمها أهمية أكبر بكثير مما كانت تصرح به.

ولكني سأكفر عن ذلك ــ فكر ــ. لقد حصلت على

كل شيء، وعلي أن أدفع الثمن بطريقة ما، علي أن أعوض جوستين عن حرمانها.

وفجأة، نظر إلى ساعته بطريق الصدفة، وقفز واقفاً بخفة. ورغم أنه كان يعترف بعظم دَينه تجاه أخته، فقد كان مديناً بأكثر «لأحد آخر».

ــ علي أن أذهب الآن يا جوسي.

ــ أنت وكنيستك الملعونة! متى ستكبر وتتخلص من هذه السخافات؟

ــ أرجو ألّا يحدث ذلك أبداً.

ــ هل سأراك فيما بعد؟

ــ حسناً، بما أن اليوم هو الجمعة، فسأراك غداً بالطبع. هنا، الساعة الحادية عشرة.

ــ جيد. كن عاقلاً.

كان قد ابتعد عدة أمتار، وقد أرجع قبعته المدرسية إلى رأسه، ولكنه استدار وابتسم لها:

ــ ألم أكن عاقلاً دائماً؟

فابتسمت:

ـــ بالطبع، نعم. أنت طيب بشكل غير معقول، وإنما المشكلة هي أنا دوماً. إلى اللقاء غداً.

كانت أبواب كاتدرائية القديسة ماري ضخمة منجدة بالجلد الأحمر من الداخل، ودفع دين أحد الأبواب، وانسل داخلاً. كان قد ترك جوستين أبكر مما كان ضرورياً، ولكنه كان دائماً يفضل أن يدخل إلى الكنيسة قبل أن تمتلىء وتصبح بؤرة للتنهدات والسعال، والحفيف والهمسات؛ وكان يشعر براحة أكثر عندما يكون وحيداً. كان هناك أحد خدم الكنيسة يشعل الشموع على المذبح الكبير، شماس حسب رأيه. وطوى ركبتيه وهو يحني رأسه، ورسم إشارة الصليب بينما كان يمر أمام بيت القربان، ثم تسلل بهدوء إلى أحد المقاعد.

وركع ثم وضع رأسه بين يديه المضمومتين، وترك أفكاره تسرح بحرية. لم يكن يصلّي بتعمد، وإنما وجد نفسه وقد أصبح جزءاً لا يتجزأ من الجو، وقد شعر به ثقيلاً وفي الوقت نفسه أثيرياً، مقدساً بشكل لا يوصف، يدعو إلى التأمل. كان وكأنه قد تحول إلى شعلة مثل تلك الشعلات تحت زجاج مصابيح المحراب، الشعلات الحمراء الصغيرة، المرتعشة دائماً وكأنها على

وشك الانطفاء، ولا يمسكها عنه إلا قطرات من المادة الحيوية، تشع بنور ضئيل وإنما مستديم في أعماق الظلمة.

كان بلا حراك، يشعر بأنه فقد غلافه الخارجي، ونسي وجوده البشري؛ هذا ما كان يحدث لدين عند وجوده في الكنيسة، ولم يكن يحس في أي مكان آخر بهذا الارتياح، وبهذا السلام مع نفسه، والبعد عن الألم. وانحدرت رموشه، وأغمض عينيه.

ومن الرواق حيث يوجد الأرغن، سمع صوت أقدام متثاقلة، ونفحة استعداد، كنوع من الزفير تطلقه أنابيب الأرغن. كان أطفال جوقة كاتدرائية القديسة ماري قد أتوا باكراً للتمرن قليلاً قبل بدء الطقوس. لم يكن الطقس إلا بركة يوم الجمعة، ولكن أحد أساتذة دين من ريفرفيو، وهو أيضاً صديقه، كان يقيم القداس، وقد رغب دين في المجيء. وصدرت عن الأرغن بضعة إيقاعات، تحولت إلى موسيقى لؤلؤية ترافق الغناء؛ ووسط قباب الدانتيل الحجري المغمورة بالظلمة، ارتفع صوت صبياني سماوي، رقيقاً، عالياً، ملائكياً، مليئاً بالطهر البريء، حتى أن الأشخاص القلة الذين كانوا في الكنيسة الضخمة أغمضوا عيونهم يبكون شبابهم الضائع:

«يا خبز الملائكة، أيها الخبز السماوي، أيها الشيء العجيب. من الأعماق صرخت إليك يا رب، يا رب استمع صوتي! اصغ أذنيك إلى أصوات دعائي، لا تقص ببصرك عني يا رب، لا تقص ببصرك. لأنك أنت مليكي وسيدي، وربي. وأنا خادمك الوضيع. في عينيك شيء واحد ذو أهمية: الطيبة. فأنت لا يهمك إذا كان عبدك قبيحاً أو حسن الصورة. القلب هو الذي يهمك فقط، فبك الشفاء، وبك أعرف السلام».

أيها الرب أنا في وحدة. أتضرع إليك كي ينتهي قريباً ألم حياتي. إنهم لا يفهمون أني أجد كل هذا الألم في الحياة، أنا الموهوب. ولكنك أنت تعلم، وأنت عزائي الوحيد. لا يهم ما تتطلبه مني، أيها الرب، فأنا أنطوي أمام إرادتك، لأني أحبك. وإن تجرأت على أن أطلب منك خدمة فهي أن أنسى بك كل شيء آخر إلى الأبد.

○

ــ «أنت شديدة الهدوء يا أماه»، قال دين: «بماذا تفكرين؟ بدروغيدا؟»

ـــ « كلا » ، قالت ميغي بصوت خامل . « إني أفكر بأنني أزحف نحو الشيخوخة ، فلقد وجدت في شعري دزينة من الشعر الأبيض ، كما أن مفاصلي تؤلمني » .

ـــ إنك لن تشيخي أبداً يا أماه . قال دين بهدوء .

ـــ أتمنى لو كان ذلك صحيحاً يا حبيبي ، ولكن الأمر لن يكون كذلك ، لسوء الحظ . لقد أصبحت بحاجة لمياه « رأس البئر » المعدنية ، وهذه علامة الشيخوخة الأكيدة .

كانا يستلقيان في أشعة الشمس الدافئة على فوط نشراها فوق عشب دروغيدا ، بقرب « رأس البئر » . وفي الجهة الأخرى من البحيرة الكبيرة ، كان الماء الغالي يرغي ويزبد ، وأبخرة الكبريت تهب متطايرة قبل أن تختفي في العدم . كانت السباحة في مياه « رأس البئر » إحدى أكبر لذات الشتاء ، وكانت كل أوجاع وآلام الشيخوخة تهدأ قليلاً ـــ فكرت ميغي ـــ واستدارت لتستلقي على ظهرها وقد وضعت رأسها في ظل الجذع الذي جلست عليه ذات يوم بعيد جداً مع الأب رالف ، منذ زمن بعيد جداً ؛ ولم يكن باستطاعتها أن تعيد إلى مخيلتها حتى مجرد صدى خفيف لما شعرت به عندما قبلها رالف .

ثم سمعت دين ينهض، وفتحت عينيها. كان دائماً طفلها، صبيها الصغير الجميل؛ إنها رأته يتغير وينمو بفخر المالك، فقد احتفظت دائماً، وفوق كل شيء بصورة الطفل الضاحك على وجهه الناضج. ولم تكن قد فهمت حقيقة أنه لم يعد طفلاً ولا بأي شكل من الأشكال.

ومع ذلك، فقد فهمت ميغي الواقع في تلك اللحظة وهي تنظر إليه واقفاً وقد ارتسم على صفحة السماء الصافية في ثوب السباحة القطني.

يا الهي! لقد انتهى كل شيء! الطفولة والصبا. إنه رجل. وشعرت بالاعتزاز، والسخط، وبحنان أنثوي أمام كارثة قريبة الوقوع، وقد أحست بها بقوة ورعب. الغضب، والحب، والحزن؛ كل هذا وأكثر، شعرت به ميغي وهي تنظر إلى ابنها. من المروّع أن تخلق رجلاً، والأهول هو أن تخلق رجلاً مثل هذا، شديد الرجولة، وبهذه الوسامة.

إنه رالف دو بريكاسار، بالإضافة إلى شيء قليل منها. وكيف لا تتأثر وهي ترى في عنفوان شبابه جسد الرجل الذي اتحد معها في الحب؟ وأغمضت عينيها، محرجة، وهي تمقت أن

تفكر بابنها كرجل. هل يرى المرأة عندما ينظر إليها في هذه الأيام، أم أنها لا تزال ذلك اللغز الرائع بالنسبة له؟ ماما؟ لعنه الله، لعنه الله كيف تجرأ وكبر.

ـ هل تعلم شيئاً عن النساء يا دين؟

سألته فجأة وهي تفتح عينيها من جديد.

فابتسم وقال:

ـ تقصدين العصافير والنحل؟

ـ لا شك أنك تعلم هذا، بفضل أخت كأختك. فعندما اكتشفت ما يوجد بين طيات كتاب «علم الأحياء»، لم تتردد في إذاعته على الجميع بكامله. كلا، وإنما أقصد هل اختبرت شيئاً من محاضرات جوستين الطبية بطريقة عملية؟

وهز رأسه نفياً، وانزلق بقربها فوق العشب، ونظر إلى وجهها:

ـ غريب أن تطرحي علي هذا السؤال يا أماه. كنت أريد أن أحدثك بهذا الشأن منذ زمن بعيد، ولكنني لم أكن أعلم كيف أبدأ.

ـ ما زلت في الثامنة عشرة يا حبيبي، ألا تظن أن الوقت لا يزال

مبكراً لتطبيق النظريات؟ ثمانية عشر عاماً فقط. فقط. لقد أصبح رجلاً!

ـــ هذا هو ما أردت الحديث بشأنه يا أماه، وليس عن التطبيق، مطلقاً.

كان الهواء يهب شديد البرودة. غريب أنها لم تلاحظ ذلك قبل هذه اللحظة. أين كان ثوبها؟

وقالت بخمود، ولم تكن كلماتها سؤالاً:

ـــ ليس عن التطبيق مطلقاً؟

ـــ صح. فأنا لا أرغب بذلك، أبداً. ولا يعني هذا أني لم أفكر بالأمر، أو لم أرغب بزوجة وأولاد. لقد فكرت، ولكني لا أستطيع. لأنه لا متسع في قلبي لكي أحبهم وأحب الله في الوقت نفسه. وليست هي الطريقة التي أريدها لحب الله. لقد كنت أعرف هذا منذ مدة طويلة، ولا أذكر وقتاً كنت أجهله. وكلما كبرت، كلما كبر حبي لله. إن حب الله سر عظيم.

كانت ميغي مستلقية تنظر في العينين الزرقاوين البعيدتين، عيني رالف، كما كانتا، ولكنهما مشتعلتان بشيء لم تعرفه عينا رالف. هل اشتعل رالف بهذه النار في الثامنة عشرة هو أيضاً؟

أكان شيئاً يشعر به الانسان في الثامنة عشرة فقط ؟ فعندما دخلت هي إلى حياة رالف ، كان أكبر من ذلك بعشر سنوات . ولكن ابنها كان متصوفاً ، ولقد فهمت ذلك دائماً . وهي لم تكن تعتقد أن رالف كان ميالاً إلى التصوف في أية مرحلة من عمره .

وابتلعت لعابها بصعوبة ، وجمعت أطراف ثوبها تشدها حول عظامها البائسة .

وتابع دين :

ــ « وهكذا سألت نفسي ماذا بإمكاني أن أفعل لأبرهن « له » عن حبي ، وحاربت الجواب وقتاً طويلاً ، فلم أكن أريد أن أراه . لأني كنت أريد أن أحيا كرجل ، أنا أيضاً ، كنت أرغب في ذلك جداً . ولكني كنت أعلم ما يريده الله مني ، كنت أعلم .. هناك شيء واحد أستطيع أن أقدمه له ، لأريه أن لا شيء آخر يعيش في قلبي غيره ، قبله . فعلي أن أقدم له غريمه الوحيد ، هذه هي التضحية التي يطلبها مني . أنا خادمه ، ولن يكون له غريم في قلبي . لقد كان علي أن أختار . أنه يدعني أتمتع بكل شيء ، إلا هذا » . وتنهد ، وهو ينتزع عشبة من أعشاب دروغيدا .

« علي أن أبرهن له أني أفهم لماذا منحني كل هذا عند ولادتي. علي أن أبرهن له أنني أفهم أن حياتي كرجل لا أهمية لها ».

ـ لن تستطيع أن تفعل هذا، لن أدعك تفعله! . صرخت ميغي ويدها تمتد إلى ذراعه، وتقبض عليها. كم كان جلده ناعماً، وهذا الاحساس بقوة هائلة تحت الجلد، مثل رالف بالضبط. مثل رالف! لن تضع فتاة جميلة يدها أبداً على هذا الجلد، كحق من حقوقها؟

ـ « سأصبح كاهناً »، قال دين: « سأدخل في خدمته تماماً، وأبذل كل شيء أملكه، سأكون كذلك له، كاهنه. الفقر، والعفة، والطاعة. إنه يتطلب كل شيء من عبيده، لا أقل. لن يكون ذلك بالسهل، ولكني سأفعله ».

هذه النظرة في عينيها! ولكأنه قد قتلها، وسحقها في التراب تحت قدمه. لم يكن يعلم أنه سيتألم من هذا، وكان يفكر فقط بفخرها به، وبلذتها إذ تقدم ابنها لله. لقد قالوا له أنها ستطير من الفرح والتأثر، ولن تعارضه أبداً. وعوضاً عن ذلك كانت تنظر إليه وكأن فكرة دخوله الكهنوت كانت بمثابة الحكم بإعدامها.

ـ «آه يا أمي ألا تستطيعين أن تفهمي؟ لم أكن أرغب أبداً، أبداً في أن أكون إلا كاهناً! لا أستطيع أن أكون شيئاً آخر غير كاهن».

وسقطت يدها عن ذراعه، فنظر إليها، ورأى العلامات البيضاء التي تركتها أصابعها هناك، والأقواس الصغيرة في جلده، حيث انغرزت أظفارها بعمق. ورفعت رأسها وأخذت تضحك، وتضحك، وتضحك. ضحكات هستيرية، هائلة، مرّة، مليئة بالسخرية:

ـ «آه، لا يعقل أن يكون هذا صحيحاً»، قالت وهي تلهث عندما استطاعت الكلام ثانية، وهي تمسح الدموع من زاويتي عينيها بيدها المرتعشة. «يا للسخرية اللا معقولة. رماد الورد. لقد قالها تلك الليلة وهو يتجه على فرسه نحو رأس البئر، ولم أفهم ما الذي كان يعنيه. أنت رماد وإلى الرماد تعود. أنت مُلك الكنيسة، وإلى الكنيسة سوف تعطى. آه، رائع، رائع! عدو النساء الوحيد. هذا هو الله! إنه يحطم كل ما نبني».

ـ كلا يا أماه، كلا، كلا!

وبدأ يبكي من أجلها، من أجل ألمها، وهو لا يفهم ألمها،

ولا الكلمات التي كانت تلفظها. وتساقطت دموعه، وقد التوى قلبه؛ لقد بدأت التضحية منذ الآن، وبطريقة لم يحلم بها. ولكنه، ومع أنه كان يبكي من أجلها، لن يستطيع أن يتخلى عنه لأجلها، لن يستطيع أن يتخلى عن التضحية. فالتقدمة يجب أن تتم، وكلما كانت قاسية، كلما لقيت قبولاً في «عينيه».

لقد أبكته، وهي لم تفعل ذلك في حياتها قبل الآن. وبحزم، سيطرت على غضبها الهائل، وعلى حزنها. كلا، لم يكن من العدل أن تلقي على أكتافه عبء عقابها هي. فالبذور التي ورثها في دمه هي التي جعلته ما هو عليه. أو لعلّه ربه، أو رب رالف. لقد كان نور حياتها، ابنها، ولا يجب أن يتألم بسببها. أبداً.

ـ «دين، لا تبكِ»، همست له وهي تمسح العلامات التي تركتها أظافرها الغاضبة في ذراعه. «إني آسفة، لم أكن أقصد ذلك. لقد صدمتني، هذا كل شيء. إني بالطبع سعيدة من أجلك، حقيقة! وكيف لا أكون سعيدة؟ ولكنني صدمت، فلم أكن أتوقع ذلك، هذا كل ما في الأمر»، وضحكت، وكانت ضحكتها ترتعش قليلاً. «لقد رميت الخبر على رأسي مثل الصخرة».

وعاد الصفاء إلى عينيه، ونظر إليها بتشكك. لماذا تصور أنه قد قتلها؟ هاتان هما عينا أمه كما عرفها دائماً، مليئتان بالحب، مليئتان بالحياة. وضمها بذراعيه القويتين الشابتين بشدة، وهدهدها:

ـــ هل أنت أكيدة بأن هذا لا يؤلمك؟

ـــ «يؤلمني؟ إن أماً كاثوليكية صالحة لا تتألم إذا أصبح ابنها كاهناً، مستحيل!» وقفزت واقفة: «حوح، إن البرد قد أصبح شديداً، هيا بنا إلى البيت».

لم يكونا قد أخذا الحصانين، وإنما سيارة الجيب؛ وصعد دين وراء المقود، وجلست أمه بقربه.

ـــ هل تعلم إلى أين ستذهب؟

سألته ميغي وهي تسحب نفساً باكياً، وتدفع الشعر المتساقط على عينيها.

ـــ إلى معهد القديس باتريك على ما أعتقد. على الأقل حتى أحزم أمري. ربما دخلت بعد ذلك إلى إحدى الرهبنات، وأنا أفضل اليسوعيين، ولكني لست شديد التأكد من هذا، لذلك فلن أذهب مباشرة إلى أخوية يسوع.

وثبتت ميغي بصرها على العشب الذي كان يرتفع ويهبط أمام زجاج السيارة المرصع بالحشرات .

ــ عندي فكرة أفضل من هذا بكثير .

ــ آه؟ كان عليه أن يركز انتباهه على قيادة السيارة ، فقد كانت الطريق ضيقة نوعاً ما ، وكان هناك بعض الجذوع المرمية في عرضها .

ــ سأرسلك إلى روما ، إلى الكاردينال دو بريكاسار . أنت تذكره ، أليس كذلك؟

ــ هل أذكره؟ يا للسؤال يا أماه! لا أظن أن باستطاعتي أن أنساه ما حييت ، ولو عشت مليون سنة . إنه مثال الكاهن الكامل بالنسبة لي . ولو كان بإمكاني أن أكون مثله فسأكون في غاية السعادة .

ــ « الكمال يأتي من الكمال » ، قالت ميغي بجفاف : « ولكنني سأضعك تحت حمايته ، لأني أعلم أنه سيعتني بك من أجلي . باستطاعتك أن تدخل معهداً لاهوتياً في روما » .

ــ « هل تعنين ذلك حقاً يا أماه؟ حقاً؟ » ودفع القلق الفرح بعيداً عن أساريره .

«هل هنالك ما يكفي من المال لذلك؟ إن ذلك سيكلفك أقل بكثير إذا بقيت في استراليا».

ـــ إن النقود لن تنقصك أبداً، بفضل هذا الكاردينال دو بريكاسار نفسه.

وعلى باب المطبخ، دفعته إلى الداخل:

ـــ اذهب وأخبر البنات والسيدة سميث، أنهن سيكن في غاية الفرح.

وأجبرت نفسها على وضع قدم أمام الأخرى، ومشت بتثاقل نحو المنزل الكبير، ودخلت إلى غرفة الاستقبال حيث كانت «في» تجلس، وياللأعجوبة، بدون عمل! وهي تتحدث عوضاً عن ذلك مع آن مولر، وأمامهما صينية الشاي. وعندما دخلت ميغي نظرت إليها المرأتان، ورأتا في عينيها أن شيئاً خطيراً قد حدث.

كان آل مولر يزورون دروغيدا بشكل منتظم منذ ثمانية عشر عاماً، ولكن لودي توفي فجأة في الخريف الماضي، فكتبت ميغي مباشرة لآن تسألها إذا كانت تحب أن تأتي لتعيش معهم في دروغيدا؛ فقد كان المكان فسيحاً، وكان هناك أكواخ للضيوف الذين يحبون الانعزال، وباستطاعتها أن تدفع أجرة إذا كانت عزة

نفسها تمنعها من قبول الضيافة ، على الرغم من أنه كان هناك من المال ما يكفي لتحمل ألف ضيف دائم . ولقد رأت ميغي في ذلك فرصة لرد الجميل الذي قدموه لها خلال السنوات التي قضتها وحيدة في كوينزلاند ، كما رأت به آن خلاصها ، فقد كان منزل هيملهوتش كئيباً جداً بدون لودي .

وهكذا فقد وضعت قيّماً على الملكية ، ولم تبعها ؛ وسوف ترثها جوستين بعد موت آن .

ــ ماذا جرى يا ميغي ؟

وجلست ميغي وهي تقول :

ــ أعتقد أن صاعقة العدالة قد هوت على رأسي .

ــ ماذا ؟

ــ لقد كنتما على حق ، أنتما الاثنتين . لقد قلتما أني سأفقده ، ولم أصدقكما ، وكنت في الواقع أظن أن بامكاني أن أهزم الله . ولكن لم تخلق المرأة التي تستطيع هزم الله . فالله رجل .

وصبت « في » فنجاناً من الشاي لميغي :

ــ خذي ، اشربي . قالت كما لو كان الشاي يملك قوة البراندي .

ــ وكيف فقدته ؟

ــ إنه سيصبح كاهناً .

وأخذت تضحك وتنتحب بآن واحد .

وتناولت آن عكازتيها ، وعرجت نحو كرسي ميغي ، وجلست بدون توازن على ذراعه ، وهي تمسح الشعر الذهبي الجميل :

ــ آه يا عزيزتي ، ولكن الأمر ليس بهذا السوء .

ــ هل تعلمين بقصة دين؟ سألتها « في » .

ــ لقد كنت أعلم منذ البدء .

وهدأت ميغي :

ــ ليس الأمر بهذا السوء؟ إنها بداية النهاية ، ألا تفهمين ؟ الثمن . لقد سرقت رالف من الله ، وها أنا أدفع ابنه ثمناً لذلك . لقد قلت لي أن ذلك سرقة يا أماه ، ألا تذكرين ؟ لم أرد أن أصدقك ، ولكنك كنت على حق ، كالعادة .

وسألت « في » بواقعيتها المعتادة :

ــ هل سيذهب إلى معهد القديس باتريك ؟

وضحكت ميغي بطريقة أكثر طبيعية :

ـــ «إن هذا لا يفي بالثمن يا أماه. سوف أرسله إلى رالف بالطبع، فنصفه من رالف، دعي رالف يتمتع به أخيراً»، وهزت كتفيها «إنه أكثر أهمية من رالف، وأنا أعلم أنه يرغب في الذهاب إلى روما».

ـــ هل أخبرت رالف بحقيقة دين؟ سألتها آن: إذ لم تناقش الأمر معها من قبل.

ـــ كلا، ولن أفعل ذلك أبداً. أبداً.

ـــ إنهما شديدا التشابه، ولا بد أن يفطن لذلك.

ـــ من؟ رالف؟ إنه لن يحزر أبداً. سأحتفظ بهذا السر لنفسي. سأرسل له «ابني» وليس أكثر من ذلك. إني لا أرسل له «ابنه».

ـــ «اتقي غيرة الآلهة يا ميغي»، قالت آن برقة: «ربما لم تنته بعد منك».

ـــ ما الذي تستطيع أن تفعله بي أكثر من ذلك؟ قالت ميغي وهي تئن.

وعندما سمعت جوستين بالخبر، شعرت بغضب هائل رغم أنها كانت تشك بحدوث هذا خلال السنوات الثلاث أو الأربع

الأخيرة. فلقد وقع ذلك على ميغي وقوع الصاعقة، أما على جوستين فقد كان مثل تيار من الماء المالح المثلج، وكانت تتوقعه. والسبب الأول لذلك هو أن جوستين كانت قد قضت معه أيام الدراسة في سيدني، ولأنها كانت صديقته الحميمة، فقد كانت تصغي إليه وهو يتحدث عن أشياء لا يحكيها لأمه. كانت جوستين تعلم أهمية الدين الحيوية بالنسبة لأخيها؛ ليس فقط الله، وإنما معنى الطقوس الكاثوليكية الصوفي. ولو كان قد وِلد وربي تربية بروتستنتية، فكرت جوستين، لاستدار نحو الكاثوليكية، إرضاء لنزعة خاصة في روحه. فدين لا يحتمل إلهاً صارماً بروتستنتياً، بل كان بحاجة لإله مرسوم بالزجاج الملون، غارق في البخور، مغلف بالدانتيل والتطريز الذهبي، يُمَجَّد بالموسيقى المعقدة، ويُعبَد من خلال الأوزان اللاتينية الجميلة.

ومن جهة أخرى، كانت جوستين تجد نوعاً من السخرية الحمقاء في أن يعتبر إنسان كل ذلك الجمال الذي حباه الله له عاهة، وأن يشكو منه؛ وهذا ما كان يفعله دين. كان ينطوي على نفسه أمام كل تلميح عن جمال شكله، وكانت جوستين أكيدة من أنه كان يفضل أن يكون قبيحاً، خالياً من كل جاذبية. كانت

تفهم جزئياً احساسه هذا، وربما لأن نجاحها في مهنتها كان يعتمد على قسط وفير من النرجسية، فقد كانت تستحسن موقف أخيها تجاه هيئة الخارجية. ولكنها لم تكن قد بدأت تفهم بعد لماذا يكره شكله بهذا الشكل بدلاً من تجاهله ببساطة.

أما الغريزة الجنسية فلم تكن نقطة القوة عنده، لماذا؟ لم تكن تدري. ربما لأنه قد علّم نفسه تهذيب رغباته بشكل كامل، وربما لأنه، رغم جاذبيته الجسدية، كان ينقصه بعض الدوافع الفكرية الضرورية. والأرجح أن يكون السبب الأول، بما أنه كان يمارس نوعاً من الرياضة البدنية العنيفة كل يوم من أيام حياته كي يكون أكيداً من أنه سيذهب للنوم مرهقاً تماماً. كانت تعلم حق العلم أن ميوله كانت «طبيعية»، وكانت تعلم أي نوع من الفتيات يجذبه: الطويلات منهن، والسمراوات الشهوانيات. ولكنه لم يكن متيقظاً حسياً، فلم يكن ينتبه إلى سحر الأشياء اللمسي عندما يمسك بها، أو إلى الروائح في الجو حوله، أو يفهم الارتياح الخاص الذي تخلقه الأشكال والألوان. ولكي يعرف الجاذب الجنسي، كان من الضروري أن يكون وقع الشيء المثير لا يقاوم، وعندها فقط، في مثل هذه الحالات النادرة، كان يبدو وكأنه يكتشف وجود مجال أرضي يمشي عليه أغلب البشر ما دام ذلك بمقدورهم.

جاء إلى كواليس المسرح بعد أحد العروض، يخبرها عن عزمه. كانت الأمور قد رتبت مع روما في ذلك اليوم، وكان يموت شوقاً ليخبرها. ومع ذلك فقد كان يعلم أنها لن تحب ذلك. كانت طموحاته الدينية شيئاً لم يناقشه معها أبداً، رغم رغبته بذلك، لأنها كانت تغضب حالاً. ولكنه عندما أتى إلى المسرح في ذلك المساء، كان من الصعب عليه أن يخفي فرحه مدة أطول.

ــ أنت أحمق. قالت باشمئزاز.

ــ هذا ما أريد.

ــ غبي.

ــ إن نعتي بهذه الصفات لن يغير من الأمر شيئاً.

ــ أتعتقد أني لا أعلم ذلك؟ ولكن هذا أفضل ما عندي لأخفف عن قلبي ما أشعر به. هذا كل شيء.

ــ ظننت أنك قد خففت عن نفسك ما فيه الكفاية وأنت على المسرح تقومين بدور «اليكترا». أنت حقاً جيدة في هذا الدور يا جوس.

ــ «ذلك أفضل لي بعد ما سمعته منك». قالت بلهجة حادة: «هل ستذهب إلى معهد القديس باتريك؟».

ــ كلا ، إني ذاهب إلى روما ، إلى الكاردينال دو بريكاسار ، لقد رتبت أمي الأمور .

ــ كلا يا دين ، إن روما بعيدة جداً .

ــ حسناً ، لماذا لا تأتين أنت أيضاً ، على الأقل إلى انجلترا؟ فبموهبتك وخبرتك لا بد من أن تجدي عملاً في مكان ما ، بلا صعوبة تذكر .

كانت تجلس أمام المرآة وتمسح عن وجهها المساحيق التي وضعتها للقيام بدور «اليكترا» ، وكانت لا تزال ترتدي ثوب اليكترا ؛ وكانت عيناها الغريبتان تبدوان أكثر غرابة وقد أحاطتهما بحلقات سوداء ملتوية . وهزت برأسها ببطء وهي تقول ، وعلامات التفكير على وجهها :

ــ نعم ، بإمكاني ذلك ، لقد حان الوقت لذلك ... إن استراليا قد أصبحت صغيرة نوعاً ما ... حسناً يا رفيق ! اتفقنا ، إلى انجلترا إذن .

ــ رائع ! هل تتصورين الأمر ! سيكون عندي إجازات في المعهد اللاهوتي ، مثل الجامعة . ونستطيع أن نخطط لكي نقضيها سوية

ونتجول قليلاً في أوروبا، أو نعود إلى دروغيدا. آه يا جوس، لقد فكرت بكل هذا! سيكون رائعاً أن تكوني قريبة مني.

وابتسمت ابتسامة عريضة:

ـ رائع، أليس كذلك؟ لن تكون الحياة هي نفسها إذا لم أستطع الكلام معك وإليك.

ـ «كنت أخشى أن تقولي هذا». وابتسم: «ولكن، إنك تقلقيني يا جوس، بجد. وأنا أفضل أن تكوني في مكان أستطيع فيه رؤيتك من وقت لآخر. وإلّا فمن سيكون صوت ضميرك؟»

وانزلق إلى الأرض بين خوذة يونانية ضخمة، وقناع مرعب، وجلس بحيث يستطيع أن يراها، وقد تكور على نفسه حتى لا يزعج الممثلين الآخرين. لم يكن هناك إلّا مقصورتي ملابس للممثلات النجوم في كلّودن، ولم يكن يحق لجوستين بعد استعمال احداهما، فكانت تستعمل المقصورة المشتركة، وسط الرواح والمجيء اللذين لا ينقطعان.

ـ هذا الكاردينال اللعين دو بريكاسار. لقد كرهته منذ وقعت عليه عيناي.

وضحك دين :

ــ إنك لا تكرهينه .

ــ بل أكرهه . إني أكرهه .

ــ كلا ، إنك لا تكرهينه . إن الخالة آن قد أخبرتني أشياء كثيرة في إحدى عطل عيد الميلاد ، وأنا أراهن على أنك لا تعرفينها .

ــ ما الذي لا أعرف ؟ سألته بقلق .

ــ لقد أطعمك زجاجة الحليب عندما كنت طفلة ، ثم ربت لك على ظهرك حتى تتجشأي ، وهزّ لك إلى أن أغفيت . وقد قالت الخالة آن أنك كنت طفلة بغيضة ، وتكرهين أن يحملك أحد ، ولكنه عندما حملك أحببت ذلك فعلاً .

ــ إنها كذبة .

ــ « كلا ، إنها ليست كذبة » ، وابتسم : « على كل حال ، لماذا تكرهينه هكذا حالياً ؟ » .

ــ إني أكرهه وكفى . إنه يشبه صقراً عجوزاً أعجف ، وعندما أراه أشعر بالرغبة في التقيؤ .

ــ أما أنا فأحبه . لقد أحببته دائماً . الكاهن الكامل ، هكذا يدعوه الأب واتي . وأنا أعتقد أنه كذلك .

ــ حسناً . ليذهب إلى الشيطان .

ـــ جوستين !

ـــ لقد صدمتك هذه المرة، أليس كذلك؟ أراهن أنك لم تفكر حتى أني أعرف هذه الكلمات.

وتوقف بقربه زوج من السيقان الرائعة، واستدار. فنظر دين إلى فوق، واحمر وجهه، ونظر بعيداً ثم قال بصوت لا مبالٍ:

ـــ آه، مرحباً يا مارتا.

ـــ مرحباً لك أنت.

كانت الفتاة رائعة الجمال، ضعيفة الموهبة كممثلة، وإنما كانت تدخل كزينة في أي إنتاج؛ وصدف أنها كانت من النوع الذي يجذب انتباه دين، وقد استمعت جوستين للملاحظات الإعجاب التي رماها عنها في أكثر من مناسبة. طويلة القامة، مثيرة، حسب قول مجلات السينما، سوداء الشعر والعينين، شقراء البشرة، وذات صدر رائع.

وجلست على زاوية من طاولة جوستين، ورمت باحدى ساقيها بتحدٍ تحت أنف دين، ونظرت إليه بإعجاب صريح أحرجه بوضوح. يا إلهي، لقد كان فعلاً وسيماً. أين وجدت جوستين العادية جداً أخاً بمثل هذا الجمال؟ لا بد أنه في الثامنة عشرة فقط، وسيعتبر عملها تغريراً بقاصر، ولكن ما الهمّ؟

ــ «ما رأيكما بالمجيء معي إلى شقتي لتناول فنجاناً من القهوة أو أي شيء آخر؟».

سألت وهي تنظر إلى دين. «أنتما الاثنان»، أضافت بامتعاض.

وهزت جوستين رأسها بالنفي. ومرت برأسها فكرة مفاجئة أضاءت عينيها:
ــ كلا، شكراً، لا أستطيع. عليك أن تكتفي بدين.

وهز رأسه هو الآخر، بالنفي أيضاً، وإنما بشيء من الأسف، كما لو كان ذلك يغريه فعلاً:
ــ شكراً على كل حال يا مارتا، ولكنني لا أستطيع.

ونظر إلى ساعته كمن ينظر إلى منقذه:

ــ يا إلهي، لم يبق عندي إلا دقيقة لكي أخرج السيارة من المرآب! كم من الوقت ستمكثين أيضاً يا جوس؟.
ــ حوالي عشر دقائق.
ــ سأنتظرك في الخارج.
ــ جبان. قالت ساخرة.

ولحقته عينا مارتا الداكنتان :

ــ إنه فعلاً جميل . لماذا لا ينظر إلي ؟

وابتسمت جوستين بلؤم ، ومسحت وجهها مرة أخيرة . كان النمش قد بدأ يعود . ربما شفتها لندن ، حيث لا شمس هناك :

ــ آه ، لا تقلقي ، إنه ينظر . وذلك يعجبه على أية حال ، ولكن هل يستسلم ؟ كلا ، ليس دين .

ــ لماذا ؟ ما هي مشكلته ؟ لم تخبريني أبداً أنه شاذ . اللعنة ، لماذا ينبغي أن يكون كل شاب جميل أقابله شاذاً ؟ لم أفكر أبداً أن دين كان كذلك ، وهو لم يلفت انتباهي بتلك الطريقة مطلقاً .

ــ انتبهي إلى كلامك أيتها الغبية الحمقاء ! إنه بالتأكيد ليس شاذاً . وفي الواقع ، ففي اليوم الذي يتجرأ به وينظر إلى صاحبنا « ويليام الناعم » ، ذي الصوت المخنث ، فسأقطع رقبته ورقبة « ويليام الناعم » أيضاً .

ــ حسناً ، إن لم يكن شاذاً ، ويحب ذلك ، فلماذا لا يأخذ ما يُقَدَّم له ؟ ألم يفهم قصدي ؟ أيعتبرني عجوزاً بالنسبة له ؟

ــ عزيزتي ، لو بلغت مئة عام من العمر فلن تبدي عجوزاً لأي

رجل، لا تقلقي بهذا الشأن. كلا، إن دين قد أقسم ألّا يقرب الجنس طيلة الحياة، المجنون. إنه سيدخل الكهنوت.

وفغرت مارتا فمها المغري، ودفعت شعرها الأسود إلى الوراء:

ــ غير معقول!

ــ حقيقي، حقيقي.

ــ تقصدين أن كل هذا سيذهب هباء؟

ــ أخشى أن يكون الأمر كذلك. إنه يقدمه لله.

ــ إذن فالله أكثر شذوذاً من «ويليام الناعم».

ــ «ربما كنت على حق»، أجابت جوستين: «إنه بالتأكيد لا يحب النساء كثيراً، على كل حال. فنحن من الدرجة الثانية، في أسفل الطبقة السفلى، لأن المقاعد الأمامية والشرفة محجوزة للرجال فقط».

ــ آه.

وخلعت جوستين ثوب اليكترا، ورمت فوق رأسها ثوباً من القطن الرقيق، ثم تذكرت أن الجو كان بارداً في الخارج، فأضافت سترة إلى ثوبها وربتت بلطف رأس مارتا:

ـــ لا تقلقي بهذا الشأن يا حلوة. إن الله كان كريماً معك فلم يعطك أي دماغ. صدقيني، إن ذلك أريح بكثير. فأنت لن تكوني غريمة أبداً لرب المخلوقات.

ـــ لست أدري، ولكني لن أتردد في تحدّيه من أجل أخيك.

ـــ انسي الموضوع، فأنت تقاتـــلين «المؤسسة»، وذلك غير ممكن. بإمكانك إغراء «ويليام الناعم» بسرعة أكثر، أقسم لك.

○

وصلت سيارة من الفاتيكان إلى المطار لاستقبال دين، ثم سارت به بسرعة عبر الشوارع المشمسة المكتظة بأناس جميلي الصورة، باسمي الوجوه؛ وألصق أنفه إلى النافذة يعب من المنظر، شديد التأثر لرؤية ما لم يكن قد رآه إلا في الصور. الأعمدة الرومانية، القصور ذات النحوت المعقدة، وكنيسة القديس بطرس في كل عظمة عصر النهضة. وكان رالف راوول، كاردينال دو بريكاسار، ينتظره مرتدياً الأرجواني من رأسه حتى أخمص قدميه. كانت يده ممدودة، وخاتمه يبرق؛ وارتمى دين على ركبتيه ليقبله.

ـــ انهض يا دين، ودعني أنظر إليك.

ووقف يبتسم للرجل الطويل الذي كان تقريباً بطوله؛ كان بإمكانهما النظر مباشرة في أعين بعضهما. وكان الكاردينال بالنسبة لدين يملك هالة هائلة من القوة الروحية جعلته يفكر في البابا بدلاً من أي قديس؛ ولكن العينين لم تكونا عيني بابا. لا بد أنه قد تألم كثيراً لكي يبدو هكذا! ولكن بأي نبل تغلب على الألم حتى يبدو أشد الكهنة كمالاً؟

ونظر الكاردينال رالف إلى الابن الذي لم يكن يعرف أنه ابنه، والحب يملأ قلبه، لأن هذا كان ابن ميغي الحبيبة. كان يرغب أن يرى ولداً له هو هكذا بالضبط؛ بهذا الطول، وهذا الجمال الأخاذ، وهذه الرشاقة. لم ير في حياته كلها رجلاً حياً بهذا الكمال. ولكن الأفضل من جماله الخارجي كان جمال روحه البسيط. كان يملك قوة الملائكة، وشيئاً من سماويتهم. هل كان هو أيضاً هكذا في الثامنة عشرة؟ وحاول أن يتذكر، ويسترجع حوادث ثلثي حياته؛ كلا، لم يكن هكذا أبداً. هل لأن هذا الشاب قد أتى بمحض اختياره؟ لأنه هو نفسه لم يختر ـــ وكان أكيداً من هذا على الأقل ـــ مع أنه كان يملك الدعوة.

ـــ اجلس يا دين. هل بدأت تتعلم الايطالية كما طلبت منك؟
ـــ لقد توصلت لحد الآن إلى أن أتكلمها بطلاقة، ما عدا العبارات الاصطلاحية، كما أني أقرأها بشكل جيد، ربما وجدتها سهلة لأنها اللغة الرابعة التي أعرفها. يبدو أني أملك موهبة اللغات. وخلال أسبوعين سأتلقن لغة الشارع.
ـــ نعم، ستفعل ذلك. أنا أيضاً أملك موهبة اللغات.
ـــ حسناً، إنها مفيدة جداً. قال دين بارتباك، فقد كان هذا الشخص الأرجواني يرهبه قليلاً. وفجأة، وجد نفسه عاجزاً عن أن يتذكر الرجل الآخر، على ظهر الفرس في دروغيدا.

وانحنى الكاردينال رالف إلى الأمام يراقبه:

«أني أحملك مسؤوليته يا رالف» كتبت ميغي في رسالتها. «إني أكلفك برفاهيته وسعادته. وها أنا أعيد ما أختلسته، إنه مطلوب مني. ولكن عدني بشيئين فقط، وسوف أطمئن لعلمي بأني عملت لمصلحته. الشيء الأول، عدني بأن تتأكد، قبل قبوله، أن هذا هو ما يريده فعلاً وحقاً. وثانياً، إذا كان ذلك ما يرغب به، أن ترعاه دائماً، وتتأكد من أنه سيبقى ما أراد أن يكون. وإذا كان سيفقد قلبه في سبيله، فأنا أريده أن يعود. لأنه قبل كل شيء لي. فأنا التي أعطيتك إياه».

ـــ دين ، هل أنت متأكد ؟
ـــ بدون أي شك .
ـــ لماذا ؟

كانت عيناه كبيرتين بشكل عجيب ، وقريبتين بشكل مربك ، قريبتين بشكل أعاده إلى الماضي .

ـــ بسبب الحب الذي أحمله لربنا . أريد أن أخدمه ككاهنه ما دمت حياً على وجه الأرض .
ـــ هل تفهم ما تتطلبه خدمته يا دين ؟
ـــ نعم .
ـــ ألّا يقف حب آخر بينك وبينه ؟ أن تتبعه هو وحده وتتخلى عن كل الآخرين ؟
ـــ نعم .
ـــ وأنه إذا دعت الضرورة فعليك مواجهة الموت والسجن والجوع باسمه ؟ وأن عليك ألّا تملك شيئاً ، أو تعلق أهمية على شيء يمكنه أن ينقص من حبك له ؟
ـــ نعم .
ـــ هل أنت قوي يا دين ؟

ـــ أنا إنسان يا نيافة الكاردينال. أنا أولاً انسان. سيكون الأمر قاسياً، وأنا أعلم ذلك، ولكنني أصلي لكي أجد القوة على احتمال ذلك، بعونه.

ـــ وهل يجب أن تفعل هذا يا دين؟ أليس هناك شيء أقل يمكنه أن يرضيك؟

ـــ لا شيء.

ـــ وإذا غيرت رأيك فيما بعد، ماذا ستفعل؟

ـــ «آه، إني سأطلب الرحيل»، قال دين بدهشة: «إذا غيرت رأيي فسيكون ذلك لأني قد أخطأت عن غير قصد فهم دعوتي، وليس لسبب آخر. وعندها سوف أطلب الرحيل. ولن أحبه أقل، ولكنني سأفهم أنها هي الطريقة التي أختارها لكي أخدمه».

ـــ ولكنك عندما تنذر نذورك النهائية وتصبح كاهناً، فأنت تعلم أنه لن يبقى هناك مجال للعودة إلى الوراء، ولا إعفاء، ولا انعتاق أبداً؟

ـــ «إنني أفهم ذلك»، قال دين بصبر: «ولكنني في ذلك الوقت لا بد أن أكون قد اتخذت قراري».

وأسند الكاردينال ظهره إلى كرسيه وتنهد. هل كان هو أكيداً من نفسه بهذا الشكل؟ هل كان قوياً هكذا؟

ــ لماذا جئت إلى أنا يا دين؟ لماذا أردت أن تأتي إلى روما؟ لِمَ لم تبق في استراليا؟

ــ إن أمي أوحت لي بفكرة روما، ولكن الفكرة كانت تدور في رأسي منذ زمن، وكنت أعتبرها حلماً. لم أفكر أبداً أن لدينا ما يكفي من المال لذلك.

ــ إن أمك متعقلة جداً. ألم تخبرك؟

ــ تخبرني ماذا يا نيافة الكاردينال؟

ــ تخبرك أن عندك مدخولاً يعادل خمس آلاف ليرة سنوياً، وأن هناك بضعة آلاف في المصرف باسمك؟

وتصلب دين:

ــ كلا، إنها لم تخبرني أبداً.

ــ هذه حكمة كبيرة منها. ولكن ها هي النقود موجودة، وروما لك إن أردت. هل تريد روما؟

ــ نعم.

ــ لماذا تريدني أنا يا دين؟

ــ لأنك أنت مثال الكاهن الكامل بالنسبة لي، نيافتك.

وتقلصت تقاطيع وجه الكاردينال رالف :

ـــ كلا يا دين، إنك لا تستطيع أن تعتبرني هكذا. إني بعيد كل البعد عن الكاهن المثالي. لقد تنكرت لكل نذوري، هل تفهم؟ كان علي أن أتعلم ما يبدو أنك تعلم الآن، وبطريقة مؤلمة أكثر مما يمكن لكاهن أن يتحمل، عبر إنكاري لنذوري، وذلك لأني كنت أرفض أن أتقبل فكرة كوني انساناً فانياً قبل كل شيء، ومن ثم كاهناً.

ـــ «لا يهم، نيافتك»، قال دين برقة: «فما قلته لا ينقص من قيمتك ولا يجعلني أغير نظرتي إليك ككاهن مثالي. أظنك تفهم ما أقصده، هذا هو الأمر. أنا لا أقصد أنك آلة بشرية، فوق ضعف الجسد، ولكني أقصد أنك تألمت، وكبرت. هل أبدو شديد الادعاء؟ أنا لا أقصد ذلك حقاً. إني أسألك الصفح إن كنت قد أسأت إليك. ذلك أن من الصعب علي جداً أن أعبر عن أفكاري! والذي أقصده هو أن ذلك يتطلب سنوات طويلة لكي تصبح كاهناً كاملاً، وكثيراً من الألم، وخلال ذلك الوقت عليك أن تحتفظ بمثال أمام عينيك، وبربنا».

ورن الهاتف، فتناول الكاردينال السماعة بيد ترتجف قليلاً، وتكلم بالايطالية:

ــ «نعم، شكراً، سنأتي في الحال». ونهض على قدميه: «لقد حان الوقت للشاي، وسوف نتناوله مع صديق لي قديم، قديم. وهو أهم كاهن في الكنيسة بعد الأب الأقدس. لقد أخبرته أنك قادم، ولقد عبر عن رغبته في رؤيتك».

ــ إني أشكر نيافتك.

وسارا عبر الممرات، ثم عبرا الحدائق الغناء المختلفة جداً عن حدائق دروغيدا، وكانت مليئة بالسرو والحور، وقد نسقت مروجها في أشكال هندسية منتظمة، تحيط بالممرات التي تحفها الأعمدة، والتي رصفت بحجارة نمت بينها الطحالب؛ ومرا أمام قباب قوطية، وتحت جسور من عصر النهضة. كان دين يلتهم ما يراه بعينيه، ويحبه. كم كان هذا العالم القديم الأبدي مختلفاً عن استراليا.

وسارا ربع ساعة سيراً حثيثاً قبل أن يبلغا القصر. وولجاه وصعدا سلّماً رخامياً ضخماً علقت على جانبيه رسوم لا تقدر بثمن.

كان فيتوريو سكاربانزا، كاردينال دي كونتيني فيركيزي،

قد بلغ السادسة والستين من العمر، وقد شلّ الروماتيزم جسده جزئياً، ولكن ذهنه كان لا يزال ذكياً متيقظاً كما كان دائماً. كانت هرته الحالية زرقاء روسية تدعى «ناتاشا»، وقد تكورت في حضنه تخرخر؛ وإذ لم يكن باستطاعته النهوض لاستقبال زائريه، فقد اكتفى بابتسامة عريضة، وبهزة من رأسه تدعوهما للاقتراب. ومرت عيناه من وجه رالف الحبيب إلى وجه دين اونيل، واتسعتا ثم ضاقتا، وبقيتا مثبتتين على وجه دين وقد أحس بقلبه يغوص في صدره، فوضع عليه يده المرحبة في حركة حماية غريزية، وجلس يحدق بغباء إلى النسخة الشابة من رالف دو بريكاسار.

ـــ فيتوريو، هل أنت بخير؟ سأله الكاردينال رالف بقلق وهو يتناول المعصم النحيل بين أصابعه ويجس نبضه.

ـــ بالطبع. إنه ألم صغير عابر، لا أكثر. اجلسا، اجلسا.

ـــ أولاً، دعني أقدم لك «دين اونيل»، وهو كما أخبرتك ابن صديقة عزيزة علي جداً. دين، هذا هو نيافة الكاردينال دي كونتيني فيركيزي.

وركع دين، ولامس بشفتيه الخاتم، ومن فوق رأسه الأشقر المحني، بحث الكاردينال دي كونتيني فيركيزي عن وجه رالف وهو يتفحصه بدقة لم يفعلها منذ سنوات. واسترخى قليلاً: إنها إذن لم

تخبره أبداً، وهو بالطبع لا يشك بما يخطر حالاً على بال من يراهما سوية : ليس أباً وابنه بالطبع، بل رابطة دم قوية جداً. مسكين رالف ! إنه لم ير نفسه أبداً وهو يسير، ولم ينظر إلى تعبير وجهه هو، أبداً، ولم يلاحظ الطريقة التي يرفع بها حاجبه الأيسر. حقاً إن الله كريم إذ خلق الانسان أعمى إلى هذا الحد.

ــ اجلسا، إن الشاي قادم. هكذا إذن أيها الشاب ! إنك تريد أن تكون كاهناً، ولقد طلبت حماية الكاردينال دو بريكاسار.

ــ نعم، نيافتك.

ــ لقد كان اختيارك حكيماً. فلن يحصل لك مكروه وأنت تحت حمايته. ولكنك تبدو عصبياً قليلاً يا بني، أهي الغربة ؟

وابتسم دين ابتسامة رالف، ربما دون أن يدري بسحرها، ولكنها كانت تشبه ابتسامة رالف بشكل شعر معه الكاردينال بقلبه المريض العجوز كما لو مزقته الأسلاك الشائكة.

ــ إني مرتبك، نيافتك. لم أكن أعلم تماماً أن للكرادلة كل هذه الأهمية. لم أحلم بحياتي أن ينتظرني أحد على المطار، وأن أتناول الشاي معك.

ــ « نعم، هذا غير اعتيادي... وربما كان مصدر متاعب، إني

أفهم ذلك. آه، ها هو الشاي»، ونظر مسروراً إلى الشاي وهو يوضع على المائدة، ورفع اصبعه محذراً: «آه، كلا، سوف أكون أنا «الأم». كيف تحب الشاي يا دين؟»

ــ لابأس يا دين، إن الكاردينال دي كونتيني فيركيزي متفهم جداً. لقد تقابلنا لأول مرة على أساس دين ورالف، ولقد عرفنا بعضنا بشكل أفضل بهذه الطريقة. إن المعاملة الرسمية جديدة على علاقتنا، وأنا أفضل أن ننادي بعضنا بـ «دين» و «رالف» عندما نكون وحدنا. ونيافته لن يرى في ذلك سوءاً، أليس كذلك يا فيتوريو؟

ــ نعم، فأنا أحب أسماء المعمودية. ولكن لنعد إلى ما كنت أقول عن الأصدقاء ذوي المراكز المرموقة يا بني. إن صداقتك القديمة للعزيز رالف سوف تسبب لك بعض الإحراج عندما تدخل المعهد اللاهوتي الذي ستختاره. سوف تملّ من إعطاء التفسيرات الطويلة كل مرة تسبب علاقتكما بعض الملاحظات. وأحياناً يسمح لنا الله بكذبة صغيرة بيضاء ــ وابتسم، والتمعت سنه الذهبية ــ وأنا أفضل من أجل راحة بال الجميع أن نلجأ إلى أكذوبة صغيرة من هذا النوع، لأن من الصعب أن تفسر بطريقة مرضية علاقات الصداقة

المتينة، وإنما من السهل أن تفسر روابط الدم القرمزية. وعلى هذا سنقول للجميع إن الكاردينال دو بريكاسار هو خالك، يا عزيزي دين، ونترك الأمور هكذا.

وأنهى الكاردينال دي كونتيني فيركيزي كلامه بلهجة رقيقة. وبدا دين مصدقاً، ورالف مستسلماً:

ـ «يجب ألّا يخيب أملك بالعظماء يا بني»، قال الكاردينال بلطف: «فلهم أيضاً نقاط ضعف، وهم يلجأون أحياناً إلى الكذب الأبيض للاحتفاظ براحتهم. هذه أمثولة تعلمتها الآن، ولكني عندما أنظر إليك، يساورني الشك في إمكانية استفادتك منها. على كل عليك أن تفهم أننا نحن الرجال الأرجوانيين دبلوماسيون حتى أطراف أصابعنا. إني في الحقيقة أفكر بك وحدك يا بني. فالحسد والغيظ، كما في المعاهد العادية، ليسا بغريبين عن المعاهد اللاهوتية، وسوف تتألم كثيراً لأنهم يعلمون أن رالف هو خالك، أخ أمك، ولكنك ستتألم أكثر لو علموا أن لا روابط دموية بينكما. نحن قبل كل شيء بشر، وأنت ستتعامل مع البشر في هذا المحيط كما في غيره».

أحنى دين برأسه، ثم انحنى ليمسد فراء الهرة، ومد يده وهو يقول: «هل بإمكاني ذلك؟ إني أحب القطط».

لم يكن هناك طريق أسرع من هذا إلى قلب الكاردينال العجوز المخلص:

ـــ بالطبع. إني أقرّ بأنها أصبحت ثقيلة بالنسبة لي. إنها شرهة، أليس كذلك يا ناتاشا؟ اذهبي إلى دين، إنه الجيل الجديد.

○

لم يكن من الممكن أن تنتقل جوستين، هي وحوائجها، من النصف الجنوبي إلى النصف الشمالي من الكرة الأرضية، بالسرعة نفسها التي انتقل بها دين. ففي الوقت الذي أنهت به الموسم على مسرح كلّودن، وودعت بأسف شقتها في بوثويل غاردنز، كان قد مضى شهران على وصول دين إلى روما.

ـــ كيف فعلت، بحق الشيطان، لاكوّم كل هذه التفاهات؟ سألت وهي ضائعة وسط تلال من الثياب والأوراق والعلب.

ورفعت ميغي عينيها من حيث كانت تركع وبيدها علبة مليئة بألواح الصابون الذي يستعمل في تنظيف الأواني:

ـــ ما الذي كانت تفعله هذه العلبة تحت السرير؟

ومر على وجه ابنتها المحمر تعبير ينم عن ارتياح شديد:

ـــ «آه، شكراً لله! هل كانت هناك؟ لقد فكرت أن كلب السيدة ديفين الحبيب قد أكلها؛ لقد كان يبدو متوعكاً خلال كل هذا الأسبوع، ولم أجرؤ على التصريح بأني قد فقدت علبة الصابون، ولكني كنت متأكدة من أن هذا الحيوان اللعين قد التهمها. إن باستطاعته أن يأكل كل شيء إذا لم يأكله ذلك الشيء أولاً». وتابعت جوستين وعلى وجهها علائم تفكير عميق «لا أعني أني لن أكون مسرورة لموته».

وقهقهت ميغي وهي جالسة على كعبيها:

ـــ «آه يا جوس! هل تعلمين كم أنت مضحكة؟» ورمت بالعلبة على السرير، وسط تلال من أشياء أخرى. «أنت لا ترفعين رأس دروغيدا! فبعد كل ما بذلنا من الجهد لكي نعلمك النظافة والترتيب...».

ـــ كان بإمكاني أن أخبركم أنكم تضيعون وقتكم. هل ترغبين بأخذ الصابون إلى دروغيدا؟ إني أعلم أني مسافرة بالبحر، وأستطيع أن آخذ كل ما يحلو لي، ولكني أعتقد أن الصابون ليس نادراً في لندن.

ونقلت ميغي العلبة إلى صندوق كبير من المقوى كتب عليه: السيدة د.:

ـــ أظن أن من الأفضل أن نهبها للسيدة ديفين، فعليها أن تجعل هذه الشقة مقبولة للمستأجر الجديد الذي سيأتي بعدك.

كان هناك برج مزعزع من الصحون على طرف من أطراف الطاولة، وقد ظهرت عليها جميعها بقع من العفن المقرف.

ـــ هل غسلت الصحون ذات يوم؟

وضحكت جوستين بدون أي شعور بالذنب:

ـــ إن دين يقول إني لا أغسلها على الاطلاق، وإنما «أحلق لها لحيتها».

ـــ عليك أن تقصي لهذه الكومة من الصحون شعرها أولاً. لماذا لا تغسليها حالما تستعملينها؟

ـــ لأن ذلك يعني أن علي أن أجر نفسي ثانية إلى المطبخ. وبما أني آكل عادة بعد منتصف الليل، فلن يسر أحد بسماع وقع أقدامي في تلك الساعة المتأخرة.

ـــ «أعطني أحد الصناديق الفارغة، سوف أنـزلها الآن وأرميها بنفسي».

قالت أمها مستسلمة، فقد كانت تعرف ما ينتظرها قبل أن تتطوع بالمجيء، ولكنها كانت تتوق له مع ذلك. لم تكن هناك

فرصة لمساعدة جوستين في أي شيء، وكلما كانت ميغي تحاول مساعدتها، كانت تنتهي بأن تشعر أنها حمقاء. ولكن الوضع اختلف هذه المرة بالنسبة للأمور المنزلية، فباستطاعتها أن تساعدها ما شاءت دون أن تشعر بأنها حمقاء.

وأخيراً توصلت جوستين وميغي بطريقة ما إلى حزم كل الأمتعة، وجلستا في السيارة الكبيرة التي كانت ميغي قد أتت بها من غيللي، واتجهتا نحو «فندق استراليا» حيث كانت ميغي قد حجزت شقة.

ـــ «أتمنى لو أنكم يا سكان دروغيدا، تستطيعون شراء منزل في «بالم بيتش»، أو في «افالون»، قالت جوستين وهي تضع حقيبتها في الغرفة الثانية من الشقة: «إن هذا الفندق رهيب، فوق ساحة مارتن بالضبط. تصوري بإمكانك أن تقفزي وتجدي نفسك في البحر، تحت نافذتك بالضبط! ألا يشوقكم هذا إلى مغادرة غيللي على متن طائرة، أكثر مما تفعلون عادة؟».

ـــ ولماذا آتي إلى سيدني؟ لقد أتيت إليها مرتين خلال السنوات السبع الماضية، المرة الأولى لأودع دين، وهذه المرة لأودعك أنت. ولو كنت أملك منزلاً هنا، لكان عديم الفائدة.

ـــ ترهات .

ـــ لماذا ؟ .

ـــ لماذا ، لأن في العالم أشياء أخرى غير دروغيدا اللعينة ، اللعنة . ذلك المكان يقودني إلى الجنون .

وتنهدت ميغي :

ـــ صدقيني يا جوستين ، سوف يأتي يوم تحنين فيه للعودة إلى المنزل ، إلى دروغيدا .

ـــ وهل تتمنين الشيء نفسه لدين ؟ .

ولم تجب . ثم ، بدون أن تنظر إلى ابنتها ، تناولت ميغي حقيبة يدها عن الطاولة وقالت :

ـــ سوف نتأخر . لقد قالت السيدة روشر الساعة الثانية . وإذا أردت ثيابك قبل أن تبحري ، فعلينا الإسراع .

ـــ إنها طريقة لكي تضعيني عند حدي . قالت جوستين وابتسمت .

ـــ لماذا لم تعرّفيني على أي من أصدقائك يا جوستين ؟ فلم أر أحداً منهم في بوثويل غاردنز عدا عن السيدة ديفين .

قالت ميغي وهما تجلسان في صالون السيدة روشر ، وتنظران إلى عارضات الأزياء الكسولات يتبخترن بتكلف .

ـــ آه، إنهم خجولون بعض الشيء... إني أحب ذلك الشيء البرتقالي، ما رأيك؟

ـــ البرتقالي مع لون شعرك! خذي الرمادي.

ـــ ولكني أعتقد أن البرتقالي يناسب لون شعري تماماً، ولو ارتديت اللون الرمادي فسأبدو مثل فأرة مقرفة، نصف متعفنة، تسحبها الهرة. تطوري مع الزمن يا أماه، فليس على حمراوات الشعر أن يرتدين الأبيض، والرمادي، والأسود، والأخضر الزمردي، ولا ذلك اللون الشنيع الذي كنت تحبينه، ما اسمه؟ رماد الورود؟ إن هذا يعود إلى العصر الفيكتوري.

ـــ «هذا هو اسم اللون الصحيح»، قالت ميغي واستدارت لكي تنظر إلى ابنتها: «أنت غريبة»، قالت من بين أسنانها، واستدارت بحنان.

ولم تلق جوستين بالاً، فلم تكن هذه أول مرة تسمعها:

ـــ سوف آخذ البرتقالي، والأرجواني، والقرمزي بالطبع، وذلك الأخضر الربيعي، والطقم الخمري...

وجلست ميغي يتعاملها الغضب والضحك. وماذا تستطيع أن تفعل بابنة مثل جوستين؟

أبحرت باخرة «الهيمالايا» من ميناء دارلنغ بعد ذلك بثلاثة أيام. وكانت سفينة قديمة، جميلة ومنخفضة، بإمكانها تصدي البحر بجدارة. وكانت قد بنيت في تلك الأيام حيث لم تكن السرعة تسوط الناس الذين كانوا يعرفون أنهم سيقضون أربعة أسابيع في البحر لو سلكوا طريق قناة السويس، أو خمسة أسابيع إذا مروا برأس الرجاء الصالح. أما في أيامنا، فالبواخر السياحية ذاتها كانت تسير بقوة البخار، وكان شكلها انسيابياً مثل المدمرات حتى تجري بأقصى سرعة ممكنة، ولكن نتيجة ذلك على المعدة كانت تجعل أشد البحارة يرتجفون.

ــ «هذا مسلّ» قالت جوستين ضاحكة: «إن معنا فريق كرة قدم بكامله على الدرجة الأولى، وهكذا فأنا أعتقد أننا لن نضجر، فبعضهم رائعون».

ــ ألست مسرورة لأني أصررت على الدرجة الأولى؟

ــ أظن ذلك.

ــ «جوستين، جوستين يبدو أنك تتفنين في إغضابي، ولقد كنت دوماً هكذا». قالت ميغي بصوت حاد، وقد بدأت تفقد أعصابها أمام ما ظنته نكراناً للجميل. ألا تستطيع هذه

الشيطانة أن تدّعي ولو لمرة فقط، أنها حزينة بسبب الفراق؟
«إنك عنيدة، عنيدة كالبغل، متشبثة برأيك دائماً. إنك تثيرين غضبي».

ولم تجب جوستين حالاً، وإنما أدارت رأسها إلى الجهة الأخرى كما لو كانت مهتمة بأصوات الأجراس التي تنادي المسافرين إلى السفينة، وليس بما تقوله أمها. وعضت على شفتيها المرتعشتين ورسمت عليهما ابتسامة براقة:

ــ «إني أعلم أني أثير غضبك»، قالت بمرح وهي تواجه أمها:
«لا تهتمي، فنحن ما نحن. وكما تقولين دائماً، لقد ورثت ذلك عن والدي».

وتبادلتا القبلات بارتباك قبل أن تنزلق ميغي بامتنان وسط الحشود التي كانت تتجه نحو المعبر، ثم اختفت عن الأنظار. وشقت جوستين طريقها متجهة نحو ظهر المركب، ووقفت مستندة إلى الحاجز وبيديها لفافات من الشرائط الملونة. وفي الأسفل، بعيداً، وعلى الرصيف، رأت المرأة ذات الرداء الرمادي ــ الزهري والقبعة، تمشي إلى النقطة المتفق عليها، وتقف مظللة عينيها بيدها. غريب! كان بمقدورها من هذه المسافة أن ترى أن أمها قد قاربت الخمسين، ولا يزال أمامها بعض الوقت،

وكان ذلك يبدو في وقفتها. ولوحتا بيديهما في اللحظة نفسها، ثم رمت جوستين بأولى شرائطها الملونة، وقبضت ميغي على طرفها بمهارة. شريط أحمر، وآخر أزرق، وآخر أصفر، وغيره وردي، ثم واحد أخضر، وواحد برتقالي، تدور وتلف تحملها الريح.

كان هناك فرقة من عازفي القربة أتت لتودع فريق كرة القدم، ووقف أفراد الفرقة وقد تطايرت راياتهم، وانتفخت تنانيرهم، يعزفون «حانت الساعة» في تحوير غريب. كانت حواجز سطوح السفينة مكتظة بالركاب، وقد استندوا إليها يتعلقون بشدة في أطراف شرائطهم الورقية الدقيقة، وعلى الرصيف كان هناك مئات من البشر يمدون أعناقهم نحو الأعلى، وعيونهم عالقة بلهفة على الوجوه المسافرة إلى البعيد، وجوه شابة في أغلبيتها، راحلة لترى محور الحضارة في الطرف الآخر من العالم. سيعيشون هناك، ويعملون هناك، وربما عادوا خلال سنتين، وربما لم يعودوا على الاطلاق. والكل كان يعلم ذلك؛ ويتساءل. كانت السماء الزرقاء منتفخة بغيوم بيضاء فضية، بينما كانت ريح سيدني اللاذعة تهب، والشمس تلقي بدفئها على وجوه الناظرين إلى الأعلى، وعلى أكتاف المنحنين نحو الأسفل؛ بينما كانت حزمة ضخمة من الشرائط الملونة تربط ما بين السفينة والرصيف. وفجأة، ظهرت

فجوة عريضة بين جنب السفينة العجوز وأعمدة الرصيف الخشبية، وامتلأ الجو بالبكاء والنشيج، وانقطعت الشرائط، واحدة بعد الأخرى، وتطايرت بعنف، ثم ترامت بلا حياة، متقاطعة على صفحة الماء مثل نول تشابكت خيوطه، واختلطت بقشور البرتقال وقناديل البحر السابحة نحو البعيد.

ولازمت جوستين مكانها بعناد على الحاجز، حتى لم يعد رصيف الميناء إلا بضعة خطوط مستقيمة، وبعض النقاط الوردية في البعد؛ وأدارت الزوارق المركب، وسحبته بدون مقاومة تحت جسر سيدني الكبير، ثم إلى تيار الماء الرائع، الملتمع تحت الشمس.

ولم تكن الرحلة شبيهة مطلقاً بنزهة تقوم بها إلى «مانلي» على مركب عادي، رغم أنك أيضاً تتبع الطريق نفسه، مروراً بخليج نوترال، وخليج روز وكريمون وفوكلوز؛ كلا، إذ أن المركب كان يذهب هذه المرة نحو الخارج عبر الـ «هيدز» إلى ما وراء الأجراف الوحشية، وما وراء مراوح الزبد المرتفع التي تشبه الدانتيل، نحو المحيط. اثنا عشر ألف ميل من المحيط، إلى الطرف الآخر من العالم. وإن هم عادوا إلى الوطن لم أم لم يعودوا، فلن ينتموا لا إلى

هذه الجهة ولا إلى تلك ، لأنهم سيكونون قد عاشوا على قارتين ، وعرفوا نوعين من الحياة مختلفين .

واكتشفت جوستين أن النقود تجعل من لندن مكاناً شديد الجاذبية . ولن تكون حياتها حياة فتاة معدمة في أحد أطراف « ايرلز كورت » ــ وادي الكنغر ــ كما كان يدعى ، بسبب العدد الكبير من الاستراليين الذين اختاروا أن يعيشوا هناك . ولن تتحمل مصير الاستراليين الاعتيادي ، ممن أتوا يعيشون في انجلترا ، وقد تكوموا في الفنادق المخصصة للشبان لقاء بضعة دراهم ، يكدحون من أجل لقمة العيش في بعض المكاتب ، أو في مدرسة ما ، أو في أحد المستشفيات ، ويرتجفون وقد تجمد دمهم حول مدفأة صغيرة ، في غرفة رطبة جليدية . وعوضاً عن ذلك ، أقامت جوستين في شقة مريحة في « كينسينغتون » ، بالقرب من « نايتسبريدج » ، وبها جهاز تدفئة مركزي ، وحصلت على عمل في فرقة « كلايد دالتنهام روبرتس » ، وهي الفرق الأليزابيثية . وعندما أتى الصيف ، استقلت القطار إلى روما . وفيما بعد ، كانت جوستين تبتسم كلما تذكرت أنها لم تر تقريباً أي شيء مما مرت به خلال تلك الرحلة الطويلة عبر فرنسا ، نحو ايطاليا ، فقد كان ذهنها مشغولاً بكل الأشياء التي

كانت ستخبرها لدين، وهي تحاول أن تحفظ عن ظهر قلب تلك التي لا يجب أن تنساها بأي ثمن. لقد كان عندها الكثير، ومن المحتمل أن تنسى البعض منه.

هل هذا دين؟ ذلك الشاب الطويل الأشقر الواقف على الرصيف، أكان ذلك دين؟ لم يكن يبدو مختلفاً، ومع ذلك فقد كان غريباً. لم يعد من عالمها. ومات في حلقها النداء الذي كانت ستطلقه لكي تلفت انتباهه، وتراجعت قليلاً في مقعدها لكي تراقبه، لأن القطار توقف على بعد خطوات من المكان الذي كان دين يقف به، وعيناه الزرقاوان تتفحصان النوافذ بدون قلق. سيكون الحديث حتماً من جهة واحدة عندما ستخبره عن حياتها منذ ذهبت بعيداً، لأنها علمت أنه لم يبق عنده أية لهفة ليتقاسم معها تجاربه. لعنه الله. إنه لم يعد أخاها الطفل، وحياته لم يعد لها أي ارتباط بجوستين، كما فقدت ارتباطها بدروغيدا. آه يا دين! بماذا يشعر الانسان لو كان عليه أن يعيش الشيء نفسه أربعاً وعشرين ساعة كل يوم.

ــ واه! كنت تظن أني كذبت عليك وجعلتك تأتي إلى المحطة هكذا! قالت وهي تنزلق وراءه دون أن يراها.

فاستدار وشد على يديها وهو ينظر إليها مبتسماً: « بلهاء » . قال وهو يتناول حقيبتها الضخمة ويشبك ذراعه الأخرى في ذراعها . « إني مسرور برؤيتك » ، أضاف وهو يقودها إلى السيارة الـ « لاغوندا » الحمراء التي كان يقودها في كل مكان ، وكان دين مغرماً بسيارات السباق ، وقد كان يملك إحداها منذ أن أصبح في سن تسمح له بالحصول على شهادة قيادة .

ــ أنا أيضاً مسرورة برؤيتك . آمل أن تكون قد وجدت لي فندقاً لائقاً ، لأني لم أكن أهذر عندما كتبت لك أني أرفض النزول في إحدى زنزانات الفاتيكان ، بين هذا القطيع من العازبين . وضحكت .

ــ ولكنهم ما كانوا ليقبلوك هنا ، ليس بهذا الشعر الشيطاني الأحمر . لقد حجزت لك غرفة في نزل صغير غير بعيد عني ، ولكنهم يتكلمون الانجليزية ، وبهذا لن تقلقي حين لا أكون معك . وليس هناك مشكلة في روما بالنسبة للانجليزية ، فهناك دائماً من يتكلمها .

ــ في أوقات كهذه ، أتمنى لو كنت أملك موهبتك للغات الأجنبية ، ولكني سأتدبر أمري ، فأنا بارعة في الحركات الصامتة والألغاز .

ـــ إن عندي شهري إجازة، وبذلك يمكننا أن نتجول في فرنسا واسبانيا، ويبقى لنا شهر نقضيه في دروغيدا. إني أفتقدها كثيراً.

ـــ «صحيح؟» واستدارت لتنظر إلى اليدين الجميلتين تقودان السيارة بمهارة عبر حركة السير المجنونة في شوارع روما. «أنا لم أفتقدها أبداً. إن لندن ممتعة جداً».

ـــ ليس بإمكانك خداعي. إني أعلم قيمة دروغيدا وأمي عندك.

وعصرت جوستين يديها في حضنها ولم تجب.

ـــ «هل يضايقك أن تتناولي الشاي بصحبتي وبصحبة أحد أصدقائي، بعد الظهر؟ سألها عندما وصلا: «لقد تبرعت وقبلت الدعوة عنك. إنهم متشوقون لرؤيتك، وبما أني لن أكون حراً قبل الغد، فلم أحب أن أرفض».

ـــ يا لك من غبي! ولماذا أتضايق؟ لو كنا في لندن، لأغرقتك في تيار أصحابي، فلم لا تفعل أنت؟ أنا مسرورة لأنك ستعرفني على الشبان في المعهد مع أن هذا ظلم لي، أليس كذلك؟ ممنوع بتاتاً أن أرمي شباكي حول أي منهم!.

وتوجهت إلى النافذة، ونظرت إلى الأسفل، إلى الساحة

الصغيرة الحزينة وقد انتصبت وسط أرضها المرصوفة شجرتا دلب احتمت في ظلهما ثلاث طاولات، وعلى أحد جوانب الساحة، كانت هناك كنيسة مجردة من كل جمال وأناقة، وقد بنيت دون أي طراز، وغطى جدرانها طلاء أبيض متقشر.

ـــ دين ...

ـــ نعم ؟

ـــ إني أفهمك، إني أفهمك حقاً.

ـــ «نعم، إني أعلم ذلك»، وفقد وجهه ابتسامته: «أتمنى لو أن أمي تفهمني أيضاً يا جوس».

ـــ إن أمي شيء آخر. فهي تشعر إنك تخليت عنها، وهي لا تعلم أن الأمر ليس كذلك. لا تقلق لأجلها، فهي ستفهم متى حان الوقت.

ـــ «آمل ذلك» وضحك: «على فكرة، إنك لن تقابلي شبان المعهد اليوم. فأنا لن أعرّضهم إلى مثل هذه التجربة، وإنما ستقابلين الكاردينال دو بريكاسار. أنا أعلم أنك لا تحبينه، ولكن عديني بأن تكوني لطيفة».

وومضت عيناها ببريق خبث :

ــ أعدك . حتى أني سأقبل كل خاتم يقدم لي .

ــ آه ، هل تذكرين ! كنت غاضباً جداً منك ذلك اليوم ، ولقد أخجلتني أمامه .

ــ «حسناً . لقد حدث منذ ذلك الوقت أني قبلت عدداً ضخماً من الأشياء أقذر بكثير من خاتم . هناك شاب مروّع تملأ البثور وجهه ، وله لوزتان عفنتان ، ومعدة فاسدة ؛ وقد كان علي أن أقبله تسعاً وعشرين مرة في أحد دروس التمثيل ، وأنا أؤكد لك يا رفيق أن لا شيء يستحيل علي من بعده» . وربتت على شعرها ، واستدارت عن المرآة . «هل عندي وقت لتغيير ملابسي ؟» .

ــ آه لا تقلقي بشأنها ، أنت جميلة هكذا .

ــ من سيكون هناك أيضاً ؟

كانت الشمس ضعيفة عاجزة عن تدفئة الساحة العتيقة ، وكانت التقشرات الجذامية على جذعي شجرتي الدلب تبدو مهترئة مريضة . وارتعشت جوستين .

ــ سيكون هناك الكاردينال دي كونتيني فيركيزي .

كانت قد سمعت بذلك الاسم ، وفتحت عينيها على سعتهما :

ــ آه ، إنك تعيش مع النخبة .

ــ نعم ، وأنا أحاول أن أستحق ذلك .

ــ هل تعني أن هناك من يزعجك في بعض مجالات حياتك هنا يا دين؟ سألت بدهاء.

ــ كلا ، ليس تماماً. ولا يهم من أعاشر. أنا لا أفكر بذلك الموضوع أبداً ، ولا أحد يفكر به .

القاعة. والرجال ذوي الرداء الأرجواني ! لم تشعر جوستين طوال حياتها بعدم منفعة النساء في حياة الرجال إلا عندما دخلت هذا العالم الذي لا مكان للنساء فيه إلّا كراهبات خادمات. كانت جوستين لا تزال ترتدي الطقم الكتاني الزيتوني اللون الذي كانت قد لبسته عندما غادر القطار تورينو ، وكان متغضناً من السفر. وبينما كانت تتقدم على السجاد الأحمر الناعم، كانت تلعن سرعة دين في المجيء إلى هنا ، وتتمنى لو أنها أصرت على تغيير ملابسها. ووقف الكاردينال دو بريكاسار مبتسماً ، يا لوسامته في هذا العمر !

ــ « يا عزيزتي جوستين » ، قال وهو يمد لها خاتمه مرفقاً حركته بنظرة خبيثة تدل على أنه لا يزال يتذكر جيداً ذلك الحادث ،

ويبحث في وجهها عن شيء لم تكن تفهمه. «إنك لا تشبيهن أمك أبداً».

ووضعت ركبتها على الأرض، وقبلت الخاتم، وابتسمت بتواضع، ثم نهضت وابتسمت بتواضع أقل:

— كلا، إني لا أشبهها، أليس كذلك؟ كنت سأستفيد من جمالها في المهنة التي اخترتها، ولكنني أتدبر أمري على خشبة المسرح. لأن المسرح في الواقع لا علاقة له بالوجه، كما تعلم. المهم هو أن تقنع الناس بالوجه الذي يرونه أمامهم، وذلك بشخصيتك وفنك.

وصدرت من أحد المقاعد ضحكة جافة صغيرة، ومرة أخرى تقدمت لتقبل خاتماً آخر في يد عجوز معقدة؛ ولكنها نظرت هذه المرة إلى عينين داكنتين، ويا للغرابة! لقد رأت فيهما الحب. الحب لها، لأحد لم يره من قبل، ولم يسمع عنه إلا القليل. ولكن الحب كان هناك. إنها لم تحب الكاردينال دو بريكاسار أكثر من المرة الأولى التي رأته فيها، عندما كانت في الخامسة عشرة من العمر، ولكن هذا العجوز أدفأ قلبها.

— «اجلسي يا عزيزتي»، قال الكاردينال فيتوريو، ويده تشير إلى مقعد بقربه.

ــ مرحبا يا هرة » قالت جوستين وهي تمد يدها نحو الهرة الزرقاء القابعة في حضنه الارجواني . « إنها لطيفة ، أليس كذلك ؟ »

ــ إنها بالفعل لطيفة .

ــ ما اسمها ؟

ــ ناتاشا .

وفتح الباب ، ولكن ليس أمام صينية الشاي . ودخل رجل في ثياب مدنية والحمد لله . « فلو رأيت ثوباً آخر أرجوانياً ــ فكرت جوستين ــ سوف أخور كالثور » . ولكنه لم يكن رجلاً عادياً ، رغم كونه مدنياً . ربما كان هناك قانون محلي في الفاتيكان ، تابعت جوستين أفكارها الجامحة ، يحرم قطعاً وجود الرجال العاديين هناك . لم يكن قصير القامة تماماً ، ولكن بنيته القوية كانت تجعله يبدو مربوعاً أكثر مما هو عليه فعلاً ؛ وكانت له كتفان ضخمتان ، وصدر هائل، ورأس كبير كرأس الأسد ؛ أما ذراعاه القويتان فقد كانتا طويلتين مثل ذراعي جزاز صوف. كان هناك شيء من الغوريلا في هذا الرجل، إلا أنه كان يشع بالذكاء، ويتحرك مثل رجل قادر على القبض على ما يريد بسرعة تفوق سرعة الفكر . القبض عليه وتحطيمه، ربما، ولكن ليس بدون هدف أبداً، أو بدون تفكير، بل على العكس، بعد تفكير عميق. كان داكن

البشرة، ولكن شعره كان بلون الليف المعدني وبكثافته. هذا إذا كان بالإمكان إخضاع الليف المعدني، وتسريحه بهذه التموجات المنتظمة.

ــ «راينر، لقد وصلت في الوقت المناسب»، قال الكاردينال فيتوريو وهو يشير إلى كرسي في الجهة المقابلة، ويتابع كلامه بالانجليزية. «عزيزتي»، قال وهو يلتفت إلى جوستين بعدما قبّل الرجل خاتمه ونهض. «إني أحب أن أقدم لك صديقاً عزيزاً جداً. الهر راينر مورلينغ هارتهايم. راينر، هذه هي أخت دين، جوستين».

وانحنى وهو يطبق كعبيه، وابتسم لها ابتسامة صغيرة باردة، وجلس من الجهة الأخرى، بعيداً، بحيث لا تراه. وتنهدت جوستين بارتياح، خاصة عندما رأت أن دين قد جلس على الأرض قرب كرسي الكاردينال رالف براحة تامة، لاعتياده على ذلك، بمواجهة جوستين تماماً. كانت تشعر بأنها على ما يرام عندما تستطيع أن ترى شخصاً تعرفه وتحبه. ولكن القاعة، والرجال الأرجوانيين، ثم هذا الرجل الآن، بدأوا يثيرون عصبيتها أكثر مما كان وجود دين يريحها؛ وكانت مغتاظة من الطريقة التي

نحّوها بها جانباً. واستندت إلى ذراع الكرسي، ومدت يدها ثانية تدغدغ الهرة، وكانت متأكدة أن الكاردينال فيتوريو قد أحس بعصبيتها، وكان رد فعلها يسليه.

ــ «هل استؤصلت مبايضها؟» سألت جوستين.

ــ بالطبع.

ــ بالطبع! لست أدري لماذا كلفت نفسك هذا العناء. فمجرد الإقامة الدائمة في هذا القصر يكفي للقضاء على أي مبيض.

ــ «بالعكس يا عزيزتي»، قال الكاردينال فيتوريو مستمتعاً بمشاكستها. «إننا، نحن الرجال، قد خصينا أنفسنا نفسياً».

ــ اسمح لي بأن أخالفك الرأي يا نيافة الكاردينال.

ــ هكذا إذن، إن عالمنا الصغير يثير عداءك.

ــ حسناً، لنقل إني أشعر بنفسي غير ضرورية في مثل هذا العالم. إنه مكان لطيف يستحق الزيارة، ولكني لن أرغب أبداً في أن أعيش هنا.

ــ لا أستطيع أن ألومك، حتى إني لم أكن متأكداً من أنك ترغبين في زيارته. ولكنك سوف تعتادين علينا، إذ يجب عليك أن تزورينا غالباً، أرجوك.

وابتسمت جوستين، وأجابت:

ـ «إني أمقت ما يسمى بالتصرف اللائق، فذلك يُبرِز أسوأ ما عندي. باستطاعتي أن أرى اشمئزاز دين بدون أن أنظر إليه».

ـ «كنت أتساءل كم من الزمن ستتصرفين بلياقة» قال دين دون أن يضطرب على الإطلاق. «إذ يكفي أن ترفع طرفاً من قناع جوستين الخارجي لكي تكتشف متمردة. ولهذا السبب أنا مسرور لكونها أختي. فأنا لست متمرداً ولكنني معجب بالمتمردين».

وسحب هارتهايم كرسيه بحيث يستطيع أن يراها حتى عندما جلست مستقيمة، بعد أن كفت عن مداعبة القطة. في تلك اللحظة تعبت الهرة من اليد ذات الرائحة الأنثوية الغريبة، ودون أن تقف على قوائمها، انسلّت من الحضن الأحمر إلى الرمادي، وكورت نفسها تحت يد السيد هارتهايم القوية المربعة التي كانت تداعبها، وهي تخرخر بصوت مرتفع جعل الجميع يضحكون.

ـ «إني اعتذر عن وجودي» قالت جوستين إذ كانت لا تتحمل المزاح عندما تكون هي ضحيته.

ـــ «إن محركها يدور أفضل من أي وقت مضى» قال السيد هارتهايم، بينما الشعور بالتسلية يرسم على وجهه تغييرات ساحرة. كانت لغته الانجليزية جيدة جداً، حتى إنه لم يكن يلكن أبداً، ولكنه كان يتكلمها بلهجة اميركية.

ووصل الشاي قبل أن يعودوا إلى الجدية ثانية، والغريب أن السيد هارتهايم صب الشاي بنفسه، وناول جوستين فنجانها وقد رافقه بنظرة أكثر لطفاً مما فعل عندما قدمت له حين دخوله. وقال لها:

ـــ «إن الشاي بعد الظهر هو أهم مشروب خلال النهار في مجتمع بريطاني. وهناك أشياء كثيرة تُقَرَّر حول فنجان من الشاي، أليس كذلك؟ أظن أن ذلك ناتج عن طبيعة الشاي، فهو يمكن أن يُطلَب ويُشرَب في أي وقت ما بين الثانية والخامسة والنصف، والكلام يسبب الظمأ».

وبرهنت النصف الساعة التي تلت عن صحة وجهة نظره، ولكن جوستين لم تشارك في المؤتمر. وانتقل الحديث من صحة الحبر الأعظم إلى الحرب الباردة، ثم إلى النهضة الاقتصادية، وكان الرجال الأربعة يتحدثون ويصغون بانتباه شديد أسر جوستين، وقد

أخذت تحاول اكتشاف الصفات المشتركة بينهم وبين دين الذي بدا لها غريباً، وشبه مجهول. كان يشارك في الحديث بنشاط، ولم يخفَ عنها أن الرجال الثلاثة الأكبر منه سناً، كانوا يصغون إليه بتواضع عجيب، وكما لو كانوا يرهبونه. ولم تكن ملاحظاته غبية ولا ساذجة، ولكنها كانت مختلفة، فريدة، ومغلفة بالقدسية. هل كانوا يصغون إليه بهذا الشكل الجدي بسبب قدسيته؟ ولأنه كان يملك هذه القدسية وهم لا يملكونها؟ هل كان هذا فضيلة يعجبون بها ويشتهونها لأنفسهم؟ هل كان ذلك نادراً؟ ثلاثة رجال مختلفون تماماً الواحد عن الآخر، ولكنهم أقرب كثيراً فيما بينهم مما إلى دين. وقد كان من الصعب عليها النظر جدياً إلى دين كما كانوا يفعلون! ليس لأنه كان يعاملها كأخ كبير، بدلاً من الأخ الصغير، وليس لأنها لم تكن واعية لحكمته، وذكائه، وقدسيته، ولكنه حتى الآن كان جزءاً من عالمها، وكان عليها الآن أن تعتاد على واقع آخر، وهو أنه لم يعد جزءاً من عالمها.

ــ «إذا كنت ترغب في الصلاة الآن يا دين، فسوف أرافق أختك إلى فندقها». قال السيد هارتهايم بلهجة آمرة دون أن يأخذ رأي أحد في الموضوع.

وهكذا وجدت نفسها تنـزل السلالم الرخامية معقـودة اللسان، بصحبة ذلك الرجـل المربـوع القامـة، القـوي. وفي الخارج، في أشعة شمس المغيب الرومانية الصفراء، أمسك بمرفقها يقودها إلى المرسيدس السوداء، وقد وقف سائقها بانتباه.

ـــ «تعالي، إنك لا ترغبين في قضاء ليلتك الأولى في روما وحيدة، ودين مشغول حتماً». قال وهو يصعد بقربها إلى السيارة. «أنت متعبة، وخائفة، ومن الأفضل أن تكوني برفقة أحد».

ـــ لا يبدو أنك تترك لي حرية الاختيار يا سيد هارتهايم.

ـــ إني أفضل أن تناديني بـ «راينر».

ـــ لا بد أنك شخصية مرموقة، بهذه السيارة والسائق الخاص.

ـــ سأكون شخصية أكبر عندما أصبح السكرتير الأول في سفارة ألمانيا الغربية.

ـــ يدهشني أنك لم تصل إلى ذلك المركز حتى الآن.

ـــ قليلة الحياء! إني صغير السن لذلك المركز.

ـــ «حقاً؟» واستدارت لتنظر إليه بتمعن، ولتكتشف غياب التجاعيد من وجهه الشاب الشديد السمرة، ولتكتشف أيضاً أن الجلد المترهل لم يكن يحيط بعينيه العميقتين.

ـــ إنني بدين وأشيب، ولكن شعري قد شاب منذ كنت في

السادسة عشرة، وقد أصبحت بديناً منذ استطعت الحصول على ما يكفي من الطعام. إني في الحادية والثلاثين من العمر فقط.

ـ «إني أصدقك»، قالت وهي تخلع حذاءها. «ولكنك بالنسبة لي كبير في السن، فأنا في الحادية والعشرين».

ـ أنت وحشة.

ـ «يبدو أني كذلك، فأمي تقول عني الشيء نفسه. ولكني لا أدري تماماً ما الذي تقصده بهذه الكلمة. فما هو تفسيرك لها، أرجوك».

ـ هل فسرتها لك أمك؟

ـ لو سألتها لأحرجتها جداً.

ـ ألا تظنين أنك تحرجينني؟

ـ اعتقد اعتقاداً كبيراً يا سيد هارتهايم أنك أنت أيضاً وحش، وهكذا فإني أشك جداً بقدرتي على إحراجك.

ـ «وحش»، قال بين أسنانه. «لا بأس يا آنسة أونيل، سأحاول أن أحدد الكلمة لك. الوحش هو الذي يرعب الآخرين، إنه يحلق فوقهم، ويشعر بأنه قوي لا يمكن لأحد أن يغلبه إلا الله،

وهو أيضاً من لا تساوره الشكوك أبداً، ولا يملك إلا القليل من المبادىء الأخلاقية».

وضحكت:

ــ غير معقول، إنك ترسم لي صورتك. إن عندي الكثير من الشكوك والمبادىء الأخلاقية، فأنا أخت دين.

ــ أنت لا تشبهينه بالمرة.

ــ هذا مؤسف حقاً.

ــ إن وجهه لا يلائم شخصيتك.

ــ إنك بدون شك على حق، ولكني كنت سأنمّي شخصية أخرى لو كان لي وجهه.

ــ هذا يتعلق بما يأتي أولاً، إيه؟ البيضة أم الدجاجة؟ البسي حذاءك فسوف نسير.

كان الجو دافئاً، وقد بدأ الظلام يهبط، ولكن الأنوار كانت مشعة، والحشود في كل مكان، والشوارع مليئة بالدراجات النارية الصارخة، وسيارات «الفيات» الصغيرة الوقحة، والدراجات ذات العجلات الثلاث وهي تبدو كأنها جيش من الضفادع المذعورة. وأخيراً توقف في ساحة صغيرة مرصوفة بأحجار أصبحت ناعمة

من وقع الأقدام خلال عصور عديدة، وقاد جوستين إلى أحد المطاعم.

ــ ربما كنت تفضلين الجلوس في الخارج؟

ــ لا يهمني في الخارج أو الداخل، أو في الوسط ما بين الاثنين، المهم هو أن تطعمني.

ــ هل لي أن أطلب الطعام لك؟

ورفت عيناها الشاحبتان بقليل من الإرهاق، ولكنها كانت لا تزال قادرة على المقاومة:

ــ لا اعتقد أني أحب كثيراً سلطتك المتعجرفة الرجالية. على كل، كيف تعرف ذوقي في الطعام؟

ــ «ها هي الأخت آن ترفع راياتها»، قال هامساً. «اخبريني إذن ماذا تفضلين من الطعام، وأؤكد لك أني لن أخيب ظنك. سمك؟ أم لحم عجل؟».

ــ أهل هذه تسوية سلمية؟ حسناً، سأتنازل قليلاً عن موقفي، ولم لا؟ إني أريد قطعة من الكبد المطحون، وبعض القريدس، وصحناً ضخماً من اللحم، ثم في النهاية، كأساً من البوظة وفنجان قهوة بالقشدة. تصرف بهذه اللائحة إذا استطعت.

ـــ «يجب علي أن أصفعك»، قال دون أن يفقد مرحه. وأعطى النادل طلباتها كما قالتها، إنما بإيطالية سريعة.

ـــ «إنك تقول إني لا أشبه دين مطلقاً. هل تعتقد إني لا أشبهه في أي شيء أبداً؟»، سألته بشيء من الحزن وهي تحتسي قهوتها، وقد كانت جائعة جداً، فلم تضع وقتها بالكلام طالما بقيت هناك لقمة واحدة من الطعام على المائدة.

وأشعل لها لفافتها، ثم أشعل واحدة لنفسه، واسترخى في الظل لينظر إليها بهدوء، وهو يفكر بلقائه الأول مع أخيها، لعدة أشهر مضت. كان نسخة طبق الأصل عن الكاردينال دو بريكاسار قبل أربعين سنة من العمر؛ لقد لاحظ ذلك حالاً، وبعدها علم أنهما الخال وابن أخته، وأن أم الصبي والفتاة، هي أخت رالف دو بريكاسار.

ـــ هناك نوع من الشبه، نعم. وأحياناً حتى في الوجه، في التعبير أكثر مما في الملامح، حول العينين والفم، في الطريقة التي تفتحين بها عينيك وتطبقين فمك. غريب أنك لا تشبهين خالك الكاردينال ولا القليل القليل.

ـــ «خالي الكاردينال؟» سألت مشدوهة.

ــ الكاردينال دو بريكاسار، أليس هو خالك؟ لقد قيل لي أنه كذلك.

ــ هذا الصقر العجوز؟ إنه لا يمت لنا بقربى، شكراً للسماء. لقد كان كاهن رعيتنا منذ زمن بعيد، قبل أن أولد بسنوات طويلة.

كانت ذكية جداً، ولكنها كانت متعبة جداً أيضاً. مسكينة هذه الفتاة الصغيرة ــ إذ أنها بالفعل فتاة صغيرة ــ وبدت السنوات العشر التي تفصلهما عن بعض كما لو كانت مئة. سوف يتحطم عالمها إن هي شكت بشيء، وكانت تدافع عن هذا العالم بشجاعة. ربما سترفض أن ترى الحقيقة، حتى فيما لو قابلتها وجهاً لوجه. كيف العمل لكي يجعل الأمر يبدو لها بدون أهمية؟ عليه ألّا يتوسع في الموضوع، كما أن عليه ألّا يقصيه حالاً.

ــ هذا يفسر الكثير إذن.

ــ يفسر ماذا؟

ــ إن الشبه بين دين والكاردينال لا يتعدى الأشياء العامة: القامة، واللون، والبنية.

ــ آه، إن جدتي أخبرتني أن والدنا كان يشبه الكاردينال. قالت جوستين بارتياح.

ــ ألم تري والدك أبداً؟

ــ «لم أر حتى صورة له. لقد افترقت أمي عنه نهائياً قبل مولد دين». وأشارت إلى النادل «إني أريد فنجاناً آخر من القهوة بالقشدة، لو سمحت».

ــ جوستين، أنت متوحشة. لماذا لا تدعيني أطلب لك ذلك؟

ــ اللعنة، كلا لن ادعك! إنني أستطيع تماماً أن أفكر بنفسي، ولست بحاجة إلى أي رجل ليقول لي دائماً ما أريد ومتى أريده، هل فهمت؟

ــ ارفع القناع قليلاً وسوف ترى متمردة. هذا ما قاله دين.

ــ إنه على حق. آه، لو تعلم كم أكره التدليل! إني أحب أن أتصرف بنفسي، ولن أقبل أن يقال لي ما علي أن أفعل! إني لا أطلب مهاودتي ولا أهاود أحداً.

ــ «بإمكاني رؤية ذلك»، قال بجفاف. «ما الذي فعل بك هذا؟ وهل هذا مرض في العائلة؟».

ــ الحقيقة إني لا أعلم. ليس هناك الكثير من النساء في العائلة ليفسروا ذلك، اعتقد. ليس هناك إلا امرأة واحدة فقط في كل جيل. جدتي، وأمي، ثم أنا. ولكن هناك أكوام من الرجال.

ـــ هناك أكوام من الرجال إلا في جيلك أنت ، فليس هناك إلا دين .

ـــ أظن أن ذلك يعود إلى أن أمي تركت أبي ، ولم تبد مهتمة بأحد آخر . ذلك مؤسف على ما اعتقد . إن أمي ربة بيت ممتازة ، وكانت ستجد السعادة لو كان عندها زوج تدلله وتهتم به .

ـــ هل هي مثلك ؟

ـــ لا أظن ذلك .

ـــ بطريقة أخرى : هل تحبان بعضكما ؟

ـــ « أنا وأمي ؟ » ، وابتسمت بدون حقد ، كما كانت أمها ستفعل لو أن أحد سألها إن كانت تحب ابنتها . « لا أظن أننا معجبتان ببعضنا ، ولكن هناك شيء ما بيننا . ربما كانت رابطة الدم فقط ، لست أدري » . وتظللت عيناها . « كنت أرغب دائماً في أن تتكلم معي كما كانت تتكلم مع دين ، وأتمنى أن أتفاهم معها مثل دين ؛ ولكن لا بد أنه كان هناك شيء ينقصها ، أو شيء ينقصني أنا . وأعتقد أن النقص عندي ، فهي ألطف مني بكثير » .

ـــ إني لا أعرفها ، ولهذا فلا أستطيع أن أوافقك ولا أن أناقضك في

الرأي . وإذا كان هذا يعزيك ، فأنا أحب ما أنت عليه . كلا ، لا أريد أن يتغير بك شيء ، حتى هذه النزعة العدائية عندك .

ــ هذا لطف منك ، خاصة بعد أن شتمتك . إنني فعلاً لا أشبه دين ، أليس كذلك ؟

ــ إن دين لا يشبه أيا كان في هذا العالم .

ــ تعني لأنه ليس من هذا العالم ؟

ــ « اعتقد ذلك » . وانحنى إلى الأمام ، خارج الظل ، وسقط على وجهه ضوء الشمعة الصغيرة المثبتة في زجاجة نبيذ . « إنني كاثوليكي ، والدين كان الشيء الوحيد في حياتي الذي لم يخذلني أبداً ، مع أني خنته بشتى الطرق . إني أكره الحديث عن دين لأن قلبي يخبرني أن من الأفضل عدم مناقشة بعض الأمور . حتماً أنك لا تشبهينه في موقفك تجاه الحياة ، أو الله . دعينا من هذا ، موافقة ؟

ونظرت إليه باستغراب :

ــ « لا بأس يا رينر » ، إذا أردت . سأعقد معك اتفاقاً ، ولن نتحدث عن طبيعة دين ، ولا عن الله ، مهما كان الأمر الذي نناقشه .

○

حدث الكثير لراينر مورلنغ هارتهايم منذ ذلك اللقاء مع رالف دو بريكاسار في تموز من عام ١٩٤٣ . فبعد ذلك بأسبوع ، أرسلت فصيلته إلى الجبهة الشرقية ، حيث أمضى بقية الحرب . كان ممزقاً ، ضائعاً ، وصغيراً جداً ، فلم تبلغه أفكار الشباب الهتلري حين كانت في أوجها في بداية الحرب ، وقد واجه نتائج الهتلرية وقدماه غارقتان في الثلوج ، بدون ذخيرة ، وقد تضاءل عدد الجنود فلم يعد هناك أكثر من جندي كل مئة متر . وبعد الحرب ، ظل يتذكر شيئين : المعركة القاسية في البرد القارس ، ووجه رالف دو بريكاسار . الشناعة والجمال ، الشيطان والرحمن . وكان يخبط على صدره ، ويتمتم بالصلوات وقد كان يجن ويتجمد من البرد ، وهو ينتظر دون أي دفاع ، أن يهوي عليهم اتباع خروتشوف من طائرات تطير على مستوى منخفض ، ويهبطوا دون مظلات في ركام الثلج . ولكنه لم يكن يعلم لماذا يصلي : أمن أجل الحصول على طلقات لمسدسه ، أم للهرب من الروس ، أو أيضاً من أجل روحه الخالدة ، أو لذلك الرجل في الكاتدرائية . أو من أجل ألمانيا وعذاب أقل .

وفي ربيع عام ١٩٤٥ كان قد انسحب أمام الروسيين

عائداً عبر بولونيا، وأمامه هدف واحد، مثل بقية رفاقه الجنود؛ بلوغ انجلترا أو ألمانيا التي يحتلها الأميركيون. لأن الروس سوف يرمونه بالرصاص لو قبضوا عليه. ومزق أوراقه نتفاً، وأحرقها، ودفن صليبه المعدني، وسرق بعض الملابس ثم قدم نفسه إلى السلطات البريطانية على حدود الدانمارك. وأرسلوه إلى معسكر للاجئين في بلجيكا، وهناك عاش سنة بكاملها على الخبز والعصيدة، وكان هذا كل ما يستطيع الانجليز المرهقون أن يقدموه كغذاء لآلاف اللاجئين الذين ارتموا عندهم، ينتظرون أن يفهم البريطانيون أن من الأفضل إخلاء سبيل هؤلاء المساكين.

ودعاه المسؤولون عن المعسكر مرتين ليعطوه إنذاراً أخيراً، فقد كان هناك مركب راس في أوستاند، يحمل اللاجئين إلى استراليا، وبإمكانه أن يحصل على أوراق جديدة ويسافر إلى وطنه الجديد مجاناً. ولتسديد دينه، سوف يعمل لحساب الحكومة الاسترالية لمدة سنتين في المجال الذي يختاره حسب كفاءته، وبعد هذا تصبح حياته ملكه وحده. لن يكون عمله عمل عبد، بل سيقبض أجراً عادلاً بالطبع. ولكنه في المرتين استطاع بطلاقة لسانه أن يتجنب هذه الهجرة الإجبارية السريعة. كان قد كره هتلر، ولكنه لم يكره ألمانيا، ولم يكن خجلاً لكونه ألمانياً. فالوطن بالنسبة

له يعني ألمانيا، وقد ملأ هذا الوطن أحلامه لأكثر من ثلاث سنوات. وكان مجرد التفكير بالعيش في مكان لا يستطيع أن يتكلم لغته، لعنة. وهكذا، ففي بداية عام ١٩٤٧، وجد نفسه، وليس في جيبه قرش واحد، في شوارع «آكن»، على استعداد لتجميع أشلاء حياة كان يرغب فيها بكل قواه.

وعاش هو وروحه، ولكن ليس ليعود إلى الفقر والظلام. لأن راينر كان أكثر من شاب طموح، فقد كان عنده ما يشبه العبقرية. وذهب للعمل في شركة «غروندينغ»، ودرس المجال الذي كان يسحره منذ عرف الرادار: الالكترونيك. وتولدت الأفكار في رأسه، ولكنه رفض بيعها لغروندينغ التي دفعت له جزءاً من مليون من قيمتها الحقيقية فقط، ولكنه بدأ يجس السوق بحذر، ثم تزوج أرملة رجل كان قد استطاع الاحتفاظ بمصنعي راديوات، ودخل ميدان هذا العمل بنفسه. ولم يكن مهماً ألّا يكون قد تجاوز العشرين عاماً، فقد كان عقله يشبه عقل رجل أسنّ منه بكثير، وكانت حالة التشويش التي تعيشها ألمانيا بعد الحرب فرصة سانحة للشبان.

وبما أن زواجه كان مدنياً فقط، فقد سمحت له الكنيسة

بالطلاق من زوجته، وفي عام ١٩٥١ دفع لـ «آنيليز هارتهايم» ضعف قيمة مصنعي المذياع اللذين كانت قد ورثتهما عن زوجها الأول، وطلقها. ولكنه لم يتزوج ثانية.

أما كل ما قاساه الصبي في الرعب الصقيعي في روسيا، فلم يجعل منه مخلوقاً بلا روح، أو كاريكاتور انسان، ولكنه أوقف نمو النعومة والرقة عنده، وأبرز بوضوح خصالاً أخرى كان يملكها، كالذكاء، والصلابة، والتصميم. وكان بإمكان الانسان الذي لا يخشى فقدان أي شيء، أن يكسب ما شاء. وليس من الممكن أن تجرح انساناً بلا شعور ـــ أو هكذا قال لنفسه ـــ والواقع أنه كان يشبه بشكل عجيب ذلك الرجل الذي قابله في روما عام ١٩٤٢؛ ومثل رالف دو بريكاسار، كان يعرف أن تصرفه خاطىء، ولكنه لم يتراجع. ولم توقفه معرفته بوجود الشر في نفسه دقيقة واحدة، ولكنه دفع ثمن نجاحه المادي بالألم والعذاب. وكان ذلك يبدو للعديدين وكأنه لا يستحق الثمن الذي دفعه، وأما بالنسبة له فقد كان يستحق أن يدفع ضعف ما دفع من الألم. وذات يوم سوف يدير ألمانيا، ويحولها إلى ألمانيا أحلامه؛ سوف يزيل القوانين الاريانية والمبادىء اللوثرية، ويضع بدلاً عنها قوانين أكثر

تسامحاً بكثير. ولأنه كان عاجزاً عن التعهد بعدم العـودة إلى الخطيئة، فقد رُفِض له الغفران مراراً في كرسي الاعتراف؛ ولكنه، بطريقة ما، استطاع أن يوفق ما بين شخصيته ومعتقده، إلى أن جردته النقود المكدسة، وسلطته المتزايدة شيئاً فشيئاً من شعوره بالذنب، واستطاع أن يتوب فعلاً ويحصل على الغفران.

وأصبح في عام ١٩٥٥ من أثرى وأشد الرجال سطوة في ألمانيا الغربية، ووجها جديداً في مجلس النواب في «بون»، فعاد إلى روما ليبحث عن الكاردينال دو بريكاسار، ويطلعه على نتيجة صلواته. ولم يذكر فيما بعد شيئاً عن تصوراته لما سيكون عليه هذا اللقاء، فمنذ بدايته حتى نهايته كان يشعر بشيء واحد فقط، وهو أنه قد خيب أمل الكاردينال رالف دو بريكاسار به. وكان يعلم لماذا، بدون حاجة للسؤال، ولكنـه لم يكـن يتوقـع ملاحظـة الكاردينال حين كان يهم بالمغادرة:

ـــ كنت قد صليت من أجلك لكي تصبح أفضل مني، لأنك كنت شاباً صغيراً. ليس من غاية تبرر الواسطة، ولكني أظن أن بذور خرابنا تزرع فينا قبل مولدنا.

وعندما عاد إلى غرفته في الفندق، بكى، ولكنه هدأ بعد

قليل وفكر : إن الماضي قد مر وانتهى ، ولكني في المستقبل سأكون كما يتمنى . وأحياناً كان ينجح ، وأحياناً أخرى كان يفشل ، ولكنه لم يكف عن المحاولة . وأصبحت صداقته للفاتيكان أعز شيء في حياته ، وأصبحت روما المكان الذي يطير إليه كلما بدا له أن مؤاساتهم تقف بينه وبين اليأس . مؤاساة . كانت من نوع غريب ، لا علاقة لها بوضع الأيدي على الرأس ، أو بالكلمات الرقيقة ، وإنما من نوع البلسم النابع من الروح ، كما لو كانوا يفهمون ألمه .

وفكر بينما كان يسير في ليل روما الدافىء ، بعد أن أوصل جوستين إلى فندقها ، أنه لن يكف أبداً عن العرفان لها بالجميل . لأنه حين كان يراقبها تمر بامتحان بعد ظهر ذلك اليوم ، شعر نحوها بنوع من الحنان المؤثر . إنها جريحة ، ولكنها غير مكسورة ، الوحشة الصغيرة . وباستطاعتها مجاراتهم في كل شيء ، فهل فطنوا إلى ذلك؟ وقرر أن ما شعر به كان يشبه شعوره نحو ابنة تستحق أن يكون فخوراً بها ، ولكن لم يكن له ابنة . وهكذا فقد سرقها من دين ، وأخذها ليرى ما سيكون رد فعل الأكليروس الثقيل عليها ، وأمام هذا الـ «دين» الجديد الذي لم تره من قبل ، دين الذي لم يعد ، ولا يمكنه أن يكون بعد الآن جزءاً كاملاً من حياتها .

والشيء الجميل بشأن إلهه الشخصي ـ تابع أفكاره ـ هو أن باستطاعته مغفرة كل شيء، باستطاعته أن يغفر لجوستين إنكارها الطبيعي لله، وله لأنه أغلق الباب أمام عواطفه إلى أن يحين الوقت المناسب لكي يفتحه من جديد. ولكنه كان قد شعر بالرعب في بعض الأحيان، إذ ظن أنه قد فقد مفتاح هذا الباب إلى الأبد. وابتسم، ورمى بسيغارته بعيداً. المفتاح... حسناً، إن المفاتيح تأخذ أحياناً أشكالاً غريبة. ربما كانت كل شعرة في كل خصلة من هذا الشعر الأحمر ضرورية لفتح القفل، وربما كان الله قد ناوله مفتاحاً أحمر في غرفة مليئة بالأرجوان.

يوم متلاش، انتهى ثانية. ولكنه عندما نظر إلى ساعته رأى أن الوقت لا يزال مبكراً، وفهم أن الرجل الذي يملك بيده كل السلطة، الآن بينما يستلقي الأب الأقدس منتظراً الموت، لا يزال ساهراً، يشارك هرته عاداتها الليلية. وتلك الحشرجات المروعة تملأ الغرفة الصغيرة في كاستيل غوندولفو، وتقلص الوجه النحيل المتقشف الذي حمل التاج كل هذه السنوات. كان ينازع، وكان «بابا» عظيماً. لا يهم ما قيل عنه، فقد كان عظيماً. وهل يهم إن كان يحب الألمان، أو يحب أن يسمع الألمانية من حوله؟ ليس لراينر أن يحكم عليه.

ولكن ما أراد راينر معرفته لم يكن منبعه كاستل غوندولفو. وصعد الدرج الرخامي إلى الغرفة القرمزية ليتحدث مع فيتوريو سكاربانزا، كاردينال دي كونتيني فيركيزي، الذي ربما أصبح البابا الجديد، وربما لم يصبح. ولسنوات ثلاث، كان قد راقب هاتين العينين السوداوين المليئتن حباً وحكمة، ومن الأفضل البحث عن الأجوبة عنده وليس عند الكاردينال دو بريكاسار.

○

ــ «لم أفكر لحظة إني سأسمع نفسي وأنا أقول هذا، ولكن الحمد لله أننا ذاهبان إلى دروغيدا». قالت جوستين وهي ترفض أن ترمي قطعة نقود في نافورة تريفي. «كان من المفروض أن نتجول في فرنسا واسبانيا، وعوضاً عن ذلك فما زلنا في روما وإنا عديمة النفع تماماً مثل السرّة».

ــ «هم، وهكذا فأنت تعتبرين أن السرّة بدون نفع؟ كان هذا رأي سقراط أيضاً، على ما أذكر». قال راينر.

ــ سقراط؟ لم أكن أعلم ذلك! عجيب، كنت أظن إني قرأت كل شيء عن أفلاطون أيضاً»، واستدارت لتنظر إليه وهي تفكر

أن الملابس الخفيفة التي يشتريها في روما تلائمه أكثر من اللباس الرسمي المتزمت الذي كان يرتديه عندما يذهب إلى الفاتيكان .

ـــ الحقيقة إنه كان مقتنعاً تمام الاقتناع أن لا فائدة من السرة . ولشدة اقتناعه بذلك ، وليبرهن عن صحة وجهة نظره ، فقد استأصل سرته ورماها بعيداً .

وتقلصت شفتاها :

ـــ وماذا حدث ؟

ـــ لقد سقط ثوبه الروماني الفضفاض .

وقهقهت جوستين :

ـــ « مضحك . لم يكن الأثينيون يرتدون الثوب الروماني في ذلك الوقت ، ولكن عندي إحساساً مخيفاً أن هناك أمثولة في قصتك هذه » ، وعاد وجهها إلى جديته . « لماذا تكلف نفسك هذا العناء معي يا رينر » .

ـــ عنيدة ، لقد أخبرتك مرات عديدة أن اسمي يلفظ « راينر » وليس « رينر » .

ـــ « آه ، ولكنك لا تفهمني » ، قالت وهي تنظر مفكرة إلى الماء البراق المتساقط في الحوض القذر المليء بقطع النقود القذرة . « هل ذهبت مرة إلى استراليا ؟ »

وهز بكتفيه دون كلمة ، ثم قال :

ــ لقد أوشكت أن أذهب مرتين ، ولكني استطعت تجنب ذلك .

ــ حسناً ، لو أنك ذهبت لفهمت . إن اسمك سحري بالنسبة للاستراليين عندما يلفظ بطريقتي . رينر ، رين . المطر . الحياة في الصحراء .

وأفلتت السيغارة منه في ذهوله :

ــ جوستين ، إنك لم تقعي في غرامي ، أليس كذلك ؟

ــ يا لأنانية الرجال ! إنني أكره أن أخيب أملك ، ولكني لم أقع في حبك ، ثم ، وكأنها تريد أن تخفف من قسوة كلامها ، وضعت يدها في يده وشدت عليها :

ــ هناك شيء أجمل من الحب .

ــ وماذا هنالك أجمل من الوقوع في الحب ؟

ــ كل شيء تقريباً على ما اعتقد . أنا لا أريد أن « احتاج » إلى أحد بهذه الطريقة . أبداً .

ــ ربما كنت على حق ، فذلك عائق عندما لا يأتي في الوقت المناسب . ولكن ما الشيء الأجمل ؟

ـ «أن تعثر على صديق»، وشدت يده بيدها. «أنت صديقي، أليس كذلك؟»

ـ «نعم». وابتسم ورمى بقطعة نقود في النافورة. «لا بد أني رميت فيها أكثر من ألف مارك ألماني خلال كل هذه السنوات، وذلك فقط لكي اطمئن نفسي إني سأستمر في الشعور بدفء الجنوب. وأحياناً، حين تعاودني الكوابيس، أشعر بالبرد القارس».

ـ «يجب أن تعرف دفء الجنوب الحقيقي»، قالت جوستين: «خمس وأربعون درجة في الظل، هذا إذا استطعت العثور على بقعة ظليلة».

ـ «لا عجب إذن إذا كنت لا تحسين بالحر»، وضحك ضحكته الصامتة، كالعادة، أثر من آثار الماضي حيث كان الضحك بصوت مرتفع يعتبر تحدياً للقدر. «والحر هو المسؤول عن كونك متحجرة الفؤاد».

ـ إن انجليزيتك عامية ولكنها اميركية. كنت أظن أنك تعلمت الانجليزية في إحدى الجامعات البريطانية الممتازة.

ـ كلا، لقد بدأت أتعلم الانجليزية من الانجليز والاسكوتلنديين في معسكر بلجيكي، ولم أكن أفهم كلمة منها إلا عندما كنت

أتكلمها مع الرجل الذي علمني إياها . وهكذا فعندما رجعت إلى ألمانيا ، بدأت أشاهد كل الأفلام السينمائية الممكنة ، واشتريت الاسطوانات المتوفرة باللغة الانجليزية ، وهي تسجيلات لممثلين اميركيين ، وكنت أديرها بلا انقطاع في البيت حيث توصلت إلى أن أتكلم ما فيه الكفاية حتى أتعلم المزيد .

كانت قد خلعت حذاءها كالعادة ، وكان ينظر إليها برعب وهي تمشي بقدميها العاريتين في الساحات المرصوفة بالحجارة ، وعلى الأسفلت الذي كانت حرارته كافية لقلي بيضة .

ـــ البسي حذاءك يا صغيرة .

ـــ «إنني استرالية ، وأقدامنا هناك عريضة لا ترتاح في الحذاء . وبما أن المناخ ليس بارداً هناك فعلاً ، فمن عادتنا أن نمشي حفاة كلما استطعنا ذلك . بإمكاني أن أسير في مرعى محشوٍّ بالأشواك ، واستأصلها من قدمي دون أن أشعر بها» . قالت بفخر . «بإمكاني ربما أن أمشي على الجمر» . ثم غيرت الحديث فجأة : «هل كنت تحب زوجتك يا رين ؟»

ـــ كلا .

ـــ وهل كانت تحبك ؟

ـــ نعم ، فلم يكن عندها سبب آخر للزواج مني .

ـــ مسكينة ! لقد استخدمتها ثم رميتها .
ـــ وهل خاب أملك لذلك ؟
ـــ كلا ، لا أعتقد . إني بالعكس أعجب بك في الواقع لما قمت به . ولكني أشعر بالأسف الشديد من أجلها ، وذلك يجعلني أكثر تصميماً على ألّا أقع في الخساء نفسه الذي وقعت به .
ـــ أنت تعجبين بي ؟ كانت لهجته تدل على الارتباك والدهشة .
ـــ ولم لا ؟ أنا لا أرى فيك الأشياء التي رأتها هي ، بدون شك . إنك تعجبني ، وأنت صديقي . أما هي فكانت تحبك ، وقد كنت زوجها .

فأجاب بحزن :

ـــ اعتقد يا عزيزتي أنه لا يمكن للرجال ذوي الطموح أن يكونوا لطفاء مع زوجاتهم .
ـــ ذلك لأنهم يقعون عادة على زوجات بدون أية شخصية ، من نوع : «نعم يا حبيبي ، ولا يا حبيبي ، ثلاثة أكياس مليئة يا حبيبي ، وأين تحب أن أضع هذا ؟» جبنة قاسية . لو كنت أنا زوجتك ، لكنت قلت لك أن تذهب وتشنق نفسك ، ولكني أراهن أنها لم تفعل ذلك أبداً .

وارتعشت شفتاه :

ــ كلا ، مسكينة آنيليز ، لقد كانت من جبلة الشهداء ، وهكذا فدفاعها لم يكن مباشراً ، ولم تعبر عنه بطريقتك اللذيذة هذه . ليتهم ينتجون بعض الأفلام الاسترالية لأتعلم البعض من تعابيركم ، لقد فهمت قصة « نعم يا حبيبي ، ولا يا حبيبي » ، ولكن ليس عندي أية فكرة عن معنى « جبنة قاسية » .

ــ « ذلك يعني « حظ عاثر » ، شيء من هذا القبيل ، ولكن التعبير أقسى من تفسيره » . وتعلقت أصابع قدمي جوستين العريضتين بحافة النافورة ، بقوة ، وارتدت إلى الخلف في وضع متقلقل ، وانتصبت واقفة بسهولة . « حسناً ، لقد كنت لطيفاً معها في النهاية . لقد تخلصت منها . فهي في حال أفضل بعيداً عنك ، مع أنها لا تصدق ذلك . أما أنا فبإمكاني الاحتفاظ بك لأني لن أتعلق بك » .

ــ متحجرة . أنت فعلاً متحجرة يا جوستين . وكيف عرفت هذه الأشياء عني ؟

ــ لقد سألت دين . وبالطبع ، وبما أنه دين ، فلقد سرد لي الوقائع لا أكثر ، واستنتجت الباقي بنفسي .

ــ من خزان تجربتك الماضية الضخم ، بدون شك . كم أنت

غشاشة. يقال أنك ممثلة جيدة جداً، ولكني أظن ذلك غير معقول. كيف بإمكانك أن تعبري عن عواطف لم تشعري بها أبداً؟ فأنت متأخرة عاطفياً أكثر ممن لم يتجاوزوا الخامسة عشرة.

وقفزت نازلة، ثم جلست على الحائط وانحنت لتلبس حذاءها، وهي تحرك أصابع قدميها بكآبة:
ــ اللعنة، لقد تورمت قدماي.

ولم تكن كلماتها دليلاً على رد فعل غاضب، أو عن السخط، كما لو أنها لم تسمع أبداً الجزء الأخير من عبارته. وكما كان يحدث عندما تتلقى وابلاً من الانتقادات، فقد كانت تغلق في داخلها قدرتها على السمع عندما ترغب في ذلك. وكم سمعت! والأعجوبة أنها لم تكره رين.
ــ «هذا سؤال يصعب الجواب عليه»، قالت. «لا بد أني قادرة على القيام به وإلاّ لما كنت ممثلة جيدة، أليس ذلك صحيحاً؟ ولكن الأمر يشبه... الانتظار. وأعني بذلك حياتي خارج المسرح. إني أحتفظ بنفسي، ولا أستطيع تبذيرها خارج المسرح. نحن لا نستطيع أن نعطي إلا كمية محدودة، أليس

كذلك؟ وعلى المسرح، أنا لست أنا، أو بشكل أصح، أنا مجموعة من الـ «أنا»، فنحن كلنا لا بد وأن نكون خليطاً من الشخصيات، ألا تعتقد ذلك؟ والتمثيل بالنسبة لي قبل كل شيء، وبشكل أساسي، شيء عقلي، وبعد ذلك يأتي دور الشعور. والأول يحرر الثاني ويصقله. ليس الأمر بهذه البساطة، أن تبكي وتصرخ، وتضحك ضحكة مقنعة. إنه شيء رائع. أن تتقمص شخصية أخرى، شخصية انسان آخر كان يمكن أن أكونه لو توفرت الظروف. هذا هو السر. ليس أن أكون شخصاً آخر، وإنما أن أدمج الشخصية بذاتي كما لو كنت أنا هي، وهكذا تصبح هي أنا». وكما لو كان انفعالها الكبير يجعلها عاجزة عن تحمله بهدوء، فقد قفزت على قدميها. «تصور يا رين! بعد عشرين سنة من الآن، سأكون قادرة على أن أقول لنفسي إني قد قتلت، وانتحرت، وجننت، وانقذت رجالاً أو حطمتهم. آه! ليس هناك من حدود للإمكانات».

ـــ «وستكون كل هذه الشخصيات أنت»، ونهض وأخذ يدها ثانية. «نعم، أنت محقة تماماً يا جوستين، ليس بإمكانك تبذيره خارج المسرح. ذلك ممكن لأي انسان آخر، أما بالنسبة لك، فلست متأكداً».

الفصل الثامن عشر

لو ترك سكان دروغيدا العنان لمخيلتهم، لاستطاعـوا أن يتصوروا أن روما ولندن لا تبعدان عنهم أكثر من سيدني؛ وإن دين وجوستين، اللذين كانا قد كبرا، ما زالا طفلين صغيرين يذهبان إلى المدرسة الداخلية. وطبعاً، لم يكن بإمكانهما أن يأتيا إلى البيت في كل العطل الصغيرة، ولكنهما كانا يمضيان في دروغيدا شهراً كل سنة خلال العطلة الصيفية، وكان ذلك عادة في آب أو أيلول. كان الشابان يبدوان وكأنهما لم يتغيرا، صغيرين جداً. وما الفرق إذا كانا في الخامسة عشرة والسادسة عشرة، أو في الثانية والعشرين والثالثة والعشرين؟ وإذا كان سكان دروغيدا ينتظرون ذلك الشهر بفارغ الصبر في بدء الربيع، فقد كانوا يمتنعون عن إلقاء عبارات من نوع: «حسناً، لم يبق إلا بضعة أسابيع! أو،

يا للسماء، لم يمض شهر على سفرهما!». ولكن عندما كان شهر تموز يقترب، كان الجميع يصبحون أشد حيوية، وترتسم ابتسامة دائمة على كل وجه. وبدءاً من المطبخ، حتى المراعي، ومروراً بغرفة الجلوس، كانت الهدايا والحفلات موضوع حديث الجميع.

وخلال ذلك الوقت، كانت هناك الرسائل، وكانت هذه تكشف غالباً عن شخصية مؤلفيها، ولكنها في بعض الأحيان، كانت تتعاكس وتلك الشخصية. فمن الطبيعي مثلاً أن يفكر الانسان أن دين سيكتب بانتظام ودقة، بينما ستكون جوستين عدائية كعادتها، وإن «في» لن تكتب مطلقاً، وإن رجال العائلة سيكتبون مرتين في السنة، وإن ميغي ستهب ثروة إلى مكتب البريد لأنها سترسل كل يوم رسالة، على الأقل لدين؛ وإن السيدة سميث وميني وكات سيرسلن بطاقات على أعياد الميلاد، وأن آن مولر ستكتب لجوستين أكثر مما ستكتب لدين.

كان دين حسن النية، والواقع أنه كان يكتب بشكل منتظم، ولكن المشكلة الوحيدة هو أنه كان ينسى أن يضع رسائله في البريد، والنتيجة أنه كان يمر شهران أو ثلاثة دون كلمة منه، ومن ثم، كانت دروغيدا تتلقى دزينة من الرسائل دفعة واحدة. وأما

جوستين الفصيحة، فقد كانت تكتب رسائل طويلة، كانت عبارة عن فيض من داخلها، رسائل وقحة تجعل الاحمرار يعلو الخدود عند قراءتها، والقلق يغلي في النفوس، ولكنها كانت رسائل مذهلة على أية حال. ولم تكن ميغي تكتب إلا مرة كل أسبوعين، لولديها الاثنين. ومع أن جوستين لم تتلق أية رسالة من جدتها، كانت هذه تكتب لدين غالباً؛ وكان يتلقى أيضاً رسائل من أخواله بشكل منتظم، يحدثونه فيها عن الأرض والقطعان، وعن صحة نساء دروغيدا؛ ولكنهم لم يكونوا يكتبون لجوستين بنفس الطريقة التي كانت ستذهلها. أما بالنسبة للبقية، وأعني السيدة سميث وميني وكات والسيدة مولر، فقد كانت رسائلهم كما يتوقعها الانسان.

كانت قراءة الرسائل ممتعة، أما كتابتها فهمّ كبير. هكذا كان الأمر للجميع ما عدا جوستين، التي كانت ساخطة لأنها لا تتلقى رسائل من النوع الذي تحبه: سميكة، طويلة، وصريحة. ومن جوستين كان سكان دروغيدا يتلقون معظم معلوماتهم عن دين، لأن رسائله هو لم تكن تعطي فكرة واضحة عنه كما كانت تفعل رسائل جوستين. كتبت مرة تقول:

«وصل رين إلى لندن بالطائرة اليوم، وأخبرني بأنه رأى دين

في روما الأسبوع الماضي. حسناً، إنه يرى دين أكثر مني بكثير، إذ أن روما هي إحدى النقاط الرئيسية في برنامج تنقلاته، بينما تأتي لندن في أسفل القائمة. ولكن علي أن أعترف بأن رين هو السبب الأساسي لذهابي إلى دين في روما كل عام قبل أن نأتي إلى البيت. ودين يحب أن يأتي إلى لندن، ولكنني لا أدعه يفعل ذلك عندما يكون رين في روما. إنه واحد من الأشخاص القلة الذي يمكنه أن يتحداني، وأتمنى لو أستطيع رؤيته أكثر».

«ورين أفضل حظاً مني، في مجال معين، فباستطاعته هو أن يقابل زملاء دين، ولكن ذلك محرم علي أنا، إذ أن دين يعتقد أني سأغتصبهم منذ رؤيتي لهم. أو لعله يفكر أنهم سيغتصبونني، أيه! لن يحدث هذا إلا إذا رأوني في ثوبي الجديد من انتاج شارميان. إنه مذهل يا ناس، مذهل حقاً، وعلى آخر طراز، وهو عبارة عن دائرتين صغيرتين من البرونز تغطيان صدري العجوز، وأكوام من السلاسل، إضافة إلى ما اعتقد أنه حزام للعفة يحتاج إلى فتاحة علب ضخمة لفتحه. وعندما أضع الشعر المستعار الأسود، وأغطي جسمي بمسحوق غامق، وألبس هذه القطع المعدنية الصغيرة، فإني أبدو رائعة».

«أين وصلت ؟؟؟ آه نعم، رين كان في روما في الأسبوع الماضي حيث قابل دين وزملاءه. وقد خرج الجميع في جولة. إن رين يصر دائماً على الدفع حتى لا يضايق دين. كان ذلك ليلة لا تنسى، بدون نساء بالطبع، ولكن كل شيء آخر كان موجوداً. هل تتصورين دين في إحدى الخمارات الرومانية، وقد ركع على ركبتيه يلقي شعراً أمام مزهرية مليئة بالنرجس: أيها النرجس الأشقر، سوف نبكي على الفراق قريباً»؟ ولقد حاول خلال عشر دقائق متوالية أن ينطق بالكلمات في وضعها الصحيح، ولم يستطع، فتراجع عن مشروعه، وعوضاً عن ذلك وضع بين أسنانه إحدى النرجسات، وقدم للحضور رقصة. هل تستطيعون أن تتصوروا أن بإمكان دين أن يفعل هذا؟ يقول رين إن ذلك ضروري وليس به أي ضرر، وإن العمل الكثير بدون أية تسلية... الخ.. وإذا كانت النساء شيئاً مستحيلاً تماماً، فأفضل شيء هو سكرة مكينة، أو هذا على الأقل رأي دين. ولكن لا تفكروا أن ذلك يحدث كل يوم، كلا، وأظن أنه عندما يحدث، فذلك يكون بقيادة رين، وباستطاعته أن يراقب عن كثب هذه الشلة من الأغبياء الساذجين. لقد ضحكت كثيراً وأنا أتصور هالة أخي دين وهي تسقط عن رأسه بينما كان يرقص «الفلامنكو» وبين أسنانه نرجسة».

وأمضى دين في روما ثماني سنوات قبل سيامته كاهناً، وفي بدايتها كانت هذه السنوات تبدو طويلة لا نهاية لها. ولكنها في الواقع مرت بأسرع مما كان يتصور سكان دروغيدا. ولم يكونوا على علم بما سيفعله بعد سيامته، إلا أنهم كانوا يتوقعون عودته إلى استراليا. لكن شعوراً كان يخامر ميغي وجوستين بأنه سيرغب في البقاء بإيطاليا، وكان بإمكان ميغي أن تخفف من حدة هذا الشعور حين تتذكر سروره عندما كان يعود إلى البيت كل عام. فقد كان استراليّاً، وسوف يرغب في الرجوع إلى الوطن. أما بالنسبة لجوستين، فالأمر كان مختلفاً، ولم يحلم أحد قط أنها ستعود إلى الوطن نهائياً. فقد كانت ممثلة، وكانت مهنتها ستتحطم في استراليا، بينما كان بإمكان دين أن يتابع مهنته في أي مكان وبالحماسة نفسها.

وهكذا، ففي السنة الثامنة لم يكن هناك أية مشاريع للأولاد عند قدومهم لقضاء عطلتهم السنوية؛ وعوضاً عن ذلك فقد كان سكان دروغيدا يخططون لرحلتهم إلى روما لحضور حفل سيامة دين.

○

ـــ «لقد أخفقنا تماماً»، قالت ميغي.
ـــ «عفواً يا عزيزتي؟»، سألتها آن.

كانت المرأتان جالستين تقرآن في ركن دافىء من الشرفة، ولكن كتاب ميغي كان قد سقط بإهمال في حجرها، وكانت تنظر بشرود إلى ذعّرتين تنبشان الأرض بمنقاريهما. كانت السنة ماطرة، والديدان وفيرة في كل مكان، والعصافير السمينة سعيدة كما لم يرها أحد من قبل. وكانت الزقزقة تملأ الجو من الفجر وحتى حلول الظلام.

ـــ «لقد قلت أننا قد اخفقنا تماماً»، قالت ميغي ثانية بصوت يشبه نعيق الغراب. «إنها مزحة كئيبة. كل تلك الوعود! من كان يتوقع هذا عند وصولنا إلى دروغيدا في عام ١٩٢١؟».

ـــ ما الذي تعنيه؟

ـــ ستة صبيان، وأنا، ثم صبيان آخران في السنة التالية. وماذا كنت تتوقعين؟ دزينات من الأولاد، وحوالي الخمسين حفيداً! ولكن انظري إلينا. لقد مات هال وستو، ولا يبدو أن أحداً ممن بقوا على قيد الحياة ينوي الزواج على الإطلاق؛ وأما أنا، الوحيدة التي لا تستطيع أن تورّث اسم العائلة لابنائها، فقد

استطعت إنجاب ورثة لدروغيدا، ولكن هذا لم يكن ليسعد الآلهة، أليس كذلك؟ ولد وابنة، ويمكن أن تتوقعي من هذا عدة أحفاد. ولكن ما الذي حدث؟ ابني اعتنق الكهنوت، وابنتي وجدت لنفسها مهنة عانس. وطريق آخر مسدود أمام دروغيدا.

ــ إني لا أرى غرابة في ذلك، فماذا تنتظرين من أخوتك على كل حال؟ إنهم عالقون هنا، وخجولون كالكنغر، وهم لم يقابلوا أبداً الفتاة التي كان يمكنهم أن يتزوجوها أما جيمس وباتسي فقد دمغتهما الحرب؛ هل تتصورين أن جيمس سيتزوج وهو يعلم أن باتسي عاجز عن ذلك؟ إنهما يحبان بعضهما البعض كثيراً، ولهذا السبب لن يتزوج جيمس. وفضلاً عن ذلك فالأرض متطلبة جداً، وهي تمتص من الرجال كل ما يملكون، ولا أظن أنهم يملكون الكثير. وأقصد من الناحية الجسدية. ألم تلاحظي ذلك أبداً يا ميغي؟ دعيني أقدم الأمر ببساطة وأقول لك أن عائلتكم لا تملك أية غريزة جنسية تقريباً. وهذا الشيء صحيح أيضاً فيما يتعلق بدين وجوستين. واقصد بذلك أن هناك أشخاصاً يشعرون بحاجة ماسة للجنس، أما في عائلتك،

فلا. لكن، ربما تزوجت جوستين، فهناك ذلك الشاب الألماني، راينر؛ إنها تبدو شديدة الولع به.

ـ «لقد وضعت إصبعك على الجرح»، أجابت ميغي وصوتها لا يزال ينم عن قلقها. «إنها تبدو شديدة الولع به. هذا كل شيء. على كل، أنها تعرفه منذ سبع سنوات، ولو رغبت في الزواج منه لفعلت ذلك منذ أجيال».

ـ «حقاً؟ إني أعرف جوستين تمام المعرفة»، أجابت آن بثقة، لأنها كانت فعلاً تعرف جوستين تماماً، وأفضل من أي مخلوق آخر في دورغيدا، حتى من ميغي و «في». «إني أعتقد أنها مذعورة من توريط نفسها في ذلك النوع من الحب الذي يتطلبه الزواج، والحق إني معجبة براينر. يبدو أنه يفهم طريقة تفكيرها. آه، أنا لا أعني أنه يحبها بالتأكيد، ولكن إذا كان الأمر كذلك فهو على الأقل ذكي، وسينتظر حتى تحين اللحظة المناسبة». وانحنت إلى الأمام وقد سقط كتابها المنسي على بلاط الشرفة. «آه، اصغي إلى ذلك العصفور، إن غناءه أعذب من غناء العندليب»، ثم أضافت ما كانت تريد أن تقوله منذ أسابيع «ميغي، لم لا تذهبي إلى روما لحضور سيامة دين؟ أليست مناسبة فريدة؟ سيامة دين».

ـــ «لن اذهب إلى روما»، قالت ميغي وقد شدت على أسنانها. «إني لن أترك دروغيدا ثانية أبداً».

ـــ ميغي، لا تقولي هذا! ليس بإمكانك أن تخذليه هكـذا. اذهبي، أرجوك! وإذا لم تذهبي فلن يكون هناك أياً من نساء دروغيدا، أنت الوحيدة الشابة التي يمكنها أن تأخذ الطائرة. وصدقيني، لو كنت واثقة من أن جسدي العجوز سوف يحتمل هذه الرحلة، لسافرت حالاً.

ـــ أأذهب إلى روما لأرى رالف دو بريكاسار ورياءه؟ إني أفضل الموت على ذلك.

ـــ ميغي، ميغي! لماذا تلقين عبء حرمانك عليه أو على ابنك؟ لقد قلت ذات مرة إنها غلطتك أنت. أرجوك، انسي كبرياءك واذهبي إلى روما.

ـــ «المسألة ليست مسألة كبرياء»، قالت وهي ترتعش. «آه يا آن. إن الذهاب إلى هناك يرعبني، لأني لا أصدق ما يحدث، لا أصدق! إن جسمي يقشعر عندما أفكر به».

ـــ وماذا لو لم يرجع إلى الوطن بعد سيامته؟ هل فكرت بذلك أبداً؟ إنه لن يحصل على إجازات طويلة كما كانت الحال عندما كان في المعهد، وهكذا فلو قرر البقاء في روما، عليك أن

تذهبي أنت إلى هناك إذا أردت رؤيتـه. اذهبـي إلى رومـا يا ميغي.

ــ لا أستطيع. لو تعلمين مقدار رعبي! إنها ليست الكبرياء، ولا انتصار رالف الجديد علي، ولا أي شيء من الأشياء التي أقولها لأضع حداً لأسئلة الآخرين. والله يعلم أني افتقد الاثنين، حتى إن بإمكاني أن أزحف على ركبتي لأراهما لو علمت دقيقة واحدة أنهما يرغبان بي. آه، إن دين سيسر برؤيتي، أما رالف؟ لقد نسي مجرد وجودي. إني خائفة، صدقيني. إنني أشعر في أعماقي أن شيئاً سيحدث لو ذهبت إلى روما. ولذا فلست ذاهبة.

ــ ما الذي سيحدث بحق السماء؟

ــ لست أدري. ولو كنت أعلم لكان بإمكاني مقاومـة هذا الشيء. إنه مجرد شعور، فكيف أقاتل الشعور؟ لأن هذا كل ما هنالك. نوع من الأحساس الداخلي. كما لو أن الآلهة تتجمع.

وضحكت آن:

ــ إنك قد أصبحت امرأة عجوزاً حقاً يا ميغي. يكفي هذا!

ــ لا أستطيع، لا أستطيع! وأنا عجوز حقاً.

ـــ هراء، فأنت لا زلت في أوج عمرك. وصحتك جيدة كي لا ترددي في ركوب الطائرة.

ـــ آه، دعيني وشأني! قالت ميغي بعنف، وتناولت كتابها.

○

أحياناً، كانت الحشود تتجه نحو روما وهي تقصد هدفاً معيناً. ليس للسياحة، ولا للتفرج على ما تبقى من عظمة الماضي، ولا لملء وقت فراغ وهي في طريقها من منطقة إلى أخرى في البلاد. إنما كانت هذه حشوداً من نوع خاص، يجمعها شعور واحد، وهي تكاد تتفجر اعتزازاً، إذ أنها أتت لرؤية ابن، أو ابن أخ، أو ابن عم، أو أيضاً صديق يسام كاهناً في الكنيسة الضخمة الأكثر قدسية في العالم. وكان أفراد هذه الجموع يقيمون في نزل متواضع، أو في فندق فخم، أو في منزل صديق أو قريب. ولكنهم كانوا متّحدين تماماً، يجمع السلام فيما بينهم، ويجمعهم مع العالم قاطبة. وكانوا بالطبع يقومون بزيارة الأماكن المشهورة: متحف الفاتيكان، وكنيسة السكستين في نهاية المطاف، وكأنها مكافأة لهم على صبرهم؛ والفوروم، والكوليزيوم، والطرق الآبية، والمدرج الاسباني، ونافورة تريفي الجشعة، والاستعراضات الصوتيةـــ

الضوئية. ويحاولون ملء وقتهم بانتظار اليوم المرتقب. وكان الأب الأقدس يعطيهم امتيازاً خاصاً إذ يستقبلهم شخصياً، وكان ذلك أروع بكثير مما تقدمه لهم روما ومناظر روما.

وهذه المرة لم يكن دين ينتظر جوستين على المحطة، كما في السابق؛ فقد كان في خلوة روحية. وعوضاً عنه، كان راينر مورلنغ هارتهايم يزرع الرصيف القذر بخطاه، ذهاباً وإياباً، مثل حيوان ضخم. ولم يستقبلها بقبلة، فهو لا يفعل ذلك أبداً، بل اكتفى بأن أحاط كتفيها بساعده وشدها إليه.

ـــ إنك تشبه الدب نوعاً ما. قالت جوستين.

ـــ الدب؟

ـــ لقد فكرت عندما رأيتك للمرة الأولى أنك الحلقة المفقودة، ولكنني قررت أخيراً أنك أقرب إلى الدب منك إلى الغوريلا. كما أنه ليس من اللطف أبداً أن أشبهك بالغوريلا.

ـــ وهل الدببة لطفاء؟

ـــ «حسناً، إنهم يقتلون ضحيتهم بسرعة الغوريلا نفسها، ولكن عناقهم أكثر حناناً». وشبكت ذراعها بذراعه وهي تحاول أن تجاري خطواته، لأنها كانت بطوله تقريباً. «كيف حال دين؟

هل رأيته قبل أن يذهب لعزلته الروحية؟ كان بإمكاني ذبح كلايد لأنه لم يسمح لي بالسفر قبل هذا ».

ــ دين لا يزال كما كان.

ــ ألم تستطع إغواءه؟

ــ أنا؟ كلا، بالتأكيد. إنك تبدين جميلة يا عزيزتي.

ــ لقد فعلت كل ما كان بوسعي، وقمت بزيارة كل خياطي لندن. هل تعجبك تنورتي القصيرة الجديدة؟ إنهم يسمونها الـ « ميني ».

ــ امشي أمامي لأعطيك رأيي.

كان ذيل التنورة الحريرية يصل إلى منتصف فخذيها. ولفت التنورة حين استدارت وعادت إليه:

ــ ما رأيك يا رين؟ إنها فاضحة؟ لقد لاحظت إنه ليس في باريس من يرتدي ثياباً قصيرة بهذا الشكل حتى الآن.

ــ ذلك يبرهن على شيء يا عزيزتي: إن الفضيحة هي في أن ترتدي تنورة أطول من هذه بسنتمتر واحد وأنت تملكين تلك الساقين الرائعتين. ولا أشك في أن الرومانيين سيوافقونني على رأيي.

ــ وذلك يعني أن مؤخرتي ستصبح سوداء وزرقاء في أقل من ساعة . لعنهم الله ! ولكن هل تعلم يا رين ؟

ــ ماذا ؟

ــ لم يحدث أن قرصني كاهن لحد الآن . وقد كنت أدخل وأخرج من الفاتيكان كل هذه السنوات بدون قرصة واحدة تطمئنني ، ففكرت أني لو ارتديت تنورة ميني ، ربما تمكنت من إغواء أحد أمراء الكنيسة .

ــ سوف تغوينني أنا . قال مبتسماً .

ــ لا ، حقاً ؟ بهذا الثوب البرتقالي ؟ كنت أظن أنك تكره رؤيتي بالبرتقالي وخاصة أن شعري برتقالي اللون .

ــ ذلك اللون المشتعل يلهب الأحاسيس .

ــ « إنك تمزح » ، قالت باشمئزاز وهي تصعد إلى المرسيدس التي كانت تحمل راية ألمانية تخفق على أحد جناحيها . « متى حصلت على هذا العلم الصغير ؟ »

ــ عندما حصلت على مركزي الجديد في الحكومة .

ــ لا عجب إذن أن صحيفة « نيوز أوف ذا وورد » قد كتبت عني مقالاً . هل قرأته ؟

ــ تعلمين أني لا أقرأ السخافات أبداً يا جوستين .

ـ «ولا أنا، لقد أراني إياه أحدهم»، قالت وهي ترفع صوتها وتتكلم بلهجة متكلفة تهكمية: «من هي الممثلة الاسترالية المعروفة، ذات الشعر الجزري اللون والتي تربطها علاقات ودية مع أحد أعضاء حكومة ألمانيا الغربية؟».

ـ «إن الصحفيين لا يعلمون عمر علاقتنا». قال بهدوء وهو يمد ساقيه ليجلس براحة.

ونظرت جوستين برضى إلى ملابسه، بسيطة، إيطالية التفصيل. هو أيضاً كان يتبع الموضة الأوروبية حتى إنه كان يتجرأ أحياناً ويرتدي واحداً من تلك القمصان الشبكية التي تسمح للذكور الإيطاليين بعرض صدورهم الكثة الشعر.

ـ يجب ألاّ ترتدي أبداً الطقم وربطة العنق. قالت فجأة.

ـ لا؟ لم لا؟

ـ لأن ما ترتديه اليوم هو النوع الذي يلائمك، والسلسلة والميدالية الذهبية والصدر المشعر. فالطقم يجعلك تبدو وكأن صدرك على وشك الانفجار، بينما الحقيقة ليست كذلك.

ونظر إليها بدهشة، ثم تحول التعبير في عينيه إلى تعبير متيقظ، إلى ما تسميه جوستين: «نظرة التفكير المركز»، ثم قال: «هذا شيء جديد».

ـــ ما الشيء الجديد؟

ـــ منذ سبع سنوات وأنا أعرفك، ولم تبدي ملاحظة على مظهري إلا لكي تنتقديه.

ـــ «آه يا إلهي، صحيح؟» سألت وهي تبدو خجلة بعض الشيء. «يا للسموات، لقد كنت أفكر به غالباً إذا لم يكن دوماً». ولسبب ما أضافت بسرعة «لقد كنت أفكر ببعض الأشياء مثل هيئتك فرضاً عندما ترتدي طقماً».

ولم يجب، بل كان يبتسم كما لو مرت برأسه فكرة ظريفة.

كانت هذه النزهة في السيارة مع راينر هي اللحظة الوحيدة الهادئة خلال الأيام التي تلت. فبعد أن عادوا من زيارة الكاردينال رالف دو بريكاسار، والكاردينال دي كونتيني فيركيزي، استأجر رين لهذه المناسبة سيارة كبيرة قادت أهل دروغيدا إلى فندقهم. ومن زاوية عينها كانت جوستين ترقب رد فعل راينر أمام عائلتها المؤلفة كلها من الأخوال. وحتى اللحظة التي لم تقع بها عينا جوستين على أمها، كانت متأكدة من أن ميغي ستغير رأيها وتأتي إلى روما. وكان عدم مجيئها صدمة قوية؛ ولم تدر جوستين إذا كان ألمها من أجل دين أم من أجلها هي. ولكن أخوالها قد أتوا، وكانت هي مضيفتهم.

آه، كم كانوا خجولين! وكيف تعرفهم من بعضهم؟ فكلما كبروا في السن، كلما زاد الشبه بينهم. وفي روما كانوا يلتصقون ببعضهم ــ حسناً، مثل مربيي مواشي استراليين في إجازة في روما. كان كل منهم يرتدي ملابس المدينة التي يرتديها المزارعون الأغنياء: جزمة قصيرة من الجلد، ولها قطعة مطاط جانبية؛ بنطال بلا لون؛ سترة بنية من نسيج صوفي ثقيل مجعد، مشقوقة على الجانبين، وقد حليت بقطع جلدية عديدة؛ قميص أبيض وربطة عنق من الصوف المشغول بالسنارة. ووضعوا على رؤوسهم قبعات من الجوخ الرمادي، منخفضة، عريضة الحواف. لم يكن هذا منظراً جديداً على شوارع سيدني خلال احتفالات عيد الفصح، أما في أواخر الصيف في روما، فقد كان المنظر غريباً.

يمكنني أن أحمد الله بأشد الصدق على وجود رين هنا، إن الله لطيف معهم. لم أكن اعتقد أن بإمكان أحد أن يدفع باتسي إلى الكلام، ولكن ها هو يفعل ذلك، باركه الله. إنهم يتكلمون مثل دجاجات عجائز، وأين وجد لهم هذه البيرة الاسترالية؟ إنه يستلطفهم، وهو مهتم بهم، على ما اعتقد. أظن أن كل شيء نافع لرجل الصناعة السياسي الألماني! كيف بقي محافظاً على إيمانه وهو

بهذه النفسية؟ لغز، هذا ما أنت يا راينر مورلنغ هارتهايم، صديق البابوات والكرادلة، صديق جوستين أونيل. آه، لو لم تكن بهذه القباحة، لقبلتك، فأنا شديدة الامتنان لك! يا إلهي، تصوروا أني عالقة في روما مع أخوالي كلهم بدون رين!

كان يجلس مستنداً إلى ظهر الكرسي يصغي إلى بوب وهو يحدثه عن الجز، وكانت جوستين تراقبه بفضول، إذ لم يكن عندها شيء آخر تقوم به. كانت غالباً تلاحظ حالاً الخصائص الجسدية عند من تقابل، ولكن انتباهها كان يضعف أحياناً، فينزلق الناس في حياتها خلسة، ويحفرون لهم مكاناً هناك دون أن تقوم هي بالخطوة الأولى؛ وفي هذه الحال، كانت تمر سنوات قبل أن تقتحم شخص أفكارها من جديد، كغريب. كما يحدث الآن وهي تراقب رين. ولقاؤهما الأول هو المسؤول عما يحدث بالطبع، حيث كانت محاطة برجال الكنيسة، مذهولة، مرتعبة رغم تظاهرها باللامبالاة. ولم تلاحظ حينها إلا الأشياء الظاهرة للعيان: بنيته الجبارة، شعره، ولونه الأسمر الغامق. وعندما دعاها إلى العشاء، ضاعت فرصتها للتعمق وتصحيح النظرة الأولى، وأجبرها على أن تكتشف به أكثر مما ينبىء عنه مظهره الخارجي، فقد أنساها اهتمامها بما ينطق به الفم أن تنظر إلى الفم.

وقالت في نفسها : إنه ليس قبيحاً مطلقاً : في الحقيقة . إنه يبدي ماهو عليه، خليط من الأفضل والأسوأ. مثل امبراطور روماني . ولا عجب أن يحب المدينة ، فقد كانت مسكنه الروحي .

وكان وجهه واسعاً ، وجبهته عالية عريضة ، وأنفه صغيراً معقوفاً . أما الحاجبان فأسوادان مستقيمان بدلاً من أن يتبعا انحناء الحدقتين ، ورموشه طويلة جداً ، أنثوية ، سوداء ، تظلل عينين سوداوين من أروع ما يمكن ، وكان يسدلهما غالباً ليخفي أفكاره . أما أجمل ما فيه فقد كان فمه ، ولم يكن مليئاً ولا رفيعاً ، لم يكن صغيراً ولا كبيراً ، ولكنه كان جميل الرسم ، وتستقيم حدود الشفتين لتعطيه مظهراً حازماً فريداً . ويبدو للناظر إليه أنه لو خفف الشد على شفتيه لباحتا بسر شخصيته .

شيء ممتع ، أن تشرّح هكذا وجهاً تعرفه ، ولا تعرفه على الإطلاق .

وأفاقت من شرودها لتراه يراقبها وهي تتفحصه ، وشعرت وكأنها قد عريت من ثيابها أمام حشد مسلح بالحجارة . وحدق إليها برهة وعيناه مفتوحتان بيقظة وبهما ما يشبه الاهتمام وليس القلق . ثم أدار نظره بهدوء نحو بوب ، وطرح عليه سؤالاً يتعلق

بالصوف، وهزت جوستين نفسها عقلياً، وأمـرت نفسهـا ألا تتصور أشياء لا وجود لها. ولكنها كانت مسحورة وهي تتصور هذا الرجل الذي كان صديقها لسنوات، تتصوره كحبيب. دون أن تشمئز من الفكرة. لقد مر في حياتها العديدون بعد آرثر ليسترانج، ولم يضحكها ما فعلت معهم. آه، لقد قطعت شوطاً كبيراً منذ تلك الليلة التذكارية، ولكنها كانت تتساءل إذا كانت قد أحرزت أي تقدم في هذا المجال. كانت تجد متعة في صحبة هؤلاء الرجال، وللشيطان ما يقوله دين عن ضرورة الاحتفاظ بنفسها «للرجل الوحيد». لن يكون هناك رجل وحيد، وهكذا فأنا لن أذهب إلى السرير مع رين. آه، كلا، ذلك سيغير الكثير، سأفقد صديقاً. إني بحاجة لصديقي، ولا أستطيع أن أسمح لنفسي بالاستغناء عنه. علي أن احتفظ به كما احتفظ بدين. كائن بشري ذكر، بدون أي معنى خاص لي.

○

كانت الكنيسة تتسع لعشرين ألف شخص، وهكذا فهي لم تكن مكتظة. ولم يكن مكان واحد في العالم قد كلف كل هذا الوقت والفكر والعبقرية لخلق معبد لله. وكانت المعابد الوثنية القديمة

تبدو شاحبة أمامه، بلا معنى. لقد كلف الكثير. كثيراً من الحب، وكثيراً من العرق. فقد بنى برامانتي الهيكل، وانجز ميشيل انجيلو القبة، وأما الأعمدة فكانت من إبداع برنيني. كانت الكنيسة نصباً ليس لله فقط، بل للإنسان. وتحت المذبح، في غرفة حجرية صغيرة، كان القديس بطرس نفسه مدفوناً؛ وهنا تم تتويج الامبراطور شارلمان. وكان صدى الأصوات القديمة يبدو كأنه يهمس بين تدفقات الضوء الفضية، وأصابع ميتة تصقل الأشعة البرونزية وراء المذبح الكبير وتداعب أعمدة القبة المجدولة.

كان يستلقي على الدرجات، ووجهه يلامس الأرض، كميت. بماذا كان يفكر؟ هل كان يتألم ألماً لا حق له به لأن أمه لم تأت؟ ونظر الكاردينال رالف من خلال دموعه، ولم ير أثراً للألم. قبل هذه اللحظة، نعم؛ وفيما بعد، حتماً. أما الآن، فلا ألم. كان كل شيء فيه مركزاً على هذه اللحظة، الأعجوبة. ولم يكن فيه مكان لشيء آخر إلا لله. كان هذا يومه ولا أهمية لشيء آخر إلا للمهمة التي عليه اتمامها، تكريس حياته وروحه لله. ربما سيتوصل إلى ذلك، ولكن من استطاع التوصل إليه؟ ليس الكاردينال رالف، مع أنه لا يزال يتذكر سيامته هو وكأنها تسبح في جو من

السحر الالهي. لقد حاول بكل ذرة من كيانه، ولكنه عجز عن إعطاء كل شيء. لم تكن سيامتي بهذه العظمة، ولكني أعيشها ثانية من خلاله. وأنا أتعجب، من هو حقيقة؟ حتى يكون باستطاعته أن يقضي كل هذه السنوات بيننا دون أن يخلق لنفسه عدواً، ولا مجافياً. إن الجميع يحبونه، وهو يحب الجميع. ولم يخطر بباله قط أن هذا الوضع غير اعتيادي. ومع ذلك، فعندما أتى إلينا في البدء، لم يكن على هذه الثقة بنفسه، لقد خلقنا عنده هذا، وفيه ما يبرر وجودنا. لقد صُنِع العديد من الكهنة هنا، آلاف أعقبتها آلاف، أما بالنسبة له فهناك شيء خاص. آه يا ميغي، لماذا لم تأت لتري الهبة التي أعطيتها للرب سيدنا، الهبة التي لم يكن بوسعي تقديمها له، لأني كنت قد أعطيته نفسي؟ وأنا أعتقد أنه لهذا السبب لا يتألم اليوم. لأنني من أجل هذا اليوم قد مُنِحت القدرة لكي أحمل ألمه على عاتقي، فأحرره منه. إنني أبكي دموعه، وأنوح مكانه. هكذا يجب أن تكون الأمور.

وفيما بعد، أدار رأسه ونظر إلى الصف الذي يشغله أهل دروغيدا، بثيابهم السوداء الغريبة، بوب، جاك، هوغي، جيمس وباتسي. وكرسي فارغ لميغي، ثم فرانك. وجوستين، وقد وضعت

وشاحاً من الدانتيل الأسود يخفف من بريق شعرها، جوستين، الأنثى الوحيدة من عائلة كليري. وبقربها راينر. ثم جمهور من الناس لا يعرفهم، ولكنهم جاءوا يشاركون بكل معنى الكلمة في احتفال اليوم، مثل أهل دروغيدا. لكن اليوم كان مختلفاً، اليوم كان متميزاً بالنسبة له. اليوم كان يشعر نوعاً ما، وكأنه هو أيضاً يقدم ابنه. وابتسم وتنهد. بماذا يشعر فيتوريو وهو يمنح دين رتبة الكهنوت؟

○

كانت جوستين أول شخص انتحى به دين جانباً في حفلة الاستقبال التي أقامها الكاردينال فيتوريو والكاردينال رالف على شرفه، ربما لأنه افتقد وجود أمه بشدة. إنه يبدو رائعاً بردائه الأسود وقبته البيضاء ــ فكرت جوستين ــ ولكنه لا يبدو كالكهنة على الإطلاق، وإنما كممثل يلعب دور كاهن؛ إلى أن ينظر المرء إلى عينيه. وهناك كنت تراه، ذلك النور الداخلي، ذلك الشيء الذي حوّله من شاب شديد الوسامة إلى شاب لا شبيه له.

ــ «الأب أونيل» قالت جوستين.

ــ إني لم اعتَد بعد على ذلك يا جوستين.

ــ ليس من الصعب فهم شعورك . إنني لم أشعر بحياتي بهذا الهدوء الذي شعرت به في كنيسة القديس بطرس، وأما ما شعرت أنت به ، فليس بإمكاني حتى أن أتصوره .

ــ آه ، أظن أنك تستطيعين ذلك ، في مكان ما في أعماقك . ولو لم تكوني قادرة على ذلك ، لما أصبحت تلك الممثلة الممتازة . ولكن ذلك يأتيك أنت من اللاشعور ، وهو لا يتضح في أفكارك إلا عندما تحتاجين إليه .

كانا يجلسان على صوفا صغيرة في أحد زوايا الغرفة من الجهة الأخرى ، ولم يزعجهما أحد . وبعد قليل قالت :

ــ «إني مسرورة لمجيء فرانك» ونظرت إلى حيث كان فرانك يتحدث مع راينر ، وقد بدت على وجهه علائم حيوية لم يعهدها به أولاد أخته .

وقال دين :

ــ لقد تعرفت على كاهن روماني لاجيء اعتاد أن يقول دائماً ، وبصوت تملؤه الشفقة «آه ، يا للمسكين !» . لست أدري ، ولكن هذا ما كنت أقوله عندما أفكر بفرانك . ولكن لماذا يا جوس ؟

وتجاهلت جوستين المناورة في الحديث، وذهبت مباشرة إلى صلب الموضوع:

ـــ «إن باستطاعتي أن أقتل أمي»، قالت من بين أسنانها المطبقة». لم يكن يحق لها أن تفعل بك هذا».

ـــ آه يا جوس، إني أفهمها. وعليك أن تحاولي أنت أيضاً. ولو أنها فعلت ذلك عن خبث، أو من أجل إرجاعي إليها، لكنت تألمت كثيراً، ولكنك تعرفينها كما أعرفها، وتعلمين أنها لم تكن مدفوعة بأي من هذا. سأذهب إلى دروغيدا، وسأتحدث إليها عندها، فأعرف المشكلة.

ـــ «أظن أن البنات أقل صبراً مع أمهاتهن من الصبيان»، وتدلت شفتاها فجأة، وهزت كتفيها. «أظن أن من حسن حظي أني استقلالية، ولن أفرض نفسي على أحد بدور الأم».

كانت عيناه الزرقاوان شديدتي الرقة، مليئتين بالحنان؛ وشعرت جوستين بشعرها ينتصب، ظناً منها بأن دين يرثي لها. وسألها فجأة:

ـــ لماذا لا تتزوجين من راينر.

وهوى فمها، وشهقت:

ـــ « إنه لم يطلب ذلك مني أبداً » . قالت بصوت ضعيف .
ـــ ذلك فقط لأنه يعتقد أنك ستجيبين بـ « لا » . ولكن يمكن تدبر الأمور .

وبدون تفكير ، أمسكته من أذنه ، كما اعتادت أن تفعل عندما كانا طفلين :
ـــ إياك أن تتجرأ وتفعل ذلك أيها الغبي الذي يلبس طوق كلب ! ولا كلمة ، أتسمعني ؟ إني لا أحب رين ، فهو مجرد صديق ، وأريد أن تبقى الأمور هكذا . حتى أنك لو أشعلت شمعة من أجل ذلك ، فأقسم بالله أني سأجلس بلا حراك ، وأُحوِل عيني ، ثم ألعنك . وأنت تتذكر كم كان ذلك يرعبك عندما كنت صغيراً ، أليس كذلك ؟

ورمى برأسه إلى الوراء وهو يضحك :
ـــ لن يكون لذلك أية فعالية يا جوستين ! إن سحري أقوى من سحرك هذه الأيام ، ولكن لا حاجة بك لكل هذا الانفعال . لقد كنت مخطئاً في ظني ، هذا كل شيء . كنت أعتقد أن هناك شيئاً ما بينك وبين رين .
ـــ « كلا ، لا شيء هناك . بعد سبع سنوات ؟ هيا ، هيا ، إن ذلك

كاف لكي ينبت للخنزير جناحان » . ثم توقفت وكأنها تبحث عن كلماتها ، ونظرت إليه بشيء من الحياء : « دين ، إني سعيدة من أجلك ، وأعتقد أن أمي كانت ستشعر بالشيء نفسه لو أنها أتت . يكفي أن تراك كما أنت الآن . انتظر فقط ، لا بد أن تفهمك » .

وبرقة فائقة أخذ وجهها المدبب بين راحتيه وهو يبتسم لها بحب شديد ، حتى إن يديها ارتفعتا لتقبضا على رسغيه ، لكي تشعر به في كل خلايا جسمها ، بينما ذكريات كل تلك السنوات ، سنوات الطفولة ، تعود إليها بكاملها .

ومع ذلك ، فوراء ما كانت تراه في عينيه من عاطفة نحوها ، كان هناك ظل شك . ولكن ، ربما كانت كلمة « شك » كلمة ضخمة ، والأجدر تسميته بـ « القلق » . كان متيقناً أن أمه ستفهم ذات يوم ، ولكنه كان بشراً ، ويبدو أن الجميع قد نسوا ذلك ، ما عداه .

ــ جوس ، هل تقومين بخدمة لي ؟ سألها وهو يفلتها .

ــ كل ما تريد . قالت بصدق .

ــ « لقد منحني رؤسائي فترة من الراحة لأفكر فيما سأفعل .

شهرين. وسوف أقوم بهذا التفكير العميق على ظهر جواد في دروغيدا، بعد أن أكون قد تكلمت مع والدتي؛ ذلك أني أشعر أنه ليس بإمكاني القيام بأي شيء قبل أن أتحدث معها. ولكن علي أولاً ... حسناً، أن استجمع شجاعتي لأذهب إلى البيت. إذن، إذا كان بإمكانك تدبر الأمر، فأنا أريدك أن تأتي معي لقضاء أسبوعين في جزر اليونان، وهناك تهزينني بشكل جيد، وتنعتينني بالجبن طوال الوقت إلى أن أشمئز من سماع صوتك، فاستقل أول طائرة للهرب منه»، وابتسم لها. «وفضلاً عن ذلك يا جوس، فأنا لا أريدك مطلقاً أن تفكري أني قد أقصيتك عن حياتي، كما أنني لم أقصِ أمي. وأنت بحاجة إلى صوت ضميرك العجوز من وقت لآخر».

ــ آه يا دين، بالطبع سوف آتي معك.

ــ «جيد» قال ثم ابتسم وهو ينظر إليها بمكر. «إني حقاً بحاجة إليك يا جوس. فأحاديثك الفاسدة تعيد الماضي العزيز إلى ذهني».

ــ آه، دعك من الكلام القذر أيها الأب أونيل.

ووضع ذراعيه وراء رأسه، واتكأ على الصوفا بارتياح:

ــ نعم، إنني الأب أونيل. أليس هذا رائعاً؟ ربما أستطيع أن أكرس نفسي لربنا بعد رؤيتي لأمي. أظن أني أتوق لهذا، إلى التفكير في ربنا فقط.

ــ كان عليك أن تدخل إحدى الرهبانيات يا دين.

ــ لا زلت قادراً على ذلك، وأظنني سأفعل. أمامي الحياة كلها، ولا داعي للسرعة.

وغادرت جوستين الحفلة بصحبة راينر، وبعد أن أخبرته بعزمها على الذهاب إلى اليونان برفقة أخيها، أخبرها أنه سيلتحق بمكتبه في بون.

ــ لقد حان الوقت لذلك. لا يبدو أن العمل يخنقك، لكونك وزيراً، أليس كذلك؟ فكل الصحف تدعوك بـ «المستهتر» الذي يجري وراء ممثلة استرالية حمراء الشعر.

وهز أصبعه أمامها محذراً:

ــ إني أدفع ثمن لذاتي أكثر مما تتصورين بكثير.

ــ هل يضايقك أن نمشي قليلاً؟

ــ على شرط ألاّ تخلعي حذاءك.

ــ إني مجبرة على لبسه في هذه الأيام. فالتنورة الـ «ميني» لها

مساوئها. لقد انتهت الأيام التي كنا بها نرتدي جوارب يمكن خلعها بثانية، واخترعوا عوضاً عنها نسخة عما يُلبَس في المسارح وهي جوارب لاصقة على شكل بنطال، ولن أستطيع خلعها بدون أن أسبب فضيحة لم يحدث مثلها منذ أيام «الليدي غوديفا». وهكذا فأنا سجينة حذائي، إلاّ إذا كنت مستعدة للتضحية بجوارب كلفتني خمسة جنيهات.

ــ «على كل، أنت توسعين ثقافتي فيما يتعلق بالألبسة النسائية، الداخلية منها والخارجية»، قال برقة.

ــ هيا، هيا، إني أراهن أن لك على الأقل نصف دزينة من العشيقات، وأنك تعريهن جميعاً.

ــ ليس عندي إلا واحدة فقط، وهي، مثل أية عشيقة طيبة، تنتظرني بملابس النوم.

ــ هل تعلم؟ إننا لم نناقش حياتك الغرامية أبداً من قبل! مذهل! كيف شكلها؟

ــ شقراء، بدينة، في الأربعين، ضخمة البطن.

وتوقفت في مكانها:

ــ «آه، إنك تمزح»، قالت ببطء. «ليس بمقدوري أن أتصورك مع امرأة مشابهة».

ـــ لم لا ؟
ـــ لأن لك ذوقاً رفيعاً .
ـــ لكل ذوقه يا عزيزتي ، وأنا نفسي لست بكل هذه الوسامة ، فكيف بإمكانك أن تفكري أن باستطاعتي إغواء امرأة شابة وجميلة ، واجعل منها عشيقتي ؟
ـــ « لأن ذلك بإمكانك » ، قالت بغضب . « آه ، بالطبع ، يمكنك ذلك ! » .
ـــ تقصدين بنقودي ؟
ـــ لا ، ليس بنقودك ! إنك تشاكسني ، وأنت تفعل ذلك دوماً ! أنت تعلم أنك شديد الجاذبية يا راينر مورلنغ هارتهايم ، وإلاّ لما لبست هذه الميدالية الذهبية ، ولا تلك القمصان الشبكية . الجمال ليس كل شيء ، ولو كان الأمر كذلك ، لكنت أنا لا أزال انتظر حتى الآن .
ـــ إن اهتمامك بي مؤثر يا عزيزتي .
ـــ لماذا أشعر وأنا معك وكأني أجري دائماً للحاق بك ولا أستطيع أبداً ؟ وتوارت موجة غضبها بلحظة ، ووقفت تنظر إليه بتردد « إنك لست جاداً ، أليس كذلك ؟ » .
ـــ وهل تظنينني جاداً ؟

ـــ كلا ، أنت لست مغروراً ، ولكنك تعلم مدى جاذبيتك .

ـــ علمت أم لم أعلم، فهذا لا يهم. المهم هو اعتقادكَ بأني جذاب .

وكادت تجيب : بالطبع أنا أعتقد ذلك ؛ ومنذ مدة ليست بالطويلة كنت أحاول أن أتصورك كحبيب ، ولكنني قررت وقتها أن ذلك لن ينجح ، وإني أفضل الاحتفاظ بك كصديق .

ولو أنه أعطاها الفرصة لتقول هذا ، لفهم أن وقته لم يكن قد حان بعد ، ولتصرف بطريقة أخرى ؛ ولكنه ، قبل أن تتلفظ بأية كلمة كان قد أحاطها بذراعيه وأخذ يقبلها . وظلت حوالي النصف دقيقة بلا حراك ، ميتة ، ممزقة ، مسحوقة ، وهي تشعر بأعماقها تصرخ بابتهاج لأنها وجدت قوة تعادل قوتها . وفمه ، كان جميلاً ! وشعره ، كثاً بشكل غير معقول ؛ كان حياً ، شيئاً يمكنها أن تقبض عليه بوحشية بين أصابعها . ثم أخذ وجهها بين راحتيه ونظر إليها مبتسماً :

ـــ إنني أحبك .

وامتدت يداها إلى رسغيه ، ولكن ليس للإطباق عليهما بلطف كما فعلت مع دين ؛ وغرزت أظفارها بهما وهي تهشم الجلد

بوحشية. وتراجعت خطوتين إلى الوراء، ووقفت تمسح فمها بساعدها وقد امتلأت عيناها بالرعب وأخذت تلهث:

ـ «لن ينجح ذلك»، قالت بوهن. «لن ينجح ذلك أبداً يا رين!».

وخلعت حذاءها، وانحنت لتلتقطه، ثم استدارت وأخذت تعدو، وخلال ثوان كان وقع خطواتها الناعم قد تلاشى.

ولم يكن ينوي اللحاق بها، ولكنها ظنت ذلك. كان رسغاه داميين، وكانا يؤلمانه. وضغط بمنديله على أحدهما، ثم على الآخر، وهز بكتفيه ثم رمى المنديل الملطخ، ووقف يركز فكره على الألم في رسغيه، وبعد قليل، سحب علبة سغائره وتناول منها واحدة فأشعلها، وطفق يسير ببطء. ولم يكن وجهه ينبىء بشيء عن مشاعره. كان كل ما يرغب به في متناول يده، وما أن مد يده حتى فقده. فتاة غبية. متى ستكبر؟ إنها تحس بوجوده، وتتجاوب معه، ثم تنكره!

ولكنه كان مقامراً من النوع الحذر. لقد انتظر سبع سنوات طويلة قبل أن يجرب حظه، وشعر بالتغير فيها أثناء سيامة

دين، ولكن يبدو أنه قد تحرك في وقت مبكر جداً. لا بأس، فلا يزال الغد أمامه، أو ــ وبما أنه يعرف جوستين جيداً ــ السنة القادمة، أو التي بعدها. ولم يكن بالتأكيد مستعداً للتراجع والاستسلام، وإذا ما راقبها بحذر، فلا بد أن يلائمه الحظ ذات يوم. وارتجفت في أعماقه تلك الضحكة الصماء: شقراء، بدينة، في الأربعين، ضخمة البطن. ما الذي جعله يقول ذلك؟ إنه لا يدري. إلا أن زوجته السابقة قد قالت له ذلك منذ زمن، وكان ذلك هو الوصف المثالي لمن يشكو من ألم في المرارة، وقد كانت زوجته المسكينة ضحية لهذا المرض، وكانت هي نفسها سمراء، نحيلة، في الخمسين، ومسطحة مثل لوح خشبي. لماذا أفكر بآنيليز الآن؟ إن رفيقة كل هذه السنوات، الصبور، قد انقلبت علي، ولا أستطيع أن أتصرف أفضل من آنيليز المسكينة. على كل، سوف نرى يا آنسة جوستين أونيل.

كانت نوافذ القصر مشعة، وسوف يصعد لبضع دقائق ويتحدث إلى الكاردينال رالف الذي كان يبدو مسناً الآن، ولم تكن هذه ظاهرة حسنة، ربما كان عليه أن يستشير طبيباً. وشعر راينر بالألم، ولكن ليس من أجل جوستين، فقد كانت شابة،

وما زال هناك متسع من الوقت ؛ ولكن من أجل الكاردينال رالف الذي رأى ابنه يسام أمامه ، بدون أن يعرف .

○

كان الوقت لا يزال مبكراً ، وهكذا فقد كانت ردهة الفندق تغص بالناس . ولبست جوستين حذاءها واجتازت الردهة بسرعة نحو السلم ، وتسلقته جرياً ، ورأسها مخفضة . وخلال لحظات ، لم تستطع يدها المرتجفة أن تجد مفتاح الغرفة في حقيبتها ، وفكرت بأن عليها العودة إلى الأسفل ، ومواجهة الجموع بقرب مكتب الاستقبال . ولكن المفتاح كان هناك ، ولا بد أن أصابعها لامسته عشرات المرات .

ودخلت أخيراً ، وتحسست طريقها في الظلام إلى السرير ، وجلست على حافته تجمع شتات أفكارها ، وتقول لنفسها أنها ثائرة ، مذعورة ، وأن أملها قد خاب ، وهي تحدق طوال الوقت في ضوء السماء الليلية الشاحب من خلال النافذة ، والشتائم تتدافع في حلقها ، وترغب في النحيب . لن يكون الأمر كما في السابق بعد اليوم ، هذه هي المأساة ؛ فقدان أعز صديق . الخيانة .

كلمات فارغة، كاذبة؛ وفجأة فهمت ما الذي أخافها هكذا، وجعلها تهرب من رين كما لو كان قد حاول قتلها وليس تقبيلها. صحة الشيء. هذا الشعور بالعودة إلى البيت، بينما هي لا تريد العودة إلى البيت، كما لا تريد الارتباط عاطفياً. فالبيت يعني الخيبة، وكذلك الحب. ليس في هذا فقط، حتى وإن شعرت بالذل من الإقرار بذلك، فهي لم تكن واثقة بمقدرتها على الحب. ولو كان ذلك بإمكانها، لكانت قد تخلت عن حذرها مرة أو اثنتين. لا بد أنها قد شعرت بشيء ما، بالتأكيد، مرة أو اثنتين، بشيء أكثر من العطف تجاه عشاقها النادرين. ولم تفطن قط أنها تختار عشاقها عمداً من بين أولئك الذين لا يهددون ذلك التجرد الذي فرضته على نفسها، وقد أصبح هذا التجرد جزءاً منها حتى أخذت تعتبره طبيعياً تماماً. وللمرة الأولى في حياتها، لم تجد مرجعاً تستند إليه ويساعدها. ولم يكن في ماضيها شيء تستمد منه المؤاساة، لم يكن في ماضيها أي ارتباط عميق لها أو لعشاقها المبهمين. ولم يكن باستطاعة أهل دروغيدا مساعدتها، لأنها كانت قد أبعدتهم، هم أيضاً، عن حياتها.

كان عليها أن تهرب من رين. فلو قالت نعم، لربطت نفسها به، فقط لكي تراه يتراجع عندما يكتشف مدى عدم

ملاءمتها. وهذا لا يطاق! سوف يعرف ما هي عليه حقيقة، وهذه المعرفة ستقتل الحب الذي يحمله لها. شيء لا يطاق، إن تقول نعم ثم تنتهي منبوذة إلى الأبد. من الأفضل أن تقوم بالنبذ هي نفسها. وبهذه الطريقة ترضي كبرياءها على الأقل، وكانت جوستين تملك كل كبرياء أمها. لا يجب أن يكتشف رين حقيقتها تحت كل تلك القحة الظاهرية.

لقد وقع في غرام جوستين التي يرى، وهي لم تسمح له بأية فرصة لكي يرتاب بوجود بحر من الشكوك وراء ذلك. وليس هناك من يشك بذلك، كلا، ليست هذه هي الكلمة، لا أحد يعرف ذلك إلا دين.

وانحنت إلى الأمام لتضع جبينها على الطاولة الباردة بقرب السرير، والدموع تنحدر على خديها. هذا هو سبب حبها الكبير لدين، بالطبع. فهو يعلم ما هي جوستين الحقيقية، ويحبها رغم ذلك. إن رابطة الدم تساعد، وكذلك عمر بكامله من الذكريات المتقاسمة، والمشاكل، والآلام، والأفراح. بينما كان رين غريباً، ولا يربطه بها ما يربط دين، أو حتى بقية أفراد العائلة. فلا شيء يجبره على حبها. وتنهدت، ومسحت وجهها براحتيها، وهزت بكتفيها ثم

بدأت العملية الشاقة، عملية إبعاد المشكلة إلى زاوية نائية من رأسها حيث ترقد بسلام، منسية. كانت تعلم أن بإمكانها أن تفعل هذا، فقد أمضت حياتها في إتقان هذه الطريقة التكنيكية، ولكن ذلك كان يعني نشاطاً لا ينقطع، واستغراقاً مستمراً في الأشياء الخارجية. ومدت يدها وأشعلت المصباح بقرب السرير. لا بد أن أحد أخوالها قد أوصل الرسالة إلى غرفتها، لأنها كانت ملقاة على الطاولة بقرب السرير؛ مغلفاً أزرق اللون، فاتحاً، يحمل في زاويته العليا صورة الملكة اليزابيت.

«عزيزتي جوستين ــ كتب كلايد والتنهام روبرتس ــ عودي إلى الحظيرة، فنحن بحاجة إليك! حالاً! هناك دور ينتظر ممثلة في الموسم الجديد، وقد أخبرني العصفور أنك ستحبينه. ديدمونة، يا عزيزتي! وسيقوم «مارك سيمسون» بدور «عطيل»! يبدأ التمرن على الأجزاء الرئيسية في الأسبوع المقبل، إذا كان هذا يهمك!».

إذا كان هذا يهمها! ديدمونة! ديدمونة في لندن! ومع مارك سيمسون في دور عطيل! فرصة العمر. وحلق مزاجها إلى درجة فقد معها خصامها مع رين كل معناه، أو بالأحرى، أخذ

معنى آخر. ربما كان بمقدرتها الاحتفاظ بحب رين إذا كانت حريصة جداً، جداً، فالممثلة المعروفة الناضجة لا تملك الوقت الكافي لتوزيعه على العشاق. كان ذلك يستحق التجربة. وإذا بدا وكأنه على وشك اكتشاف الحقيقة، فبإمكانها التراجع. إن بإمكانها أن تقوم بأي شيء لكي تحتفظ برين في حياتها، خاصة رين الجديد، ما عدا رفع قناعها.

وبانتظار ذلك، فإن خبراً من هذا النوع يستحق الاحتفال. لم تكن تشعر بأنها قادرة على مواجهة رين الآن، ولكن كان هناك العديدون لمشاركتها انتصارها. وهكذا فقد لبست حذاءها، ومشت عبر الرواق إلى غرفة الجلوس التي يتقاسمها أخوالها، وعندما أدخلها باتسي، وقفت فاتحة ذراعيها على سعتهما وعلى وجهها ابتسامة عريضة:

ـــ «افتحوا البيرة، فأنا سأصبح ديدمونة»، أعلنت بصوت رنان.

ولم تتلاشَ لذتها، وإنما كبرت وتحولت إلى ابتهاج جامح. ورمت نفسها ضاحكة في أحد المقاعد، ونظرت إلى أخوالها. كم كانوا لطفاء! إن أخبارها لا تعني شيئاً بالنسبة لهم، طبعاً! فهم لا

يعلمون شيئاً واحداً عن ديدمونة، ولو أنها أتت تخبرهم أنها ستتزوج، لما أجابها بوب بطريقة مختلفة.

منذ زمن بعيد لا تستطيع أن تتذكره، كانوا جزءاً من حياتها، ولكنها، واأسفاه! كانت قد أقصتهم عنها بازدراء، كما فعلت بكل شيء آخر في دروغيدا. وما الأخوال؟ جماعة لا دخل لها إطلاقاً بجوستين أونيل، فهم ليسوا إلا أعضاء في مجموعة تدخل البيت وتخرج منه، وتبتسم لها بحياء، وتتجنبها إذا كانت مقابلتها تعني الحديث. ليس لأنهم لم يكونوا يحبونها، كما فهمت الآن، وإنما لشعورهم بأنها غريبة. وكان ذلك يربكهم. أما في هذا العالم الروماني الذي كان غريباً عليهم، وقريباً منها، فقد بدأت تفهمهم بطريقة أفضل.

وشعرت في داخلها بشيء يتوهج من أجلهم، يمكن أن تسميه حباً، وأخذت جوستين تنقل بصرها من وجه متغضن إلى آخر. بوب، الذي كان قوة الحياة في هذا الاتحاد، رئيس دروغيدا، إنما شديد التحفظ؛ وجاك، الذي كان يتبع بوب كظله، ربما لأنهما كانا جد متفاهمين؛ وهوغي، الذي كان يحمل شيئاً من المكر لا وجود له عند الآخرين، ومع ذلك، فهو شديد

الشبه بهما؛ وجيمس وباتسي، الوجه السالب والوجه الموجب من «كل» مكتف بذاته؛ وفرانك المسكين المنطفىء، وهو الوحيد الذي كان يبدو فريسة للذعر والقلق. كانوا جميعهم، باستثناء جيمس وباتسي، قد شابوا، وبالطبع فقد كان شعر بوب قد أبيض تماماً، وكذلك شعر فرانك، ولكنهما كانا مشابهين لما كانا عليه كما تتذكرهما خلال طفولتها.

ــ «لست أدري إذا كان من المستحسن أن أقدم لك البيرة»، قال بوب متردداً، وهو يقف ممسكاً بزجاجة من البيرة.

كانت الملاحظة ستزعجها لو قالها لها منذ نصف يوم فقط، أما الآن، فقد كانت شدة سعادتها تمنعها من الانزعاج:

ــ «انظر يا حبيبي، إني أعلم أنه لم يخطر ببالك أن تقدم لي البيرة خلال جلساتنا الطويلة مع رين، ولكن صدقني، إنني فتاة كبيرة، وأستطيع أن أتحمل كأساً من البيرة. إني أقسم لك إنها ليست خطيئة». وابتسمت.

ــ «إين راينر؟» سأل جيمس وهو يتناول كأساً مليئة من بوب ويناولها لها.

ــ لقد تشاجرت معه.

ــ مع راينر؟

ـــ حسناً، نعم. ولكنها كانت غلطتي. سأراه فيما بعد واعتذر منه.

لم يكن أحد من أخوالها من المدخنين. وإن لم تكن قد طلبت كأس بيرة من قبل، فقد حدث في مناسبات سابقة أن جلست تدخن بتحدٍ، بينما كانا يتجاذبون أطراف الحديث مع رين؛ أما الآن فقد كانت بحاجة لقدر كبير من الشجاعة لكي تخرج علبة سغائرها، فاكتفت بانتصارها المتواضع، البيرة، وهي تموت شوقاً لابتلاعها جرعة واحدة، ولكن كان عليها أن تحسب حساباً لنظراتهم المتشككة المثبتة عليها. اشربي كالسيدات يا جوستين، حتى لو كنت أشد جفافاً من وعظة عتيقة.

ـــ «إن راينر شاب رائع»، قال هوغي وعيناه تبرقان.

وبذهول، فهمت جوستين لماذا زادت اهميتها عندهم: لقد اصطادت رجلاً يرغبون بضمه إلى العائلة.

ـــ «نعم، إنه رائع»، قالت باقتضاب وغيرت الحديث.

ـــ كان اليوم جميلاً، أليس كذلك؟

وانحنت جميع الرؤوس بانسجام تام، حتى رأس فرانك، ولكنهم على ما يبدو، لم يكونوا راغبين في ذلك الحديث. كانت

تستطيع أن ترى مدى إرهاقهم، ولكنها لم تندم على نزوتها التي دفعتها لزيارتهم. فالحواس شبه المشلولة تحتاج إلى وقت طويل كي تفهم حقيقة وظائفها، والأخوال كانوا الأرض الملائمة للتجربة. هذا هو عيب الحياة على جزيرة، فسكانها ينسون وجود عالم بكامله فيما وراء شواطئها.

ــ «ما هي ديدمونة؟» سأل فرانك من الظل حيث كان مختبئاً.

وارتمت جوستين في وصف حي، وقد سحرها هلعهم عندما علموا أنها ستخنق ذات ليلة، ولم تتذكر مقدار تعبهم إلا بعد حوالي النصف ساعة عندما تثاءب باتسي.

ــ «إن علي أن أذهب»، قالت وهي تضع كأسها الفارغة. ولم يقدموا لها كأساً ثانية، فواحدة تكفي لسيدة حقيقية. «شكراً لاصغائكم إلى سخافاتي».

وفوجىء بها بوب تقبله متمنية له ليلة سعيدة، وارتبك؛ وتراجع جاك، ولكنها قبضت عليه بسهولة، بينما تقبل هوغي التحية بابتهاج. وصبغت حمرة قانية وجه جيمس، ولكنه تحمل التجربة بجلد؛ أما باتسي فقد كان له الحق بعناق وقبلة، لأنه كان يشبه الجزيرة قليلاً، هو نفسه. أما فرانك فلم يحصل على قبلة، إذ

أنه أدار رأسه، ولكنها عندما طوقته بذراعيها أحست عنده بصدى شيء يشبه القوة لم تجده عند الآخرين. مسكين فرانك، لماذا كان هكذا؟

وعندما غادرت الغرفة، استندت برهة على الحائط في الخارج. إن رين يحبها. ولكنها عندما حاولت الاتصال بغرفته بالهاتف، أخبرها عامل الهاتف أنه قد دفع حسابه وعاد إلى بون.

لا يهم. من الأفضل الانتظار على أية حال حتى تعود إلى لندن، ثم تراه ثانية. سوف ترسل له اعتذاراً آسفاً بالبريد، ودعوة إلى العشاء حالما يأتي إلى انجلترا. كانت هناك أشياء كثيرة تجهلها عن رين، ولكن كان هناك شيء أساسي لم تشك به أبداً؛ أنه سيأتي. لأنه لم يكن يملك ذرة من الحقد في كيانه، ومنذ أن أصبحت العلاقات الخارجية مجاله، أصبحت لندن أحد أهم مراكز زياراته.

ـ «سوف نرى يا ولدي»، قالت وهي تحدق إلى المرآة، وترى وجهه عوضاً عن وجهها. «سأجعل من لندن أهم علاقاتك الخارجية، وإلاّ فلن أدعى جوستين أونيل».

لم يخطر لها قط أن أسمها كان أساس المشكلة بالنسبة

لراينر. كانت قد وضعت مخططاً لحياتها، ولم يكن للزواج مكان فيه. لم يخطر ببالها أبداً أن رين يريد أن يجعل منها جوستين هارتهايم. كانت مشغولة باستعادة ذكرى صفاته وقبلاته، وتحلم بالمزيد منها. بقي عليها أن تخبر دين بأنها لن تستطيع الذهاب معه إلى اليونان، ولكن هذا لم يكن يقلقها. فدين سيكون متفهماً، كما كان دائماً؛ لكنها لا تعتقد أنها ستخبره عن كل الأسباب التي تمنعها عن السفر. ورغم حبها الكبير لأخيها، فهي لم تكن راغبة بسماع إحدى مواعظه الصارمة. إنه يريدها أن تتزوج من رين، ولو أخبرته عن مشاريعها بشأنه، فسوف يجبرها على الذهاب معه إلى اليونان حتى لو بالقوة. ولن يحزن قلب دين إذا لم تسمع أذناه بالأمر.

وكتبت تقول له:

«عزيزي رين، آسفة لأني هربت مثل الكبش الأشعر ذلك المساء، ولكني لا أدري ما الذي دهاني. اعتقد أن ذلك كان بسبب اليوم المرهق، وغيره. أرجوك أن تغفر لي تصرفي الغبي. إنني خجلة من نفسي لأني ضخمت الأمر بهذا الشكل. أظن أن ذلك اليوم كان قد أثر عليك أنت أيضاً، وأقصد كلمات

الحب ... إنني إذن اقترح عليك أن تغفر لي، وأنا أغفر لك. دعنا نبقى أصدقاء، أرجوك. لا أستطيع احتمال الفتور بيننا. عندما تأتي إلى لندن في المرة القادمة، تعال لتناول العشاء معي، وسوف نعقد اتفاقية سلم رسمية».

وكالعادة، وقعت الرسالة باسمها فقط «جوستين»، بدون أي شيء آخر، حتى بدون كلمة حنان، فهي لم تكن تستعمل أمثالها. وعقد حاجبيه وهو يدرس العبارات العادية الفجة، كما لو كان باستطاعته أن يكتشف بين الكلمات ما كان يعتمل في أعماقها عندما كتبتها. كانت الرسالة بالتأكيد نداء صداقة، وماذا أيضاً؟ وتنهد وهو يفكر أنه لم يكن هناك الكثير. كان قد أرعبها بشدة، وكانت رغبتها في المحافظة على صداقته تفسر مدى قيمته عندها. ولكنه كان يشك جداً في أنها كانت تفهم طبيعة مشاعرها نحوه. على كل حال، إنها تعرف الآن أنه يحبها، ولو اكتشفت بعد فحص ضمير عميق أنها تحبه، لكتبت له ذلك في رسالتها. ولكن لماذا عادت إلى لندن بدلاً من أن تذهب إلى اليونان مع دين؟ كان يعلم أنه لا يستطيع حتى أن يحلم أنها قد فعلت ذلك من أجله، لكنه رغم ارتيابه، فقد شعر بالأمل يلون أفكاره بابتهاج، فرن

الجرس طالباً سكرتيرته. كانت الساعة العاشرة صباحاً حسب توقيت غرينويتش، أفضل وقت للعثور عليها في المنزل.

ــ «اتصلي بمنزل الآنسة أونيل في لندن»، قال للسكرتيرة، ثم أخذ ينتظر المخابرة عاقد الحاجبين.

ــ «رين!»، قالت جوستين وهي تبدو مبتهجة. «هل استلمت رسالتي؟»

ــ على التو.

وبعد لحظة صمت قالت:

ــ وستأتي لتتعشى معي في البيت؟

ــ سوف أكون في لندن يومي الجمعة والسبت من هذا الأسبوع. هل أضايق مشاريعك؟

ــ ليس إذا كان مساء السبت يلائمك. إني أتمرن على ديدمونة، ولهذا فلا مجال لرؤيتك يوم الجمعة.

ــ ديدمونة؟

ــ نعم. ألم تعلم! لقد كتب لي كلايد إلى روما وعرض علي الدور. وسوف يقوم مارك سيمسون بدور عطيل. إنها من إخراج كلايد نفسه. أليس هذا رائعاً؟ لقد عدت إلى لندن على أول طائرة.

وغطى عينيه بيديه وهو يشكر الله أن سكرتيرته كانت خارج المكتب، وليس بإمكانها رؤية وجهه.

ـــ «جوستين، عزيزتي، هذا خبر رائع!» قال محاولاً أن يبدو متحمساً. «كنت أتساءل عما أرجعك إلى لندن».

ـــ «آه، إن دين يفهم»، قالت بخفة. «واعتقد أنه مسرور نوعاً ما لكونه وحيداً. كان قد اخترع لي قصة يكون دوري فيها الالحاح عليه لكي يذهب إلى البيت، ولكنني اعتقد أن هناك سبباً آخر نرغبته في أن أرافقه؛ ذلك إنه لا يريدني أن أشعر بأنه قد أقصاني عن حياته بعد أن أصبح كاهناً».

ـــ ذلك محتمل. قال بتهذيب.

ـــ سأراك إذن مساء السبت، في حوالي السادسة، وعندها يمكننا عقد اتفاقية سلم على مهل، بمساعدة زجاجة أو اثنتين، وسأقدم لك العشاء بعد أن نصل إلى حل ملائم. ما رأيك؟

ـــ نعم، بالطبع. إلى اللقاء يا عزيزتي.

وانقطعت المكالمة بعنف على صوت سماعتها وهي تضعها، وجلس برهة وهو لا يزال يمسك سماعته بيده، ثم هز كتفيه وأعادها إلى مكانها. لعن الله جوستين، لقد بدأت تحول بينه وبين أداء عمله.

وبقيت حائلاً بينه وبين العمل خلال الأيام التي تلت ، رغم أن أحداً لم يلاحظ ذلك . ومساء السبت ، بعد السادسة بقليل ، قرع باب شقتها ، ويداه فارغتان كالعادة ، لأنها كانت صعبة جداً من ناحية الهدايا . لم تكن تهتم بالزهور ، ولم تكن تحب الحلوى ، كما أنها كانت سترمي كل هدية ثمينة في إحدى الزوايا ، ثم تنساها . أما الهدايا الوحيدة التي كانت جوستين تقدرها ، فقد كانت هدايا دين .

ـــ « شمبانيا قبل العشاء؟ » ، سألها وهو ينظر إليها بدهشة .

ـــ « حسناً ، أظن أن المناسبة تقضي بذلك ، أليس كذلك؟ لقد كانت أول مرة نقطع بها علاقاتنا ، وهذه أولى مصالحاتنا » .

أجابت بكثير من المنطق وهي تشير له إلى مقعد مريح ، وتجلس هي نفسها على بساط من جلد الكنغر ، وقد انفرجت شفتاها كما لو أنها قد هيأت جواباً لكل سؤال ممكن .

ولكنه لم يكن قادراً على المحادثة ، على الأقل ليس قبل أن يحزر مزاجها . وهكذا فقد أخذ يراقبها بصمت . قبل أن يقبلها ، كان بإمكانه أن يبقى متحفظاً معها جزئياً ، أما الآن ، وإذ يراها للمرة الأولى بعد تلك القبلة ، فقد فهم أن ذلك سيكون صعباً جداً في المستقبل .

من المعقول أنه سيبقى هناك، في وجهها، وفي تصرفها، شيء غير ناضج تماماً، حتى عندما ستصبح امرأة عجوزاً، كما لو أن جوهر الأنوثة بالذات سيمر بها دون أن يمسها. فذلك الذهن البارد، المنطقي، المركز على ذاتها، يسيطر عليها تماماً، ولكنها كانت تملك بالنسبة له سحراً جباراً لم يكن واثقاً من أنه سيجده عند امرأة أخرى. ولم يسأل نفسه مرة واحدة إذا كان تستحق ذلك الصراع الطويل. ربما لم تكن تستحق ذلك من وجهة نظر فلسفية، ولكن ما الهم؟ لقد كانت هدفه ومطمحه.

ـ إنك تبدين جميلة جداً هذا المساء يا عزيزتي.

قال أخيراً وهو يقرع كأسه بكأسها وكأنه يشرب نخبها، أو يعترف بها غريمة. وكانت النار تتأجج بدون حاجز واق في المدفأة الفيكتورية الصغيرة، ولكن جوستين كانت تبدو غير آبهة بالحرارة، وقد عقدت ذراعيها حول ركبتيها، وأخبأت قدميها العاريتين بطيات ثوبها الأسود الثقيل.

ـ إني لا أحتمل اللف والدوران. هل كنت جاداً فيما قلته لي يا رين؟

وشعر باسترخاء عميق، فاستند إلى ظهر مقعده:

ــ جاد في ماذا ؟

ــ ما قلته في روما ... إنك تحبني .

ــ أهذه هي المشكلة يا عزيزتي ؟

وأشاحت بوجهها ، ورفعت كتفيها ، ثم نظرت إليه وأحنت رأسها بالموافقة :

ــ نعم ، بالطبع .

ــ ولم الخوض ثانية في هذا الموضوع ؟ لقد أخبرتني بما تفكرين ، وكنت أعتقد أن دعوة الليلة ليست لإعادة الماضي وإنما للتخطيط للمستقبل .

ــ آه يا رين ! إنك تتصرف وكما لو أني أضخم الموضوع ! ولكنك تستطيع أن تفهم السبب حتى لو كان الأمر كذلك .

ــ « كلا ، لا أستطيع » . ووضع كأسه على الطاولة وانحنى إلى الأمام لينظر إليها عن قرب . « لقد أجبرتني على أن أفهم بوضوح شديد أنك ترفضين حبي ، وكنت آمل أن يكون عندك على الأقل شيء من الأدب يمنعك من مناقشة الأمر » .

لم يخطر ببالها أن هذا الاجتماع ، مهما كانت نتيجته ، سيكون مزعجاً بهذا الشكل . إن رين بعد كل حساب ، هو الذي

وضع نفسه في موضع المتوسل، وعليه أن ينتظر بتـواضع أن تتراجع عن قرارها. وعوضاً عن ذلك فهو يبدو وقد قلب الموقف. وكانت تشعر وكأنها تلميذة مشاغبة تجيب عن تصرف أحمق.

ــ اسمع يا عزيزي، إنك أنت الذي غيرت الموقف، وليس أنا، ولم أطلب منك أن تأتي الليلة حتى أطلب السماح لأني جرحت «شخصية» هارتهايم العظيمة.

ــ أتأخذين موقفاً دفاعياً يا جوستين؟

وتململت بنفاذ صبر:

ــ نعم، اللعنة! كيف تفعل بي هذا يا رين؟ آه، إني أتمنى لو تدعني أفرح مرة واحدة بالتفوق عليك.

ــ لو فعلت هذا، لرميتيني خارجاً مثل بساط عتيق عفن. أجابها مبتسماً.

ــ بإمكاني أن أفعل ذلك الآن يا رفيق!

ــ هراء! إنك لم تفعليه حتى هذه اللحظة، وهذا يعني أنك لن تفعليه أبداً. سوف نتابع لقاءاتنا لأني أجعلك تتشوقين دائماً ولا تدرين أبداً ماذا تتوقعين مني.

ــ «ألهذا السبب قلت لي أنك تحبني؟»، سألت بمرارة. «أكانت تلك خطتك لكي تحتفظ بي معلقة؟».

ــ وماذا تعتقدين إذن ؟

ــ «اعتقد أنك سافل منحط» ، قالت من بين أسنانها المطبقة ، وزحفت على البساط ، على ركبتيها ، حتى اقتربت بشكل يسمح لها بصب جام غضبها عليه ، عن قرب :

ــ قل ثانية أنك تحبني أيها الألماني الضخم الغبي ، وانظر إلي كيف أبصق في وجهك .

كان هو أيضاً غاضباً :

ــ كلا ، لن أقولها ثانية ! إنك لم تدعيني لذلك ، أليس كذلك ؟ ولا علاقة لك بمشاعري على الاطلاق يا جوستين . لقد طلبت مني المجيء حتى تجري تجربة على مشاعرك أنت ، ولم تتساءلي أبداً إذا كان في ذلك بعض العدل بالنسبة لي .

وقبل أن تستطيع الابتعاد ، انحنى وأطبق يديه على ذراعيها قرب الكتفين ، وحصر جسدها بين ساقيه وهو يشد عليه بصلابة . وتلاشى غضبها في الحال ، ومررت براحتيها على فخذيه ورفعت رأسها . ولكنه لم يقبلها ، وترك ساعديها ثم استدار ليطفىء المصباح خلفه ، وأرخى من الشد على جسدها ، وأسند رأسه إلى ظهر المقعد حتى لا تعرف إذا كان قد أطفأ الأضواء بحيث لا يبقى

إلا وهج النار، كمقدمة للحب؛ أو ليخفي فقط تعابير وجهه. وانتظرت ليخبرها بما عليها أن تفعل، والحيرة والرعب من أن ينبذها يتصارعانها. كان عليها أن تفهم من قبل أن من المستحيل التلاعب برجل من جبلة رين، فهو مثل الموت، لا يقهر.

لماذا لا تستطيع أن تضع رأسها في حجره وتقول: احبني يا رين، فأنا بحاجة شديدة لك، وإني آسفة. وحتماً، لو كان باستطاعتها أن تعطيه نفسها، فلا بد أن مفتاح أحاسيسها سيدور وينهار كل شيء، وتتحرر.

وتركها تنزع عنه سترته وربطة عنقه، وهو بعيد، منطو على نفسه؛ ولكنها عندما بدأت تفك أزرار قميصه، فهمت أن ذلك لن ينجح. فهي لم تكن ضليعة بذلك النوع من البراعة الجنسية التي تحول الحركات العادية إلى شيء شديد الإثارة. وكان هذا شديد الأهمية، وكانت في طريقها إلى تحطيم كل شيء. وترددت أصابعها، والتوى فمها، وانفجرت بالبكاء.

ـــ «آه، لا يا عزيزتي، لا تبكي». وشدها إلى حجره، وأدار رأسها على كتفه وقد أحاطها بذراعيه. «إني آسف، يا عزيزتي، لم أكن أقصد أن أبكيك».

ـــ ها إنك تفهم الآن ، إنني لست إلا فشلاً يائساً . لقد قلت لك أن ذلك لن ينجح ! رين، لقد كنت أرغب في الاحتفاظ بك بشدة، ولكنني كنت أعلم أني سأخفق لو تركتك ترى بشاعتي على حقيقتها .

ـــ كلا ، بالطبع لن ينجح ذلك . وكيف يعقل؟ إنني لم أساعدك يا عزيزتي .

وشد على شعرها ليرفع وجهها بمقابلته، وقبّل جفونها، وخديها الرطبين، وزاويتي فمها :

ـــ إنها غلطتي، يا عزيزتي، ليست غلطتك. كنت أعاملك بطريقتك نفسها، وأريد أن أرى إلى أي مدى تستطيعين السير دون تشجيع. ولكنني اعتقد أني أخطأت فهم دوافعك » . وكان صوته قد أصبح أجشاً أكثر من قبل، ولهجته ألمانية . « إذا كان هذا ما ترغبين به، فسوف تحصلين عليه، ولكن ليس أحدهما دون الآخر » .

ـــ أرجوك يا رين، انس الموضوع. إنني لست كفئاً لذلك، وسوف يخيب أملك .

ـــ آه، إنك كفء يا عزيزتي. لقد رأيت ذلك على خشبة المسرح. كيف تشكين بنفسك وأنت معي؟

كان ذلك صحيحاً . وجفت دموعها . وهمست :

ــ قبلني كما فعلت في روما .

ولكنها لم تكن مثل قبلة روما على الاطلاق . فتلك كانت عنيفة ، مذهلة ، متفجرة ؛ أما هذه فقد كانت بطيئة ، عميقة ، فرصة لكي تتذوق ، وتشم ، وتحس ، وترتمي في أحضان نشوة عارمة .

وعادت أصابعها إلى أزرار القميص ، وغطى يدها بيده ودفع بها إلى داخل قميصه ، على جلده المكسو بالشعر الناعم . وعندما أصبح فمه قاسياً فوق فمها ، كان رد فعلها عنيفاً حتى احست بأنها تغيب عن الوعي ، وظنت أنها تسقط ، وبالفعل كانت قد هوت على البساط الناعم ، وربن فوقها . وكان قد خلع قميصه ، وربما أكثر . لم يكن بإمكانها أن ترى إلا توهج النار فوق كتفيه المنحنيتين فوقها ، والفم الجميل الصارم .

وغرزت أصابعها في شعره تريد تشويشه ، وشدته إليها ليقبلها ثانية ، بشدة ، وبشدة . وهذا الاحساس به ! كالعودة إلى البيت ، وهي تكتشف كل جزء منه بشفتيها ، ويديها ، وجسدها . إنها تعرفه ، ومع ذلك فهو غريب ، شيء لا يصدق . وبينما كان

العالم يغرق ولا يبقى منه إلا لسان النار الدقيق يلحس الظلمات، استسلمت لما يريده، واكتشفت ما أخفاه عنها طوال معرفتها به؛ وهو أنه قد مارس الحب معها في خياله آلاف المرات. أخبرتها بذلك تجربتها الشخصية، وحدسها الجديد. كانت عزلاء تماماً. ومع أي رجل آخر، كانت هذه الألفة، وهذه الشهوة المدهشة، ستثيران نفورها؛ أما هو، فقد كان يرغمها على أن ترى بهما ماذا باستطاعتها أن تخلقه بنفسها، ولقد خلقته. وأخيراً صرخت له كي ينتهي، وقد عقدت حوله ذراعيها بشدة حتى تستطيع أن تشعر حتى بشكل عظامه.

ومرت الدقائق، مغلفة بالرغبة المشبعة. وتشابه وقع أنفاسهما، بطيئاً، مرتاحاً، ورأسه على كتفها، وساقها مرمية عبر جسمه. وارتخت قبضتها المتصلبة على ظهره تدريجياً، وتحولت إلى مداعبة دائرية حالمة، فتنهد واستدار ليغير طريقة استلقائهما وهو يدعوها عن غير قصد إلى أن تنهل من لذة وجودها معه. ووضعت راحتها على جنبه لتشعر بالجلد، وفوجئت به بشدة حين مد يده على غفلة منها تحت ظهرها، وأخذ رأسها بيديه، وجعلها تنظر إليه عن كثب لتتأكد من أن فمه قد فقد صرامته، وأن هذا الفم يأخذ

شكلاً جديداً، بسببها، ومن أجلها. وفي تلك اللحظة، شعرت بالحنان والتواضع يلدان في أعماقها. ولا بد أن ذلك قد بان على وجهها، لأنه كان ينظر إليها وعيناه تبرقان حتى لم يعد بوسعها أن تتحملهما، فرفعت نفسها لتتناول شفتيه بشفتيها. واختلطت الأفكار والحواس، ولكن صرختها فقدت صوتها، وتحولت إلى أنين أخرس من الفرح هز كيانها هزاً حتى فقدت الشعور بكل شيء ما عدا الرغبة الملحّة. وانهى الكون تقلصه الأخير، ودار على نفسه، ثم تلاشى كلياً.

○

لا بد أن رين كان قد حافظ على النار مشتعلة، فحين تسلل ضوء صباح لندن الخفيف عبر الستائر المسدلة، كانت الغرفة لا تزال دافئة. وعندما تململ هذه المرة، شعرت جوستين به، وقبضت على ذراعه بذعر:

ــ لا تذهب.

ــ «إنني لست ذاهباً يا عزيزتي». وسحب وسادة أخرى من الصوفا، ووضعها تحت رأسه، ثم شدها إلى قربه وهو يتنهد برفق: «أنت بخير؟».

ـــ نعم .

ـــ هل تشعرين بالبرد ؟

ـــ كلا ، ولكن إذا كنت أنت تشعر بالبرد ، فبإمكاننا الذهاب إلى السرير .

ـــ بعد أن أحببتك ساعات على بساط من الجلد؟ إي انحدار هذا ! لن أذهب إلى السرير حتى لو كانت أغطيته من الحرير الأسود .

ـــ إنها عادة قطنية ، بيضاء ، قديمة . هذه القطعة من دروغيدا لا بأس بها ، إيه ؟

ـــ قطعة من دروغيدا ؟

ـــ البساط ! إنه من جلد الكنغر .

ـــ إنه ليس غريباً ، ولا مثيراً بما فيه الكفاية . سأطلب لك جلد نمر من الهند .

ـــ ذلك يذكرني بقصيدة سمعتها مرة :

هل ترغب بارتكاب الخطيئة
مع الينور غلين
على جلد نمر ؟
أم تفضل

أن تهيم معها
على فراء آخر ؟

ــ حسناً يا عزيزتي ، لقد حان الوقت فعلاً لكي تعـودي إلى وعيك ، فقد نسيت وقاحتك ما بين متطلبات إله الحب وإله النوم ، خلال نصف يوم بكامله . قال مبتسماً .

ــ « لا أشعر بحاجتي لها حالياً » ، قالت وهي تجيب على ابتسامته . « فهذه الأبيات خطرت ببالي لأنك لمّحت إلى جلد النمر ، ولم أستطع المقاومة. ولكن ، لم يبق عندي شيء أخفيه عنك ، فما نفع الوقاحة ؟ » .

وتشممت الهواء فجأة ، وقد وصلت إلى أنفها رائحة سمك خفيفة :

ــ يا للسموات ، إنك لم تتناول العشاء ، وقد حان وقت الافطار ! إني لا أتوقع منك أن تعيش على الحب والماء العذب فقط !

ــ ليس إذا كنت تطلبين عنه براهين قاسية ، على أية حال .

ــ هيا ، أنك قد استمتعت به .

ــ « بالفعل » . وتنهد ، وتمطمط متثائباً . « إني أتساءل إذا كنت تعرفين كم أنا سعيد » .

ـــ اعتقد أني أعلم . قالت بهدوء .

ورفع نفسه على أحد مرفقيه ينظر إليها .

ـــ اخبريني ، هل كانت ديدمونة هي السبب الوحيد الذي جعلك تعودين إلى لندن ؟

وشدت أذنه بعنف :

ـــ جاء دوري الآن لأعاملك بالمثل ، واجعلك تدفع ثمن اسئلتك التي تشبه أسئلة معلمي المدارس ! وماذا تعتقد ؟

وأبعد أصابعها بسهولة وهو يكشف عن أسنانه بابتسامة :

ـــ إذا لم تجيبيني يا عزيزتي ، فسوف أخنقك بطريقة أجدى من طريقة مارك في دور عطيل .

ـــ لقد عدت إلى لندن لألعب دور ديدمونة ، وكذلك بسببك . لقد أصبحت عاجزة عن أن أعتبر أن حياتي هي ملكي منذ أن قبلتني في روما ، وأنت تعلم ذلك جيداً . إنك شديد الذكاء يا راينر مورلنغ هارتهايم .

ـــ ذكي لدرجة أني رغبت بك كزوجة منذ اللحظة التي رأيتك بها .

وجلست بسرع وهي تقول :

ـــ زوجة ؟

ـــ زوجة . فلو رغبت بك كعشيقة لحصلت عليك منذ سنوات ، وكان ذلك بمقدوري . إني أعلم كيف يعمل ذهنك ، وكان ذلك سهلاً نسبياً . ولكن الشيء الذي منعني هو أني أردتك زوجة ، وكنت أعلم أنك على غير استعداد لتقبل فكرة الزواج .

ـــ ولا أدري إذا كنت مستعدة لذلك الآن . قالت وهي تفكر في الأمر وتحاول هضمه .

ووقف وهو يشدها لتقف أمامه .

ـــ تستطيعين أن تتمرني على ذلك الآن وتحضري لي الافطار . ففي منزلي سأقوم بذلك بنفسي ، أما في مطبخك فأنت الطباخة .

ـــ «لن أتضايق من تحضير إفطارك هذا الصباح ، ولكن أن أربط نفسي حتى يوم مماتي !» وهزت برأسها . «لا أظن أن ذلك بإمكاني يا رين» .

وبقي وجهه شبيهاً بوجه امبراطور روماني ، لا يعكره تهديد ولا عصيان :

ـــ جوستين ، إن هذا ليس موضوعاً للعب ، ولا أنا ممن يمكنك التلاعب بهم . أمامك كل الوقت ، وأنت تعلمين مدى

صبري . ولكن إذا كنت تفكرين أن بإمكاننا أن نجد حلاً غير الزواج ، فانزعي هذه الفكرة من رأسك ، ولا أريد أن يعرفني الناس إلا كزوجك ، لن أقبل بأي دور آخر أقل أهمية .

ـــ إني لن أتخلى عن التمثيل . قالت مهاجمة .

ـــ ومن طلب منك ذلك ؟ اكبري يا جوستين ! إن من يسمعك يظن أني قد حكمت عليك بقضاء حياتك أمام الفرن والمجلى ! إننا لن نموت من الجوع كما تعلمين . ويمكنك أن تحصلي على ما تريدين من الخدم ، والمربيات للأولاد ، وكل شيء آخر ضروري .

ـــ آه . قالت جوستين بقرف ، فهي لم تكن قد فكرت بالأولاد .

ورمى برأسه إلى الوراء مقهقهاً :

ـــ هذا ما يسمى يا عزيزتي بالانتقام في صباح اليوم التالي ! إنني غبي إذ أتحدث عن بعض الحقائق في وقت مبكر ، ولكن كل ما عليك أن تفعليه حالياً هو أن تفكري بذلك . لكنني أحذرك ، حتى لا تقولي أني ظلمتك ؛ وعندما تفكرين في اتخاذ قرار ، تذكري أنه إذا لم يكن بإمكاني الحصول عليك كزوجة ، فأنا لا أريدك مطلقاً بأي شكل آخر .

ورمت ذراعيها حوله ، وتعلقت به بشدة وهي تبكي :

ــ آه يا رين ، لا تجعل الأمر بهذه الصعوبة .

○

قاد دين سيارته الـ « لا غوندا » وحيداً ، صاعداً الجزمة الإيطالية ، ماراً بـ « بيروجيا » ، و « فلورنسا » ، و « بولونيا » ، و « فيدارا » ، و « بادوا » ، وفضل أن يبعد عن البندقية ويمضي الليل في « تريستي » ، فقد كانت إحدى المدن التي يحبها ؛ وأمضى هكذا يومين آخرين على البحر الادرياتيكي قبل أن يتجه نحو الطريق الجبلية متجهاً صوب « لبلانا » ، ثم أمضى ليلة أخرى في « زاغرب » ، واتجه بعدها يهبط وادي نهر سافا الكبير ، وسط حقول مليئة بالأزهار البرية الزرقاء ، حتى بلغ بلغراد ، ومنها توجه إلى نيس حيث أمضى ليلة أخرى . وفي اليوم التالي اجتاز مكدونية وسكوبجي ، وسط الخراب الذي تركته الهزة الأرضية التي حصلت منذ سنتين ، ومر بـ « تيتو ــ ثيلي » ، مدينة الاجازات ، ذات الطابع التركي بمساجدها ومآذنها . وعلى طول الطريق التي تجتاز يوغوسلافيا ، لم يأكل إلا القليل ، فقد كان يخجل من الجلوس أمام طبق مليء باللحم ، بينما يكتفي سكان البلد بقطعة من الخبز .

واجتاز حدود اليونان في «افزون»، وسالونيكي وراءها. كانت الصحف الايطالية مليئة بالأخبار عن خطر الثورة التي تدبر في اليونان؛ ووقف إلى نافذة غرفته في الفندق ينظر إلى آلاف المشاعل تروح وتجيء، وتتحرك بلا انقطاع في ظلمة ليل سالونيكي. كان مسروراً لعدم مجيء جوستين.

«باباندريو! باباندريو! باباندريو! كانت الجماهير تنشد مزمجرة بين أمواج المشاعل، حتى ما بعد منتصف الليل.

ولكن الثورة كانت من اختصاص المدن المكتظة بالسكان والفقر، أما ضواحي تيساليا المجرحة، فكانت تبدو كما بدت لجيوش القيصر وهي تشق طريقها عبر الحقول المحروقة متجهة صوب «بومبي» و «فارسالا». كان الرعاة ينامون في ظل خيام مصنوعة من الجلود، وطيور اللقلق تقف على ساق واحدة في أعشاش بنتها فوق قمم البيوت البيضاء الصغيرة، وفي كل مكان، كان الجفاف المرعب. وذكره ذلك المنظر، بسمائه الصافية العالية، وأرضه الواسعة التي لا شجرة فيها، ذكره ذلك باستراليا. وتنفس بعمق، وبدأ يبتسم لفكرة عودته إلى البيت. إنه أمه ستفهم عندما يكلمها.

وأطل على البحر فوق لاريسا، فأوقف السيارة وترجل منها.

هذا هو بحر هوميروس الخمري الداكن، الذي كان يتلون بلون بحري رقيق بالقرب من الشاطىء، وقد تلطخ بالأرجوان كالعناقيد، على انحناء الأفق. ووسط سهل أخضر، بعيداً تحته، انتصب معبد دقيق مستدير، أبيض اللون براقاً تحت الشمس؛ وعلى الهضبة القائمة خلفه، كانت قلعة صليبية متجهمة، قاومت الزمن. يونان! أنت جميلة، أجمل من إيطاليا، رغم كل حبي لايطاليا. ولكن المهد هنا، خالد.

وكان يتشوق لبلوغ أثينا، فتابع طريقه يدفع سيارة السباق بأقصى سرعة على طرقات ممر «دوموكوس» المتعرجة، وينزل من الجهة الأخرى إلى بيوسيا حيث قابله منظر الزيتون المذهل، والهضاب الحمراء، والجبال. ورغم عجلته، توقف لينظر إلى النصب الغريب، وكأنه من هوليوود، الذي أقيم تخليداً لمجد «ليونيداس» والاسبارطيين في تيرموبيلي. كانت اللوحة الحجرية تقول: «أيها الغريب، اذهب وقل للاسبارطيين، أننا نرقد هنا إطاعة لأمرهم». ولمست الكلمات وتراً حساساً في داخله وكأنه قد سمعها قبلاً في ظروف مغايرة، فارتعش وذهب مسرعاً.

وفي أشعة الشمس المنصهرة، توقف قليلاً فوق

« كامينافورا » ، ليسبح في الماء الصافي المطل على مضيق « أوبوا » . من هناك عبرت آلاف السفن من أوليس في طريقها إلى طروادة ، وكان التيار قوياً يتجه نحو عرض البحر ، ولا بد أن الرجال لم يحتاجوا كثيراً لمجاذيفهم هنا . وازعجته نظرات وتودد العجوز المتوشحة بالسواد ، حارسة المسبح ، فهرب بسرعة . لم يعد الناس يلمّحون إلى جمال وجهه ، وكان قادراً على نسيان ذلك في أغلب الأوقات . ولم يتوقف إلا ليبتاع قطعتين ضخمتين من الحلوى ، مليئتين بالكريمة ، وتابع طريقه هابطاً الساحل الأتيكي حتى وصل أخيراً إلى أثينا عند مغيب الشمس التي صبت سيلاً من الذهب على الصخرة الضخمة ، والأعمدة التي تعلوها مثل تاج ثمين .

لكن أثينا كانت متوترة ، متجهمة ، ولقد أزعجته جداً نظرات الاعجاب الصريحة التي كانت النساء ترشقه بها ، فنساء روما كن أكثر تكلفاً وإرهافاً . وكان هناك إحساس غريب يسود الجماهير ، جيوب من التمرد ، وتصميم شديد من قبل الشعب على حمل باباندريو إلى السلطة . كلا ، إن أثينا لم تكن نفسها ، ومن الأفضل عدم البقاء هنا . ووضع سيارته في مرآب ، واستقل المركب إلى جزيرة كريت .

هناك أخيراً ، بين أشجار الزيتون ، والصعتر البري ،

والجبال، وجد السلام الذي كان يبحث عنه. وبعد مسافة طويلة قطعها بالباص برفقة أفواج من الدجاج ربطت قوائمها، وكانت تعبر عن استنكارها بشدة، ورائحة الثوم القوية تملأ أنفه، اكتشف نزلاً صغيراً دهنت جدرانه باللون الأبيض تحت أروقة مقوسة، وأمامه ثلاث طاولات تقبع تحت مظلات علقت على قوائمها أكياس يونانية زاهية الألوان، مزركشة مثل المصابيح. وبالقرب منها كانت بعض أشجار الفلفل والصمغ الاسترالي ، وقد نقلت من نيو ساوث ويلز، وزرعت في هذ الأرض الجافة، منفية. وكان صرير الزيزان يملأ الجو وسط غيوم ملتفة من الغبار الأحمر.

كان ينام في غرفة صغيرة تشبه الزنزانة وقد أشرع النوافذ، وفي صمت الفجر كان يقيم قداساً انفرادياً، ثم يتنزه طوال اليوم. لم يزعجه أحد، ولم يزعج أحداً. ولكنه عندما كان يمر أمام بعض الفلاحين، كانت عيونهم السوداء تتابعه بدهشة، وتنفرج الوجوه عن ابتسامة عريضة. كان الجو حاراً، ساكناً، ومتناعساً. سلام تام. وتتابعت الأيام، مثل حبات مسبحة تنزلق بين أصابع فلاح كريتي معقدة.

كان يصلّي بصمت، وكانت صلاته نوعاً من الشعور،

امتداداً لما يجري في داخله، أفكاراً تتوارد مثل حبات المسبحة. أيها الرب، إنني حقاً ملكك. وإني أشكرك على نعمك. أشكرك من أجل الكاردينال الكبير، ومساعدته، وصداقته العميقة، وحبه الذي لا يتزعزع. من أجل روما والحظ الذي حصلت عليه لأكون في قلبك؛ ومن أجل انحنائي أمامك، في محرابك أنت. من أجل إحساسي بصخر كنيستك في داخلي. لقد أنعمت علي بأكثر مما استحق، فما الذي أستطيع القيام به من أجلك، لأبرهن لك عن شعوري بالجميل؟ إني لم أتألم بما فيه الكفاية، فحياتي كانت كلها فرحاً متواصلاً منذ بدأت خدمتك. يجب أن أتألم، وأنت يا من تألمت، تعلم ذلك. ولن ارتفع عن نفسي إلا من خلال الألم، فأفهمك بطريقة أفضل. لأن هذه هي الحياة: إنها ممر يقود إلى فهم أسرارك. اغرز سهمك في صدري، وادفنه عميقاً حتى لا أستطيع استئصاله! اجعلني أتألم.. فمن أجلك تخليت عن الجميع، حتى عن أمي وأختي، والكاردينال. أنت وحدك ألمي، وفرحي. ذلّني لأنشد مجد اسمك. حطمني فأفرح. لأني أحبك، أنت وحدك...

كان قد وصل إلى الشاطىء الصغير حيث كان يحب أن يسبح، هلال أصفر بين جرفين بارزين. ووقف قليلاً ينظر عبر

البحر المتوسط إلى ما كان على أغلب الظن ليبيا، بعيداً على الأفق الداكن. ثم قفز بخفة على الدرجات إلى الرمال، وخلع صندله، وأمسكه بيده، ثم بدأ يسير على الرمل الناعم إلى مكانه المعتاد، فألقى بحذائه، وخلع قميصه وبنطاله القصير. كان هناك شابان انجليزيان يتحدثان بلهجة أوكسفوردية واضحة، يستلقيان مثل اثنين من القريدس الوردي، غير بعيد من هناك، ووراءهما امرأتان تتبادلان عبارات متكاسلة بالألمانية. ونظر دين إلى المرأتين، وشد ثوب السباحة حول جسمه منزعجاً وقد لاحظ أنهما قد توقفتا عن الكلام واستويتا جالستين تربتان على شعرهما وتبتسمان له.

ـ كيـــف الحال؟ سأل الشابين، وكان يراهما كل يوم على الشاطىء، وقد أصبحا جزءاً من المنظر.

ـ في أحسن حال يا صديق. انتبه إلى التيار، إنه قوي. لا بد أن هناك دوامة غير بعيدة.

ـ شكراً. قال دين مبتسماً وركض نحو الموجات التي كانت تتكسر ببراءة على الرمال، وغطس ببراعة في الماء القليل العمق. كانت سباحاً ماهراً. غريب كيف كان الماء الهادىء خداعاً. كان التيار غشاشاً، وكان يحس به وهو يشده من ساقيه ليسحبه نحو الأسفل، ولكنه كان بارعاً في السباحة، ولم

يخف. وانزلق بنعومة عبر الماء، ورأسه إلى الأسفل، يستمتع بالبرودة المنعشة، والحرية. وعندما توقف ونظر جهة الشاطىء، رأى الألمانيتين تخلعان قبعتي السباحة، وتركضان ضاحكتين نحو الأمواج.

ووضع راحتيه حول فمه، وناداهما بالألمانية يطلب منهما البقاء قرب الشاطىء بسبب التيار. وضحكتا، ولوحتا بأيديهما تشيران إلى أنهما قد فهمتا. فأنزل رأسه، وعاود السباحة، ثم ظن أنه قد سمع صرخة. ولكنه سبح أيضاً بعض الشيء، ثم توقف في مكان كان التيار فيه خفيفاً. كانت هناك صرخات فعلاً، وعندما استدار، رأى المرأتين تقاومان التيار، ووجهاهما الملتويان يصرخان؛ وقد رفعت أحداهما ذراعيها إلى الأعلى وهي تغرق. وعلى الشاطىء، ووقف الشابان الانجليزيان وأخذا يتقدمان من الماء على مضض.

واستدار على بطنه، وانطلق كالسهم عبر الماء، مقترباً شيئاً فشيئاً. وامتدت صوبه أذرع مذعورة، وتعلقت به، وسحبته إلى الأسفل؛ واستطاع أن يقبض على إحدى الامرأتين من خصرها، ويوجه إليها ضربة قوية على ذقنها أفقدتها الوعي، ثم شد الأخرى من ربطة لباس السباحة، ورمى بركبته بشدة على عمودها الفقري،

فقطع أنفاسها. وسعل، لأنه كان قد ابتلع بعض الماء وهو يغوص، واستدار على ظهره وبدأ يسحب عبئه الثقيل.

كان الانجليزيان يقفان وقد وصل الماء إلى أكتافهما، ومنعهما الرعب من المغامرة إلى أبعد من هذا، ولم يلمهم دين لذلك مطلقاً. ولمست قدماه الرمال، وتنفس الصعداء. ومن أعماق إرهاقه، استمد نفحة أخيرة من قوة لا بشرية، ورمى المرأتين في مكان أمين قليل العمق، فاستجمعتا حواسهما بسرعة، وبدأتا تصرخان من جديد وهما تتخبطان بوحشية. وشهق دين وهو يحاول أن يبتسم، لقد قام بواجبه، وبإمكان الانجليزيين أن يقوما بالباقي. وبينما كان يرتاح، وصدره يعلو ويهبط، سحبه التيار ثانية، ولم تعد قدماه تلامسان القعر، حتى عندما مدهما نحوه. لولا رحمه الله، ولو لم يكن هناك، لغرقت الفتاتان حتماً، فالانجليزيان لم يكونا قادرين ولا بارعين في السباحة لإنقاذهما. ولكن صوتاً في أعماقه قال له: لقد أرادتا السباحة لتكونا بقربك فقط، وحتى اللحظة التي رأتاك فيها، لم يكن في نيتهما السباحة. لقد كانت هذه غلطتك، إن تعرضهما للخطر هو غلطتك أنت.

وبينما كان يعوم بسهولة، شعر بألم حاد يتبرعم في صدره،

مثل انغراز سهم بالضبط، مثل حربة طويلة محماة حمراء تحمل الموت. وصرخ، ورمى بذراعيه فوق رأسه، وقد تصلب، وتوترت عضلاته. ولكن الألم ازداد، وأجبره على إنزال ذراعيه، ووضع راحتيه تحت إبطيه، ورفع ركبتيه نحو الأعلى. قلبي! إنها أزمة قلبية، إني أموت! قلبي! لا أريد أن أموت! ليس الآن، ليس قبل أن أبدأ عملي، ليس قبل أن أبرهن عن نفسي! أيها الرب القدير، ساعدني! فأنا لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت!

وهدأ البدن المتشنج، وتراخى، واستدار دين على ظهره، وفتح ذراعيه على سعتهما، فأخذتا تعومان بتراخٍ رغم الألم. ونظر من خلال أهدابه المبللة إلى القبة السماوية البعيدة، عالياً، عالياً. هذا هو، هذا هو السهم الذي استجديته منك من خلال كبريائي، ومنذ ساعة فقط. أعطني الفرصة لكي أتألم، هذا ما قلته لك، اجعلني أتألم. والآن، عندما يأتي الألم، فأنا أقاومه عاجزاً عن الحب الكامل. أيها الرب العزيز، هذا هو ألمك، وعلي أن أتقبله، ليس لي بمقاومته، يجب ألاّ أقاوم إرادتك. إن يدك جبارة وهذا هو ألمك، كما شعرت أنت به على الصليب. يا إلهي، يا إلهي أنا مُلكك! وإذا كانت هذه مشيئتك، فلتكن. فأنا كالطفل أضع نفسي بين يديك اللامتناهيتين. أنت عظيم، فارحمني. ما الذي

فعلته حتى استحق منك كل هذا، ومن الناس الذين أحبوني أكثر مما أحبوا أي شخص آخر؟ لماذا تعطيني كل هذا بينما لا أستحقه؟ الألم، الألم! أنت عظيم الرحمة بي. لا تدعه يطول، هكذا طلبت منك، ولم يطل. إن ألمي سيكون قصيراً، وسينتهي بسرعة. وقريباً أرى وجهك، وأما الآن، وما زلت في هذه الحياة، فإني أشكرك. الألم أيها الرب الغالي، إن رحمتك عظيمة، وأنا أحبك!

ومرت بالجسد الساكن المنتظر رعشة عظيمة. وتحركت شفتاه وهو يتمتم أسماً، ويحاول الابتسام. ثم توسعت حدقتاه، وأمحت زرقة عينيه إلى الأبد.

وعلى الشاطىء، في مأمن، رمى الانجليزيان بحمولتهما الباكية على الرمل، ووقفا يبحثان عنه بعينيهما. ولكن البحر الأزرق العميق الصافي كان خالياً، واسعاً. وتراكضت الموجات تتكسر على الشاطىء ثم تنسحب. لقد ذهب دين.

وتذكر أحدهما أن مركز القوات الجوية الأميريكية لا يبعد كثيراً، وجرى يطلب النجدة. ولم تكن قد مضت نصف ساعة على اختفاء دين عندما حلقت طائرة هيليكوبتر تضرب الهواء باهتياج، وترسم في طيرانها حلقات تتسع شيئاً فشيئاً، من

الشاطىء، وتبحث. لم يكن أحد يتوقع أن يرى شيئاً. فالذين يغرقون يذهبون إلى القعر، ولا يلفظهم البحر إلا بعد أيام. ومرت ساعة، وعلى حوالي الخمسة عشر ميلاً من الشاطىء لمحوا دين يطفو بسلام على صدر الأمواج، وذراعاه مفتوحتـان، ووجهه مستدير نحو السماء. وظنوا لحظة أنه حي، وتهللوا، ولكن عندما اقتربت الطائرة تلامس الماء وتنثره مثل الزبد، تبينوا أنه كان ميتاً. وأعطيت التعليمات من راديو الطائرة، فخرج زورق سريع، وعاد به بعد ثلاث ساعات.

وانتشر الخبر. كان الكريتيون قد أحبوا رؤيته وهو يمر، وأحبوا تبادل كلمات قليلة خجولة معه. أحبوه بدون أن يعرفوه. وتجمعوا على الشاطىء، وقد توشحت النسوة بالسواد مثل طيور عجائز، والرجال يرتدون بنطالات قديمة منفوخة، وقمصاناً بيضاء مفتوحة على الرقبة، وقد طووا أكمامهم على سواعدهم. ووقفوا، مجموعات واجمة، ينتظرون.

وعندما وصل الزورق، قفز منه عريف ضخم على الرمال، واستدار ليتناول بين ذراعيه شكلاً ملفوفاً بغطـاء. وسار بضعة خطوات على الشاطىء، متجاوزاً خط الماء، ثم مدد حمله

على الأرض بمساعدة رجل آخر. وانفتح الغطاء، وتصاعدت من جموع الكريتيين همهمة مرتفعة. والتموا حوله يضغطون بصلبانهم على شفاههم التي شققتها الشمس، وركعت النسوة وتصاعد من أفواههن أنين صامت، يشبه الموسيقى، حزين، صبور، بشري، أنين الانثى.

كانت الساعة قد قاربت الخامسة، والشمس، وقد اختفى نصفها، تزحف نحو الغرب، وراء الأجراف العابسة، ولكنها كانت لا تزال عالية بشكل يكفي لإضاءة الحشد الأسود على الشاطىء، والجسم الساكن الطويل الممدد على الرمال، بجلده الذهبي، وعينيه المغمضتين وقد امتلأت رموشه بذرات الملح الجاف، وعلت شفتيه المزرقتين ابتسامة خفيفة. وجاءوا بحمالة وحملوا جميعاً، اميركيون وكريتيون، جسم دين بعيداً.

كانت أثينا في اضطراب شديد، والحشود الثائرة تهز النظام هزاً، ولكن قائد قوات الطيران الأميركية استطاع الاتصال برؤسائه على موجة خاصة، بواسطة اللاسلكي، وهو يحمل بيده جواز سفر دين الأزرق الاسترالي. والجواز ككل وثيقة من هذا النوع، لا ينبىء بشيء عن صاحبه. كان يشير ببساطة إلى مهنته

كـ «طالب»، وفي الصفحة الأخيرة كان هناك اسم جوستين، كأقرب أقربائه، وبقرب الأسم، عنوانها في لندن. فبدون أن يهتم للمعنى القانوني للعبارة، كان دين قد وضع اسمها، لأن لندن أقرب إلى روما من دروغيدا. وفي غرفته الصغيرة، في النزل، لم تكن الحقيبة المربعة السوداء التي تحتوي على أغراضه الكنسية قد فتحت بعد؛ كانوا بانتظار التعليمات.

○

عندما رن الهاتف في التاسعة من ذلك الصباح، استدارت جوستين في سريرها، وفتحت عينيها المتعبتين، وبقيت متمددة تشتم وتقسم أنها ستطلب فصل هذا الاختراع اللعين. ولأن بقية العالم يظن أن من الحق والعدل أن يبدأ عمله في التاسعة صباحاً، لماذا يعتقد أن الآخرين يفكرون بالطريقة نفسها؟

ولكنه استمر يرن، ويـرن، ويـرن. ربما كان هذا ريـن. وأيقظتها الفكرة فنهضت، واتجهت نحو غرفة الجلوس وهي تترنح. كان البرلمان الألماني في جلسة طارئة، وهي لم تر رين منذ أسبوع، ولم تكن تأمل رؤيته قبل أسبوع آخر على الأقل. ولكن ربما كانوا قد حلوا الأزمة، وهو يناديها ليخبرها بأنه في طريقه إليها.

ــ آلو ؟

ــ الآنسة جوستين أونيل ؟

ــ نعم ، من المتكلم ؟

ــ هنا « المنزل الاسترالي » في « ألدويتش » ، أتعرفيننا ؟

كان الصوت يتكلم بلهجة انجليزية ، وأعطاها اسماً لم تفهمه حالاً لشدة تعبها . وكانت لا تزال تحاول أن تقنع نفسها بأن الصوت الذي تسمعه ليس صوت رين .

ــ حسناً ، « المنزل الاسترالي » ، وتثاءبت ووقفت على قدم واحدة ، ورفعت الأخرى تحكها بها .

ــ هل عندك أخ يدعى السيد دين أونيل ؟

وانفتحت عينا جوستين :

ــ نعم ، نعم .

ــ هل هو موجود حالياً في اليونان يا آنسة أونيل ؟

واستقرت قدماها الاثنتان على البساط ، وانغرزتا به .

ــ « نعم ، هذا صحيح » . ولم يخطر ببالها أن تصحح معلومات المتكلم وتخبره بأنه « الأب » ، وليس « السيد » أونيل .

ــ آنسة أونيل ، إن علي بمزيد الأسف أن أقول لك أن واجبي التعس يفرض علي أن أبلغك نبأ سيئاً .

ــ نبأ سيء؟ نبأ سيء؟ وما هو؟ ماذا في الأمر؟ ما الذي جرى؟

ــ أني شديد الأسف إذ أخبرك بأن أخاك، السيد دين أونيل، قد غرق أمس في جزيرة كريت، وعلى ما قيل في ظروف بطولية، وهو يحاول إنقاذ شخص كان في خطر. على كل، أنت تعلمين أن هناك ثورة في اليونان، وأن المعلومات التي تصلنا، مقتضبة، وغير صحيحة.

كان الهاتف موضوعاً على طاولة قرب الحائط، فاستندت جوستين عليه. وارتخت ركبتاها وأخذت تنزلق ببطء إلى الأسفل، ثم ارتمت متكورة على الأرض. لم تكن تضحك، ولم تكن تبكي، بل كانت تصدر صوتاً بين الضحك والبكاء، وشهقات مسموعة. دين غرق. ثم تشهق. دين ميت، وتشهق. كريت، دين، غريق. وتشهق، ميت، ميت.

ــ آنسة أونيل؟ ألا تزالين معي يا آنسة أونيل؟ سأل الصوت بإلحاح.

ميت، غريق، أخي!

ــ آنسة أونيل؟ أجيبيني.

ــ نعم، نعم، نعم، نعم! يا إلهي، إنني هنا!

ــ لقد فهمت من جواز سفره أنك أقرب المقربين إليه، ولهذا فنحن ننتظر تعليماتك فيما يتعلق بالجثمان. يا آنسة أونيل، أتسمعينني؟

ــ نعم، نعم.

ــ ماذا تريدين أن نفعل بالجثة يا آنسة أونيل؟

الجثة! لقد أصبح جثة، وهم لا يستطيعون أن يقولوا «جثته»، بل عليهم أن يقولوا «الجثة». دين، يا حبيبي دين. إنه جثة. «أقرب الأقرباء»؟ سمعت نفسها تسأل بصوت ضئيل غير مسموع، وقد مزقتها الشهقات العظيمة. «أظن أني لست أقرب أقربائه، بل هي أمي، على ما اعتقد».

وتوقف الصوت لحظة على الطرف الآخر من الخط، ثم:

ــ «إن ذلك شديد الصعوبة يا آنسة أونيل. إذا لم تكوني أقرب أقربائه فقد أضعنا بذلك وقتاً ثميناً». وتحول التهذيب في الصوت إلى نفاذ صبر». يبدو أنك لا تفهمين أن هناك ثورة قائمة في اليونان، وإن الحادث قد وقع في جزيرة كريت، وهي بعيدة جداً، ومن الصعب الاتصال بها، حقاً! فالاتصال مع أثينا هو شبه مستحيل، وقد تلقينا أوامر بأن علينا أن نعلمهم برغبات

وتعليمات أقرب الأشخاص فيما يتعلق بالجثة، وحالاً. هل أمك هنا؟ هل أستطيع أن أكلمها من فضلك؟

ــ إن أمي ليست هنا. إنها في استراليا.

ــ استراليا؟ يا إلهي، إن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ! علينا الآن أن نبرق إلى استراليا، وذلك سيعطلنا أيضاً. وإذا لم تكوني أقرب أقربائه، فلماذا كتب ذلك إذن في جواز سفره؟

ــ لست أدري. قالت ووجدت نفسها تضحك.

ــ أعطني عنوان أمك في استراليا، سنرسل لها برقية على الفور. فعلينا أن نعلم ماذا سنفعل بالجثة! وسوف يستغرق إرسال البرقية وانتظار الجواب حوالي الاثنتي عشرة ساعة، آمل أن تفهمي ذلك. والأمر صعب بدون هذه التعقيدات.

ــ اتصل بها هاتفياً إذن، لا تضع وقتك بالبرقيات.

ــ «إن ميزانيتنا لا تسمح لنا بالقيام بمكالمات دولية يا آنسة أونيل». قال بصوت جاف. «والآن أرجوك أن تعطيني اسم أمك وعنوانها».

ــ «السيدة ميغي أونيل» قالت جوستين. «دروغيدا، غيللانبون، نيو ساوث ويلز، استراليا». وهجأت له الأسماء الغريبة.

ـ مرة ثانية يا آنسة أونيل، اسمحي لي بأن أعبر عن أسفي الشديد.

وخُبطت السماعة، وعاد صوت الخط الفارغ، وجلست جوستين على الأرض وتركت السماعة ترتمي في حضنها. كان هناك خطأ، سوف يتضح كل شيء. دين يغرق، بينما كان يسبح كبطل سباحة؟ كلا، لم يكن هذا صحيحاً. ولكنه صحيح يا جوستين، وأنت تعلمين ذلك، إنك لم تذهبي معه لحمايته، فغرق. لقد كنت حاميته منذ كان طفلاً، وكان عليك أن تكوني بقربه. وإذا لم يكن بإمكانك إنقاذه فقد كان عليك أن تكوني هناك وتغرقي معه. والسبب الوحيد لعدم ذهابك هو أنك أردت البقاء في لندن كي تجبري رين على الذهاب معك إلى الفراش.

كان التفكير صعباً، كان كل شيء صعباً. كان كل شيء يبدو مشلولاً، حتى ساقاها. لم تكن تستطيع الوقوف، إنها لن تنهض ثانية، أبداً. لم يكن في ذهنها مكان لأي مخلوق آخر غير دين، وكانت أفكارها تدور في حلقات متضايقة تتجه كلها نحو دين. إلى أن فكرت بأمها، وبأهل دروغيدا. آه، يا إلهي. ستصل الأخبار إلى هناك، ستصلها الأخبار، ستصل إليهم. ولم تكن أمها قد حظيت حتى بنظرة إلى وجهه الرائع في روما.

سوف يرسلون برقية إلى شرطة غيللي، على ما اعتقد، وسيتسلق العريف العجوز إيرن سيارته ويقودها على الكيلو مترات التي تفصله عن دروغيدا، ليخبر أمها أن ابنها الوحيد قد مات. وهو ليس بالرجل المناسب للقيام بهذه المهمة، إنه غريب. سيدة أونيل، بأسف عميق شديد، أخبرك أن ولدك قد مات. كلمات منمقة، مهذبة، وفارغة... كلا! لا أستطيع أن أدعهم يفعلون هذا بها، ليس بها، إنها أمي أنا أيضاً! ليس بهذه الطريقة، ليس بالطريقة التي سمعت بها أنا النبأ.

وسحبت الهاتف عن الطاولة، ووضعته في حجرها، ورفعت السماعة إلى أذنها وطلبت عامل الهاتف:

ـــ يا محول، أرجوك، أريد مخابرة دولية. آلو؟ أريد أن أتكلم مع استراليا، بسرعة، غيللانبون، ٢١٢. وأرجوك، أرجوك اسرع.

○

وردت ميغي على الهاتف بنفسها. كان الوقت متأخراً، و «في» قد ذهبت إلى السرير. ولم تكن ميغي تهفو إلى سريرها باكراً هذه الأيام، بل كانت تفضل أن تجلس وتستمع إلى غناء الضفادع والصرصار، وتغفو فوق كتابها، وتتذكر.

ــ آلو ؟

ــ لندن تكلمك يا سيدة أونيل . قالت « هيزل » في غيللي .

ــ آلو ، جوستين . قالت ميغي بدون اضطراب ، فقد كانت جوستين تكلمها غالباً بالهاتف ، لتطمئن على سير الأمور .

ــ أماه ، أهذا أنت يا أمي ؟

ــ نعم ، أنا أمك . قالت ميغي بلطف ، وهي تشعر بحزن جوستين .

ــ « آه يا أماه ! آه ، أماه ! » وسمعت ميغي ما يشبه الشهقة أو النحيب : « أماه ، لقد مات دين ، دين قد مات » .

وانفتحت هوة تحت قدميها ، وهوت ، وهوت ، وهوت ولم تصل إلى القاع . وسقطت ميغي في الهوة ، وشعرت بشفتي الهوة تطبقان حول رأسها ، وفهمت أنها لن تخرج ثانية منها ، طالما بقيت على قيد الحياة . ما الذي تستطيع الآلهة أن تفعل أيضاً ؟ لم تكن تعلم عندما سألت ذلك السؤال ، كيف استطاعت أن تطرحه ؟ كيف لم تعلم ؟ لا تجربي الآلهة ، فهي تحب ذلك . إنها بعدم ذهابها لرؤيته في أروع لحظات حياته ، وإذا رفضت أن تقاسم الآلهة عليه ، ظنت أنها قد دفعت الفدية ، وبذلك تحرر دين من هذه الفدية ، ومنها . وظنت أيضاً أنها تدفع الثمن بعدم رؤيتها للوجه الذي أحبته

أكثر من أي شيء في العالم. وانطبقت الهوة، خانقة. ووقفت ميغي هناك وقد فهمت أن الأوان قد فات.

ـــ « جوستين، يا أغلى ما عندي، اهدئي »، قالت ميغي بقوة، ولم يكن في صوتها رعشة. « اهدئي واخبريني، هل أنت متأكدة من هذا؟ ».

ـــ « لقد كلمني « المنزل الاسترالي »، ولقد ظنوا أني أقرب أقربائه. لقد كلمني رجل كريه كان يريد أن يعلم فقط ماذا أريد أن يفعل بالجثة. « الجثة ». ظل يردد وهو يسمي دين « الجثة ». كما لو أنها لم تعد تخصه، أو كأنها لأي انسان آخر ». وسمعت ميغي النحيب. « يا إلهي، أظن أن الرجل المسكين كان يكره ما يفعله. آه يا ماما، لقد مات دين! ».

ـــ كيف كان ذلك يا جوستين؟ وأين؟ في روما؟ لماذا لم يكلمني رالف؟

ـــ كلا، ليس في روما. إن الكاردينال لا يعلم بشيء على ما أظن. في جزيرة كريت. لقد قال الرجل أنه قد غرق، وكان ينقذ غريقاً آخر. كان في إجازة يا أماه، ولقد طلب مني أن أذهب معه، ولم أذهب. كنت أريد أن أمثل ديدمونة. وإن أبقى مع رين. لو

أني فقط ذهبت معه! لو ذهبت معه لما حدث ذلك. آه يا إلهي، ماذا بإمكاني أن أفعل؟» .

ــ «يكفي يا جوستين»، قالت ميغي بصرامة. «لا تفكري بهذه الطريقة، هل تسمعينني؟ إن دين كان سيكره ذلك، أنت تعلمين هذا. إن هناك أشياء تحدث ولا نعلم لماذا. المهم الآن، هل أنت بخير؟ آمل ألاّ أكون قد فقدتكما أنتما الاثنين. لم يبق لي إلاّ أنت الآن. آه، جوس، جوس، أنت بعيدة جداً! العالم كبير، كبير جداً. عودي إلى البيت إلى دروغيدا! إني أكره أن أتصورك وحيدة» .

ــ كلا، إن علي أن أعمل. فالعمل هو دوائي الوحيد، وإذا لم أعمل فسأجنّ. أنا لا أريد الناس، ولا أريد المواساة. آه، يا أمي» . وبدأت تنتحب بمرارة. «كيف ستعيشين بدونه؟»

كيف بالفعل؟ أهذه هي الحياة؟ أنت من الله، وإلى الله تعود. تراب يعود إلى تراب. إن الحياة لأمثالنا ممن فشلوا. أيتها الآلهة الطماعة، التي تجمع الأفضل لنفسها، وتترك العالم لنا، نحن النفايات.

ــ «ليس لنا نحن أن نقرر كم سنعيش»، قالت ميغي. «جوسي، إني أشكرك جداً لإخباري بذلك بنفسك» .

ـــ لم أكن أتحمل مجرد التفكير بأن غريباً سيحمل لك النبأ يا ماما . ليس بهذه الطريقة ، من غريب . ماذا ستفعلين ؟ ماذا باستطاعتك أن تفعلي ؟

وحاولت ميغي بكل قواها أن تسكب بعض حرارة المواساة ، عبر المسافات ، على هذه الابنة المحطمة ، في لندن . فابنها قد مات ، ولكن ابنتها ما زالت حية ، وعليها أن تجمع أشلاءها إذا كان ذلك ممكناً . فخلال حياتها كلها ، كان يبدو أن جوستين لم تحب إلاّ دين . لا أحد غيره ، حتى نفسها .

ـــ جوستين ، حبيبتي ، لا تبكي . حاولي ألاّ تحزني . فهو ما كان ليرغب في ذلك ، كلا . تعالي إلى البيت ، وانسي . سوف نأتي بدين إلى البيت ، إلى دروغيدا ، أيضاً . فهو ملكي ثانية ، حسب القانون ، إنه ليس ملك الكنيسة ، ولا يستطيعون أن يقفوا بوجهي . سأتصل بـ « المنزل الاسترالي » فوراً ، وبالسفارة في أثينا ، إذا استطعت بلوغها . يجب أن يأتي إلى البيت ! إني أكره أن أفكر به راقداً في مكان بعيد عن دروغيدا . فهو يخص هذا المكان ، وعليه أن يأتي إلى البيت . تعالي معه يا جوستين .

ولكن جوستين جلست مثل كومة على الأرض ، وهي تهز

برأسها، وكأن باستطاعة أمها أن تراها. أن تأتي إلى البيت؟ لن يكون باستطاعتها العودة إلى البيت أبداً. لو أنها رافقت دين، لما مات. كيف تعود إلى البيت. وتضطر إلى النظر إلى وجه أمها كل يوم، بقية أيام حياتها؟ كلا، أنها لا تحتمل مجرد التفكير بذلك.

ــ «كلا يا أماه»، قالت والدموع تجري على وجنتيها، محرقة مثل الحديد المصهور. من الذي قال، بحق الشيطان، إن من يتأثر جداً لا يستطيع البكاء؟ إنهم لا يعلمون شيئاً عن هذا. «سأبقى هنا، واعمل. سأرافق دين إلى البيت، ولكنني سأعود إلى هنا. لا أستطيع العيش في دروغيدا».

وانتظروا ثلاثة أيام بكاملها، في فراغ عقيم؛ جوستين في لندن، وميغي والعائلة في دروغيدا، وقد خدعهم صمت السلطات وأحيا الأمل العنيد في أعماقهم. آه، بعد كل هذا الصمت، لا بد أنهم قد اكتشفوا أن هناك خطأً! أكيد، لو كان ذلك صحيحاً لسمعوا به حتى الآن! وسيأتي دين إلى باب جوستين مبتسماً، ويقول إن الأمر كان خطأً سخيفاً. فالثورة كانت مشتعلة في اليونان، وكل الأخطاء ممكنة. سيصل دين إلى الباب، ويضحك من فكرة موته، إلى حد السخرية، سيقف هناك، طويلاً، قوياً،

مليئاً بالحياة، وسيضحك. وأخذ الأمل يكبر، ويكبر مع كل دقيقة انتظار. إن الأمل غدّار مرّوع. إنه لم يكن ميتاً، كلا! ليس غريقاً، ليس دين الذي كان بارعاً في السباحة لدرجة أن يتحدى أي بحر، ويحيا. وهكذا انتظروا، دون أن يقروا بما حدث، على أمل أن ينكشف الأمر كخطأ. لا يزال هناك وقت لإبلاغ الآخرين وروما.

وفي صباح اليوم الرابع، وصلت الرسالة لجوستين. وكامرأة عجوز، تناولت سماعة الهاتف من جديد، وطلبت الاتصال باستراليا:

ـــ ماما؟

ـــ جوستين؟

ـــ آه يا أمي، لقد دفنوه، ليس بإمكاننا نقله إلى البيت! ماذا سنفعل؟ وكل ما استطاعوا أن يقولوه لي هو أن جزيرة كريت فسيحة، وإن اسم القرية مجهول، وحين وصلت البرقية، كانوا قد أخذوه في ذلك الوقت إلى مكان ما ودفنوه. إنه يرقد في قبر بدون أية شاهدة، في مكان ما! ليس بإمكاني الحصول على تأشيرة لليونان، ولا أحد يريد مساعدتي، كل شيء مشوش.

ماذا سنفعل يا أمي ؟

ــ قابليني في روما يا جوستين . قالت ميغي .

كان الجميع هناك ما عدا آن مولر ، وقد تحلقوا حول الهاتف ، وما زالوا تحت تأثير الصدمة . كان يبدو أن الرجال قد شاخوا عشرين سنة خلال ثلاثة أيام ، و« في » ، وقد تقلصت مثل طائر مريض ، شاحب ومتذمر ، تدور وتدور في أرجاء البيت وهي تردد : « لماذا ليس أنا؟ لماذا لم يأخذونني بدلاً منه؟ فأنا عجوز ، عجوز ! ولم يكن يهمني أن أرحل عن هذه الدنيا . لماذا كان يجب أن يذهب هو؟ لماذا ليس أنا؟ فأنا عجوز » . أما آن مولر فقد انهارت تماماً ، بينما كانت السيدة سميث ، وميني وكات يمشين ويرقدن وسط الدموع .

ونظرت إليهم ميغي بصمت وهي تعيد السماعة إلى مكانها . هذه هي دروغيدا ، أو بالأحرى ما بقي منها . قطيع صغير من الرجال والنساء العجز ، عقيمين ، محطمين .

ــ لقد فُقِد دين ، ولا أحد يستطيع العثور عليه ؛ لقد دفن في مكان ما من جزيرة كريت . وهي بعيدة جداً ! كيف يستطيع أن يرقد بسلام وهو بعيد كل هذا البعد عن دروغيدا؟ إنني

ذاهبة إلى روما، إلى رالف دو بريكاسار. فهو الوحيد الذي يستطيع مساعدتنا.

○

دخل السكرتير إلى غرفة الكاردينال دو بريكاسار:

ــ إني آسف لإزعاجك يا نيافة الكاردينال، ولكن هناك سيدة ترغب بمقابلتك. لقد شرحت لها أن هناك مؤتمراً، وأنك مشغول جداً ولا تستطيع مقابلة أحد، ولكنها أجابت أنها ستبقى في الردهة حتى يصبح عندك الوقت لاستقبالها.

ــ هل عندها مشكلة يا أبت؟

ــ مشكلة كبيرة يا سيدي، من السهل جداً رؤية ذلك. لقد قالت لي أن علي أن أخبرك أنها تدعى «ميغي أونيل». ولفظ الأسم بلهجة غريبة.

وقفز الكاردينال رالف على قدميه، وقد انسحب الدم من وجهه فأصبح أبيض بلون شعره.

ــ هل تشعر بالتوعك يا نيافة الكاردينال؟

ــ كلا يا أبت، إني بأحسن حال، شكراً. الغ كل مواعيدي إلى

إشعار آخر، وادخل السيدة أونيل حالاً. لا تدع أحداً يزعجنا إلا الأب الأقدس.

وانحنى الكاهن، وخرج. أونيل. بالطبع. كان هذا اسم دين الشاب، كان عليه أن يتذكر. إلا أن الجميع في قصر الكاردينال كانوا ينادونه بـ «دين». ولقد ارتكب غلطة شنيعة إذ جعلها تنتظر. وإذا كان دين هو ابن أخت نيافته المحبوب، فلا بد أن السيدة أونيل هي أخته المحبوبة.

عندما دخلت ميغي إلى الغرفة، لم يتعرف عليها الكاردينال رالف إلا بصعوبة. فقد رآها لآخر مرة منذ ثلاثة عشر عاماً، وكانت الآن في الثالثة والخمسين وهو في الحادية والسبعين. لقد شاخا هما الاثنان، بدلاً من أن يكون هو وحده من شاخ. ولم يكن وجهها قد تغير بقدر ما تجمد، وفي قالب لا يشبه القالب الذي كان ينسبه إليها في مخيلته. فعوضاً عن النعومة، كانت هناك حدة قاطعة؛ وبدلاً من الرقة، كانت هناك لمسة من الفولاذ؛ وكانت تشبه هكذا شهيدة قوية، عجوزاً متصلبة، أكثر مما تشبه القديسة المتأملة، المستسلمة، التي رسمها في أحلامه. كان جمالها أخاذاً، كما فيما مضى، وعيناها باللون الرمادي الفضي النقي نفسه، ولكن

جمالها وعينيها أصبحا قاسيين ، وتحول الشعر الذي كان براقاً ، إلى لون قشدي قاتم ، شبيه بشعر دين ، وإنما بدون حياة . والأغرب من هذا كله ، إنها لم تكن تنظر إليه طويلاً لكي تشبع فضوله المحب المتلهف .

وعجز عن استقبال هذه الـ « ميغي » بطريقة طبيعية ، فأشار لها إلى مقعد :

ــ أرجوك ، تفضلي بالجلوس .

وقالت ، وهي الأخرى متكلفة :

ــ شكراً .

وعندها فقط ، عندما جلست وأصبح باستطاعته أن ينظر إلى كل شخصها ، لاحظ تورم قدميها وكاحليها .

ــ ميغي ، هل أخذت الطائرة من استراليا إلى روما بدون توقف ؟ ماذا هنالك ؟

ــ نعم ، لقد طرت مباشرة بخط مستقيم ، وخلال الساعات التسعة والعشرين الماضية ، قضيت الوقت جالسة في الطائرات ما بين غيللي وروما ، ولا شيء أفعله سوى النظر من النافذة إلى الغيوم والتفكير .

كان صوتها خشناً بارداً .

ـ ماذا في الأمر ؟ ردد سؤاله بنفاذ صبر ، وقد بدأ القلق والرعب يعتملانه . ورفعت أنظارها عن قدميها ، ونظرت إليه بإمعان .

كان هناك شيء مروّع في عينيها ، شيء مظلم جداً ، يجمد الدم في العروق ، حتى إن الشعر انتصب على مؤخرة رأسه ، ومد يده لا شعورياً يمسده .

ـ لقد مات دين .

وارتخت يده بتثاقل ، مثل دمية قماشية ، على حجر ثوبه الأرجواني ، وارتمى في مقعد .

ـ « مات ؟ » سأل ببط . « دين قد مات ؟ » .

ـ نعم . لقد غرق منذ ستة أيام في جزيرة كريت ، بينما كان ينقذ امرأة كان التيار يجرفها .

وانحنى إلى الأمام ، ووضع يديه على وجهه ، وسمعته يردد بوضوح :

ـ « ميت ؟ دين ميت ؟ ولدي الجميل ! لا يمكنه أن يموت ! دين ، لقد كان هو الكاهن الكامل . كل ما لم أستطع أنا أن أكونه . لقد كان هو يملك ما ينقصني أنا » . وتكسر صوته . « لقد كان

دائماً يملكه، لقد رأينا ذلك جميعنا، نحن الذين لا نشبه بشيء الكاهن المثالي. ميت؟ أواه، ياإلهي العزيز!».

ــ «لا تتعب نفسك بإلهك العزيز يا رالف». قالت الغريبة الجالسة في مواجهته. «هناك أشياء أشد أهمية عليك أن تقوم بها. لقد أتيتك طالبة العون، ولم آت لأشهد أساك. لقد قضيت كل تلك الساعات على الطائرة وأنا أفكر في الطريقة التي سأخبرك بها، كل هذه الساعات وأنا أحدق عبر النافذة إلى الغيوم وأنا أعلم أن دين قد مات. وبعد هذا كله، فإن حزنك عاجز عن تحريك مشاعري».

ومع ذلك، فعندما رفع وجهه من بين راحتيه، قفز قلبها الميت البارد بين ضلوعها، والتوى، ونط. كان وجه دين، وقد كتب الألم فوقه، ألم لم يعش دين ليشعر به. آه، شكراً لله أنه مات، ولن يعرف ما تحمل هذا الرجل، وما تحملت أنا. من الأفضل أنه مات دون أن يتألم من تلك التجارب.

ــ كيف أساعدك يا ميغي؟ سأل بهدوء، وهو يضغط على مشاعره لكي يدخل في دور مرشدها الروحي.

ــ «إن اليونان في اضطراب شديد، ولقد دفنوا دين في مكان ما من جزيرة كريت، ولا أعلم أين، ومتى، ولماذا. غير أني اعتقد

أن تعليماتي بخصوص إرساله بالطائرة إلى الوطن لم تصل في الوقت المناسب بسبب الحرب الأهلية، وكريت حارة مثل استراليا فعندما لم يطالب به أحد، اعتقد أنهم قد ظنوه بدون عائلة، فدفنوه». وانحنت في كرسيها إلى الأمام، متوترة. «إني أريد استعادة ولدي يا رالف، أريد أن أجده، وأن أنقله إلى البيت حيث يرقد في المكان الذي يخصه، في دروغيدا. لقد وعدت جيمس أن أحتفظ به في دروغيدا، وسأفعل، حتى لو كان علي أن أزحف على يدي وركبتي عبر كل مقبرة في كريت. ولا أريد له قبراً كهنوتياً غريباً في روما يا رالف، ليس طالما حييت وكان باستطاعتي أن أحارب بالقانون. يجب أن يعود إلى البيت».

ــ «لن ينكر أحد عليك هذا الحق يا ميغي»، قال برقة. «إنها أرض مقدسة كاثوليكية، وهذا كل ما تطلبه الكنيسة. أنا أيضاً طلبت أن أدفن في دروغيدا».

ــ «ليس باستطاعتي أن أقوم بكل الاجراءات»، تابعت كلامها، كما لو أنها لم تسمعه. «إني لا أتكلم اليونانية، وليس لي أية سلطة ولا نفوذ، ولهذا أتيت إليك، لاستعمل سلطتك ونفوذك. اعد لي ابني يا رالف!».

ـــ لا تجذعي يا ميغي، سوف نرجعه. مع أن ذلك سيستغرق بعض الوقت. إن اليساريين قد استلموا دفة الحكم حالياً، وهم شديدو العداء للكاثوليكيين، ولكني لست بدون أصدقاء في اليونان، وسيتم كل شيء كما نريد. دعيني أسيّر العجلات الآن، ولا تقلقي. إنه كاهن الكنيسة الكاثوليكية المقدسة، وسوف نستعيده».

وامتدت يده إلى حبل الجرس، ولكن نظرة ميغي الباردة المتوحشة جمدتها:

ـــ أنت لا تفهم يا رالف. إني لا أريد تسيير عجلات. ولكني أريد استعادة ابني، ليس في الأسبوع القادم، أو في الشهر القادم، بل الآن! أنت تتكلم اليونانية، وباستطاعتك الحصول على تأشيرة لك ولي، وبسهولة. أريدك أن تأتي معي إلى اليونان، والآن، لتساعدني في استعادة ابني.

كان في عينيه الكثير، الكثير: الحنان، والشفقة، والصدمة، والحزن. ولكنهما كانتا عيني الكاهن أيضاً، عاقلتين، منطقيتين، حكيمتين:

ـــ ميغي، إنني أحب ابنك كما لو كان ابني أنا، ولكن ليس

باستطاعتي مغادرة روما حالياً. فأنا لست حراً بالتصرف كما أشاء، وأنت تعلمين ذلك أكثر من غيرك. ومهما كان إحساسي من ناحيتك، وإحساسي من ناحيتي أنا، فلا أستطيع مغادرة روما في منتصف مؤتمر بهذه الأهمية. فأنا مساعد الأب الأقدس».

وتراجعت إلى الخلف مذهولة وجريحة، ثم هزت رأسها، وعلى شفتيها شبح ابتسامة كما لو كانت تشهد مهرّجاً من الخشب أو المعدن يقوم بحركاته السخيفة، وليس بوسعها أن توقفه؛ ثم ارتعشت، ومرت بلسانها فوق شفتيها، وبدت كما لو أنها قد وصلت إلى قرار، فوقفت مستقيمة متصلبة، وسألته:

ـ هل تحب ابني حقاً كما لو كان ابنك يا رالف؟ وماذا كنت ستفعل من أجل ابنك؟ هل تستطيع أن تجلس ثم تقول لأمه: كلا، أنا آسف، لا أستطيع أن أفرغ وقتي لذلك؟ هل بإمكانك أن تقول هذا لأم ابنك؟

عينا دين، وإنما ليست عيني دين. كان ينظر إليها مذهولاً، وقد امتلأتا بالألم واليأس.

ـ «ليس عندي ابن»، قال، «لكنني، ومن بين الأشياء العديدة

المتعددة التي تعلمتها من ابنك، قد تعلمت أني مدين بإخلاصي لله القدير قبل كل شيء، ومهما كان ذلك قاسياً » .

ــ إن دين كان ابنك أيضاً . قالت ميغي .

ونظر إليها وعيناه فارغتان :

ــ ماذا ؟

ــ لقد قلت أن دين كان ابنك أيضاً . فعندما غادرت جزيرة ماتلوك ، كنت حاملاً . ودين كان ابنك وليس ابن لوك أونيل .

ــ هذا ... ليس ... صحيحاً !

ــ لم يكن بنيتي أبداً أن أدعك تعلم ، حتى ولا الآن . هل بإمكاني أن أكذب عليك ؟

ــ نعم ، لكي تسترجعي دين . أجابها بوهن .

فنهضت وأتت تقف بقربه في كرسيه المغطى بالأرجوان ، وتناولت بيدها يده النحيلة ، المجعدة ، وانحنت وقبلت الخاتم ؛ وغطى بخار نفسها عقيق الخاتم ، فاختفى بريقه .

ــ إني أقسم بكل ما هو مقدس لديك يا رالف ، اقسم بأن دين هو ابنك . إنه لم يكن ، ولا يعقل أن يكون ابن لوك . إني أقسم بموته .

وتصاعد أنينه، شكوى روح عبرت أبواب الجحيم. وارتمى رالف دو بريكاسار من كرسيه، وأخذ ينتحب متكوراً على البساط القرمزي مثل بركة قانية من الدم الذي أهرق حديثاً، وقد أخفى وجهه بذراعيه المطويتين، ويداه تشدان على شعره.

ــ «نعم، ابكِ»، قالت ميغي. «ابكِ الآن، بعد أن عرفت! فمن العدل أن يستطيع أحد والديه أن يزرف الدموع من أجله. ابكِ يا رالف! فلقد كنت أملك ابنك خلال ستة وعشرين عاماً، ولم تعلم حتى بذلك، لم تستطع أن تكتشف ذلك. لم تستطع أن ترى أنه صورة ناطقة منك! لقد علمت أمي بذلك عندما أخذته بين يديها عند ولادته، وأما أنت فلم تعلم. يداك، قدماك، وجهك، عيناك، جسمك. ما عدا لون الشعر، فقد كان لونه هو، أما الباقي فكان أنت. هل تفهم الآن؟ عندما أرسلته إليك كتبت لك: «إني أعيد ما سرقت»، أتذكر؟ ولكننا سرقنا كلانا يا رالف. سرقنا ما كنت قد نذرته لله، وكان علينا كلينا أن ندفع الثمن».

وجلست في مقعدها، جامدة، بلا شفقة، ونظرت إلى الشكل الارجواني وهو ينازع على الأرض:

ــ لقد أحببتك يا رالف، ولكنك لم تكن ملكي. وما أخذته

منك، كان علي أن أسرقه. وكان دين حصتي، كل ما أمكنني أن آخذ منك، وقد نذرت أنك لن تعلم أبداً، ونذرت أني لن أعطيك الفرصة لتأخذه بعيداً عني. ومن ثم، كان هو الذي أعطى نفسه إليك، بمحض إرادته. كان يدعوك بـ «صورة الكاهن المثالي». كم ضحكت من ذلك! ولكني لم أكن لأسمح لنفسي، وبأي ثمن، أن أعطيك سلاحاً، كأن أخبرك بأنه ابنك مثلاً. إلّا من أجل ما حدث الآن، إلّا من أجل هذا! لم أكن سأخبرك لأقل من هذا. ومع أني لا أظن أن الأمر لا يزال مهماً الآن. إنه لم يعد ملكاً لأي منا، فهو ملك الله.

○

استأجر الكاردينال دو بريكاسار طائرة خاصة أقلته إلى أثينا، هو، وميغي، وجوستين، وعادوا بدين إلى البيت، إلى دروغيدا. وجلس الأحياء بصمت، والميت يرقد في نعشه بصمت، لا يطلب شيئاً من هذه الأرض بعد الآن.

علي أن أقيم هذا القداس، جنازة ابني. أحشاء أحشائي، ابني. نعم يا ميغي، إني أصدقك. كنت سأصدقك عندما

استرجع أنفاسي دون حاجة لقسمك المروّع. إن فيتوريو قد عرف ذلك منذ اللحظة التي وقعت عيناه بها على الصبي، وفي أعماق قلبي، أيضاً، لا بد أني عرفت. لقد سمعت ضحكتك أنت، خلف الورود، يطلقها الصبي، ولكن عينيّ كانتا تنظران إلي أنا، كما كنت في طفولتي البريئة. و«في» كانت تعلم، وآن مولر، كانت تعلم. ولكن ليس نحن الرجال. لم نكن نستحق أن نعلم. لأنكن أنتن النساء تعتقدن ذلك، فتحضنّ أسراركنّ، وتدرن ظهوركنّ لنا كي تنتقمن من ازدراء الله لكن، إذ لم يخلقكن على صورته. فيتوريو كان يعلم، ولكن الأنثى في داخله أخرست لسانه. انتقام رائع.

تكلم يا رالف دو بريكاسار. افتح فمك، حرك يديك مباركاً، ابدأ الترتيل باللاتينية عن روح الفقيد. الذي كان ابنك. وهو من أحببت أكثر مما أحببت أمه. نعم، أكثر! لأنه كان أنت مرة ثانية، إنما بقالب أكثر كمالاً.

ـــ «باسم الأب، والابن، والروح القدس...».

كانت الكنيسة مليئة، وقد أتى كل من استطاع الحضور. عائلة كنغ، وأوبروك، وديفيز، وبوغز، وماكوين، وغوردون،

وكارمايكل، وهوبتون. وعائلة كلبري، سكان دروغيدا. وقد ذوى الأمل، ومات النور. وفي الأمام، في نعش ضخم من الرصاص، رقد دين أونيل، وقد غطته الورود. لماذا كانت هناك ورود دائماً عندما يأتي إلى دروغيدا؟ كان ذلك في تشرين الأول، أوج الربيع. بالطبع، كانت الورود متفتحة، والوقت مناسب.

« مبارك ... مبارك ... مبارك ».

إعلم أن قدس الأقداس فوقك، يا حبيبي دين، يا ولدي الجميل. هذا أفضل، لم أكن أريد لك أن تصل إلى هذا، إلى ما أنا عليه. لماذا أقول لك هذا، لست أدري. أنت لست بحاجة إليه. كنت أبحث في الظلام عما وجدت أنت بغريزتك. لست أنت التعس، إنما نحن التعساء، نحن من خلفت وراءك. اشفق علينا، وحين يأتي زمننا، ساعدنا.

« ... اذهب بسلام ... »

وإلى الخارج، عبر المرج، بين أشجار الصمغ، والورود، وأشجار الفلفل، إلى المقبرة. نم يا دين، لأن الصالح فقط يموت شاباً. فلماذا نندبك؟ أنت محظوظ، لأنك هربت من هذه الحياة

المرهقة مبكراً. ربما كانت هذه هي الجحيم، حياة طويلة معلقة بالأرض. ربما أننا نعيش جحيمنا إذ نعيش...

ومر النهار، ورحل المعزون، وزحف سكان دروغيدا حول البيت خلسة، يتجنبون بعضهم؛ ونظر الكاردينال رالف إلى ميغي لحظة، ولم يتحمل أن ينظر إليها ثانية. ورحلت جوستين مع جان وبوي كنغ للحاق بطائرة بعد الظهر التي أقلتهم إلى سيدني، ثم أخذوا طائرة الليل إلى لندن.

ولم يتذكر أنه سمع صوتها الأجش الساحر، أو رأى العينين الغريبتين الشاحبتين. فمنذ اللحظة التي قابلته بها، هي وميغي، في أثينا، إلى اللحظة التي رحلت فيها برفقة جان وبوي كنغ، كانت مثل الشبح، وقد شدت حول نفسها غلافاً غير نفاذ. لماذا لم تتصل براينر هارتهايم وتطلب منه أن يقف بجانبها؟ كانت تعرف بالتأكيد مقدار حبه لها، وكم كان يرغب في أن يكون معها الآن. ولكن الفكرة لم تبق طويلاً في ذهن الكاردينال رالف المتعب، ونسي أن يتصل براينر بنفسه، مع أن الفكرة راودته مرات قبل مغادرته لروما. كانوا غرباء، أهل دروغيدا. إنهم لا يحبون وجود الآخرين في أحزانهم، ويفضلون البقاء وحيدين في ألمهم.

وجلست «في» وميغي فقط مع الكاردينال رالف في غرفة الجلوس، بعد العشاء الذي لم يمسه أحد. ولم يفه أحد بكلمة، وكانت الساعة المذهبة على الحائط تدق محدثة ضجيجاً كالرعد، وعينا ميري كارسون الجامدتان تتحديان جدّة «في» على الحائط الآخر. جلست «في» وميغي سوية على صوفا قشدية اللون، وقد تلاصق كتفاهما بشدة. ولم يتذكر الكاردينال رالف أنه قد رآهما بهذا التقارب فيما مضى. ولكنهما لم تنطقا بكلمة، ولم تلتفتا الواحدة إلى الأخرى، ولا إليه.

وحاول أن يفهم ذنبه. كان مذنباً من نواح عديدة. كانت هذه هي المشكلة. الكبرياء، الطموح، وشيء من اللا ضمير. وحب ميغي الذي تبرعم على هذه المزبلة. وتاج ذلك الحب المجيد، الذي لم يقدر له أن يعرفه. ولكن ما الفرق لو علم أنه كان ابنه؟ هل كان بإمكانه أن يحب الصبي أكثر مما أحبه؟ هل كان سيغير طريقه لو عرف أنه ابنه؟ نعم. صرخ قلبه؛ لا، أجاب عقله ساخراً.

وانقلب على نفسه بمرارة. غبي! كان عليك أن تعلم أن ميغي لم تكن قادرة على العودة إلى لوك. كان عليك أن تعلم حالاً

ابن من كان دين. كانت شديدة الاعتزاز به! كل ما كانت تستطيع الحصول عليه منك، هذا ما قالته لك في روما. حسناً يا ميغي... لقد أخذت فيه أفضل ما عندي. أيها الرب! كيف استطعت يا رالف أن تجهل أنه كان ابنك؟ كان عليك أن تكتشف ذلك عندما أتاك شاباً إذا لم تستطع ذلك من قبل. كانت تنتظر أن تكتشف ذلك، وتموت لهفة لكي تراك تكتشفه. لو أنك فهمت فقط، لكانت قد ذهبت إليك زحفاً على ركبتيها. ولكنك كنت أعمى، ولم ترد أن ترى. رالف راوول، كاردينال دو بريكاسار، هذا ما رغبت به، أكثر منها، أكثر من ابنك. أكثر من ابنك!

وامتلأت الغرفة بصرخات ضئيلة، وحفيف، وهمسات؛ وكانت الساعة تدق الوقت مع دقات قلبه. ثم تلاشى الزمن... ولم يعد بإمكانه اللحاق به. وكانت ميغي و «في» تسبحان وهما تقفان، وتطفوان بوجهين مذعورين في ضباب لزج، وهمي، وتنطقان بكلمات لم يكن يبدو أنه يسمعها.

ـــ «آه». صرخ وقد بدأ يفهم.

كان لا يكاد يحس بالألم، ولا يشعر إلاّ بذراعي ميغي

حوله، وبالطريقة التي تهاوى بها رأسه نحوها. ولكنه استطاع أن يستدير حتى رأى عينيها، ونظر إليهما. وحاول أن يقول «سامحيني»، ورأى أنها قد سامحته منذ زمن بعيد. كانت تعلم أنها قد حصلت على أفضل حصة. ثم حاول أن يقول لها شيئاً مميزاً، يعزيها إلى الأبد، وفهم أن ذلك أيضاً لم يكن ضرورياً. ومهما كان العبء فباستطاعتها تحمله، باستطاعتها تحمل أي شيء، أي شيء. وهكذا أغمض عينيه، واسلم نفسه للمرة الأخيرة، يبحث عن النسيان في ميغي.

الكتاب السابع

جوستين

١٩٦٥ ـ ١٩٦٩

الفصل التاسع عشر

كان راينر يجلس إلى مكتبه في الصباح الباكر وهو يحتسي فنجاناً من القهوة عندما قرأ خبر وفاة الكاردينال دو بريكاسار في الصحيفة. وكانت العاصفة السياسية التي هبت خلال الأسبوعين الماضيين قد بدأت تتلاشى أخيراً، وهكذا فقد جلس يستمتع بالمطالعة وهو يأمل في أن يرى جوستين قريباً، فتدخل بعض البهجة إلى مزاجه. ولم يكن صمتها الأخير قد أثار قلقه، فقد كان يعتبره رد فعل طبيعي عندها، فهي لا تزال بعيدة كل البعد عن تقبل مدى ارتباطها به.

ولكن نبأ وفاة الكاردينال طرد من رأسه كل فكرة تتعلق بجوستين، وبعد عشرة دقائق من ذلك كان يقود سيارته المرسيدس

٢٨٠ متجهاً نحو الاوتوستراد. لا شك بأن فيتوريو العجوز المسكين سيشعر بالوحشة، هذا عدا عن أن عبئه كان بطبيعة الحال، وفي أفضل الأوقات، ثقيلاً. إنه سيصل بسرعة أكثر في السيارة؛ ففي الوقت الذي سينتظر به الطائرة، داخلاً إلى مطار، وخارجاً من آخر، يكون قد وصل إلى الفاتيكان، كما أن قيادة السيارة كان عملاً إيجابياً يسمح له بالسيطرة على أعصابه، وهذا شيء هام بالنسبة لرجل مثله.

وعلم القصة بكاملها من الكاردينال فيتوريو، وقد كانت صدمته شديدة حتى أنه نسي أن يتساءل لماذا لم تفكر جوستين بالاتصال به.

ـ «لقد جاء يسألني إذا كنت أعلم أن دين كان ابنه»، قال الصوت الرقيق، بينما كانت يداه اللطيفتان تمسحان ظهر الهرة «ناتاشا».

ـ وبماذا أجبته؟

ـ قلت له أني قد شككت بذلك. لم يكن بإمكاني أن أقول أكثر. ولكن آه، وجهه! وجهه! لقد بكيت.

ـ وهذا قد قتله بالطبع. لقد ظننت آخر مرة رأيته فيها أنه على

غير مايرام، ولكنه ضحك مني ومن تلميحي له برؤية الطبيب.

ـــ إنها مشيئة الله. اعتقد أن رالف دو بريكاسار كان أكثر الرجال الذي عرفت عذاباً. وفي الموت سيجد السلام الذي لم يستطع أن يجده في حياته.

ـــ ولكن، الصبي يا فيتوريو، الصبي! إنه مأساة.

ـــ هل تعتقد ذلك؟ إني أظن على العكس إن ذلك شيء جميل. لا أستطيع أن أصدق إلا أن دين كان يرحب بالموت، وليس من المدهش أن الرب لم يستطع أن ينتظر دقيقة أخرى حتى يأخذ دين إليه. لقد تفجعت، ولكن ليس من أجل الشاب، إنما من أجل أمه التي لا بد أنها تعذبت أمر العذاب! ومن أجل أخته، وأخواله، وجدته. كلا، أنا لم أندبه هو. كان الأب أونيل يعيش في نقاوة تامة، ذهنياً وروحياً. وما الموت بالنسبة له إلاّ الانتقال إلى حياة خالدة! أما لنا نحن، فالعبور غير سهل.

أرسل راينر من الفندق برقية إلى لندن، ولم يستطع بها أن يعبر عن غضبه وألمه، وخيبة أمله. وقال: «علي أن أعود إلى بون، ولكني سأكون في لندن في نهاية الأسبوع. لماذا لم تخبريني. هل تشكين بكل حبي؟ رين».

وفي بون، وجد على مكتبه رسالة مستعجلة من جوستين،

ورزمة مسجلة، أخبرته سكرتيرته أنها قد وصلت من محامي الكاردينال دو بريكاسار في روما. وفتح الرزمة أولاً. وعلم منها أن عليه، بناء على وصية رالف دو بريكاسار، أن يضيف إلى لائحة إداراته الضخمة اسم شركة أخرى. شركة ميشار. ودروغيدا. ورغم سخطه، فقد تأثر كثيراً، إذ فهم أن هذه كانت طريقة الكاردينال لكي يعلمه، وبعد أن فكر طويلاً، أنه قد وجد راينر كفئاً، وإن صلواته أثناء الحرب قد حملت ثمارها. وهو يضع بين يدي راينر مستقبل ميغي أونيل المادي، ومستقبل عائلتها. أو هكذا فهم راينر الأمر، لأن كلمات وصية الكاردينال كانت رسمية تماماً. وكيف يمكن أن تكون شيئاً آخر؟

ورمى الورقة في السلة، مع الرسائل غير السرية، والتي تتطلب جواباً سريعاً، ثم فتح رسالة جوستين. ولقد بدأتها بجفاف، دون أية تحية:

«أشكرك على البرقية، إنك لا تعلم مدى سروري لأننا لم نكن على اتصال خلال هذين الأسبوعين الماضيين، لأني كنت سأمقت وجودك قريباً مني. وخلال ذلك الوقت، وكل ما كنت أستطيع قوله عندما أفكر بك، هو أني أشكر الله لأنك لم تعلم.

ربما صعب عليك أن تفهم هذا ، ولكني لا أريدك أبداً بقربي . ليس هناك أي جمال في الحزن يا رين ، ولن تستطيع أن تخفف من حزني لو كنت شاهداً عليه . وبالطبع فأنت ستقول أن ذلك برهان على ضآلة حبي لك ، ولو كنت أحبك حقاً ، لاستدرت نحوك غريزياً ، أليس كذلك ؟ ولكني وجدت نفسي استدير عنك » .

« وهكذا فأنا أفضل أن نتوقف هنا ، نهائياً ، يا رين . ليس عندي شيء أقدمه لك ، ولا أريد شيئاً منك . لقد علمني ما حدث مقدار غلاوة الانسان الذي يعيش بقربك ستة وعشرين عاماً . ولن أتحمل أن أقاسي ما قاسيت مرة ثانية ، ولقد قلت ذلك أنت بنفسك ، أتذكر ؟ الزواج أو لا شيء . حسناً ، لقد اخترت اللاشيء . لقد أخبرتني أمي أن الكاردينال مات بعد ساعات من مغادرتي لدروغيدا . غريب . كانت أمي متأثرة جداً بموته . إنها لم تقل شيئاً ، ولكني أعرفها . لم أفهم أبداً لماذا كنتم تحبونه ، أنت ، وهي ، ودين . فأنا لم أستطع أن أحبه ، لأنه كان مزيفاً . هذا رأيي ، ولست مستعدة لتغييره لمجرد موته » .

« هذا ما هنالك ، هذا كل شيء . إني أعني كل كلمة قلتها يا رين . لقد اخترت يا رين ، وأنا لا أريدك . اعتن بنفسك » .

كانت قد وقعت الرسالة كالعادة «جوستين» بخطها الحاد، والحبر الأسود، وكانت قد كتبتها بالقلم الجديد ذي الرأس الفليني، والذي سبب لها تهللاً عندما أعطاها إياه، لأن خطه كان سميكاً، غامقاً، وعملياً يرضيها.

ولم يطو الرسالة، ولم يضعها في محفظته، كما أنه لم يحرقها، بل فعل بها ما يفعل بكل الرسائل التي لا تقتضي جواباً؛ وضعها في آلة التمزيق الكهربائية المثبتة فوق سلة المهملات، لحظة انتهى من قراءتها. وكان يفكر في نفسه أن موت دين قد وضع بالفعل نهاية ليقظة جوستين العاطفية. وشعر بتعاسة مرّة. لم يكن هذا عدلاً، فلقد انتظر طويلاً.

ومع ذلك فقد طار إلى لندن في نهاية الأسبوع ولكن ليس ليراها، لكنه رآها، على المسرح، في دور ديدمونة، زوجة عطيل الحبيبة. وكانت رائعة. لم يكن بإمكانه أن يفعل من أجلها أكثر مما يفعل المسرح، على الأقل حالياً. هذه هي فتاتي اللطيفة! اسكبي كل ما عندك على المسرح.

○

ولكنها لم تكن قادرة على أن تسكب كل شيء على

المسرح، لأنها كانت صغيرة، ولا يمكنها أن تقوم بدور «هيكوبا». كان المسرح ببساطة المكان الذي يعطيها السلام والنسيان. وكل ما كان باستطاعتها أن تقوله لنفسها هو: «إن الوقت يشفي الجروح»، دون أن تصدق كلمة من هذا. وكانت تتساءل لماذا يستمر الألم. عندما كان دين حياً، لم تكن تفكر فيه حقاً إلا عندما تكون معه، وبعد أن كبرا، أصبح الوقت الذي يقضيانه سوية محدوداً، كما أن المهنة التي اختارها كانت تتعاكس تماماً مع مهنتها. ولكن موته خلق فراغاً هائلاً يئست من ملئه.

وكانت تصدم كل مرة وهي تتوقف أمام فكرة عفوية تطرأ على رأسها ــ يجب ألاّ أنسى أن أخبر دين بهذا، فإن ذلك سيبهجه ــ كان ذلك يؤلمها أكثر من أي شيء آخر. ولأن ذلك كان يحدث غالباً، فقد كان يغذي حزنها. ولو كانت الظروف التي أحاطت بموته أقل فظاعة، لاستطاعت أن تشفى بسرعة أكبر، ولكن كابوس أحداث تلك الأيام بقي حياً. كانت تفتقده بشكل لا يطاق، وكان ذهنها يعود ثانية وثانية إلى حقيقة موت دين، دين الذي لن يرجع أبداً.

ثم أنها كانت مقتنعة بأنها لم تساعده بما فيه الكفاية. فالكل

ما عداها، كانوا يعتقدون بكماله، وبأنه لم يمر بالمشاكل التي يمر بها الآخرون، ولكن جوستين كانت تعلم أن الشكوك كانت تتصارعه، وكان يعذب نفسه لاقتناعه بأنه غير جدير، ويتساءل ماذا يرى الناس فيه غير وجهه وجسمه. مسكين دين، الذي لم يفهم أبداً أن ما يحبه الناس فيه هو طبيعته. ومن الفظيع أن تتذكر الآن أن الأوان قد فات لمساعدته.

وكانت حزينة أيضاً من أجل أمها. إذا كان موته قد فعل هذا بها هي، فما الذي فعله بأمها؟ وكانت هذه الفكرة تجعلها راغبة بأن تجري هاربة من الذكرى، ومن الوعي، باكية، صارخة. وصورة أخوالها في روما يوم سيامته، وهم ينفخون صدورهم فخراً، مثل الطواويس. كان ذلك أسوأ شيء، أن تتصور أسى أمها في دروغيدا. كوني صريحة يا جوستين. أهذا حقاً أسوأ شيء؟ أليس هناك شيء آخر أكثر إيلاماً؟ لم تكن تستطيع الكف عن التفكير برين، أو بما كانت تعتقد أنه خيانة لدين. فلإشباع رغباتها الشخصية تركت دين يسافر وحيداً إلى اليونان، بينما لو كانت قد ذهبت معه، لكان لا يزال حياً. لم يكن هناك مجال لرؤية الأمور بغير هذه الصورة. لقد مات دين بسبب تعلقها الاناني برين. لقد

فات الأوان، وليس باستطاعتها إعادة أخيها، ولكن، إذا كان بإمكانها أن تكفر عن ذلك بعدم رؤيتها لرين، فإن توقها ووحدتها سيكونان ثمناً بخساً.

وهكذا مرت الأسابيع، ثم الأشهر. وسنة، ثم سنتان. ديدمونة، أوفيليا، بورتيا، كليوباترا. ومنذ البدء كانت تداهن نفسها وتقول أنها تتصرف ظاهرياً وكأن لا شيء قد حدث ودمر عالمها. كانت تتكلم بعناية فائقة، وتضحك، وتقيم مع الناس علاقات طبيعية تماماً. وإن كان قد طرأ عليها أي تغير، فهو أنها أصبحت ألطف مما كانت عليه في السابق، لأن أحزان الآخرين كانت تؤثر بها كما لو كانت أحزانها هي. لكنها على الإجمال، كانت لا تزال خارجياً جوستين القديمة، وقحة، مرحة، مندفعة، مستقلة وفظة.

وحاولت مرتين أن تذهب إلى البيت، إلى دروغيدا في زيارة، حتى أنها في المرة الثانية اشترت بطاقة الطائرة. ولكنها عدلت عن ذلك في المرتين، لسبب طارىء، شديد الأهمية وقع في آخر دقيقة؛ ولكنها كانت تعلم أن السبب الحقيقي لعدم ذهابها هو خليط من الشعور بالذنب والجبن. كانت ببساطة عاجزة عن

العثور على الشجاعة لمواجهة أمها ، لأن ذلك يعني أن كل القصة المحزنة ستخرج من جديد من الأعماق ، وسيكون ذلك حتماً وسط عاصفة من الأسى الذي كانت قد جهدت في تفاديه . فأهل دروغيدا ، وخاصة أمها ، يجب أن يظلوا مقتنعين بأي شكل من الأشكال ، بأن جوستين كانت على ما يرام ، وإن جوستين قد بقيت حية بعد الكارثة ، بدون كثير من الأذى . وهكذا إذن ، فمن الأفضل لها أن تبقى بعيدة عن دروغيدا . أفضل بكثير .

○

وفاجأت ميغي نفسها وهي تتنهد ، فحبست التنهدة . لو لم تكن عظامها تؤلمها هكذا ، لأسرجت جواداً وخرجت تتنزه ، ولكن مجرد الفكرة كان يؤلمها اليوم . ستفعل ذلك يوماً آخر ، عندما لا تؤلمها مفاصلها بهذه القسوة .

وسمعت صوت سيارة ، ثم صوت المطرقة البرونزية على المدخل الأمامي ، وتمتمات ، ثم صوت أمها ، ووقع خطوات . لم تكن جوستين ، فلم الاهتمام إذن ؟

ــ « ميغي » ، قالت « في » من باب الشرفة . « إن عندنا ضيفاً . هلاّ أتيت إلى الداخل من فضلك ؟ » .

كان الزائر رجلاً يدل مظهره على النبل، في أواسط العمر رغم أنه كان أصغر سناً مما يبدو. شديد الاختلاف عن أي رجل رأته من قبل. إلاّ أنه كان يملك نفس القوة والثقة التي كان يملكها رالف. كان يملكها. الفعل في الزمن الماضي. لقد أصبح فعلاً ماضياً.

ـــ «ميغي، هذا هو السيد هارتهايم»، قالت «في» وهي تقف بجانب مقعدها.

ـــ «آه»، قالت ميغي بلهجة تعجب، ورغماً عنها، فقد تفاجأت بشكل رين الذي كان يشغل مكاناً كبيراً في رسائل جوستين القديمة. ثم تذكرت أصول التهذيب:

ـــ تفضل بالجلوس يا سيد هارتهايم.

كان هو أيضاً يحدق فيها، بذهول:

ـــ «إنك لا تشبهين جوستين على الاطلاق»، قال بشيء من الارتباك.

ـــ «كلا، أنا لا أشبهها». وجلست بمقابلته.

ـــ «سوف أتركك مع السيد هارتهايم يا ميغي، فهو كما يقول، يرغب في محادثتك بأشياء شخصية. وعندما ترغبان في

الشاي، فما عليك إلاّ أن تقرعي الجرس». قالت «في» وهي تخرج.

ـــ «أنت بالطبع صديق جوستين الألماني». قالت ميغي مرتبكة.

وسحب علبة سغائره وهو يقول:

ـــ هل بإمكاني أن أدخن؟

ـــ تفضل أرجوك.

ـــ هل ترغبين بسيغارة يا سيدة أونيل؟

ـــ «كلا، شكراً. إني لا أدخن». وشدت ثوبها. «أنت بعيد جداً عن وطنك يا سيد هارتهايم، هل لك أعمال في استراليا؟»

وابتسم وهو يتساءل عما ستقوله لو علمت أنه، في الواقع، سيد دروغيدا. ولكنه لم يكن ينوي أن يخبرها بذلك، بل كان يفضل أن يفكر أهل دروغيدا بأن هناك شخصاً آخر يهتم بأمورهم المادية، بينما يقوم هو بدور الوسيط بينه وبينهم.

ـــ «أرجوك يا سيدة أونيل، إن اسمي رينر»، قال وهو يلفظ اسمه كما تلفظه جوستين «رينر»، بينما كان يفكر بمرارة بأن هذا المرأة لن تناديه باسمه، بطريقة عفوية، في وقت قريب، فهي لم تكن من النوع الذي يرتاح مع الغرباء. «كلا، ليس عندي أية مهمة

رسمية في استراليا، ولكن عندي سبب وجيه للمجيء إلى هنا. لقد كنت أرغب برؤيتك».

ـــ «برؤيتي؟» سألت بدهشة. وكما لو أنها تريد أن تخفي ارتباكها، انتقلت حالاً إلى موضوع آخر، أكثر أماناً: «إن أخوتي يتحدثون عنك كثيراً، فقد كنت شديد اللطف معهم عندما كانوا في روما بمناسبة سيامة دين». ولفظت اسم دين بدون حزن، كما لو أنها تلفظه غالباً. «آمل أن تستطيع البقاء معنا بضعة أيام، فتراهم».

ـــ بإمكاني ذلك يا سيدة أونيل. أجابها بهدوء.

كان الحديث قد أخذ يبدو مربكاً لميغي، فقد كان هذا الشاب غريباً، وقد قال أنه قطع ثمانية عشر ألف كيلو متر، ببساطة، لكي يراها؛ وعلى ما يبدو فهو لم يكن مستعجلاً لإخبارها عن السبب. وفكرت في أنها سوف تستلطفه في النهاية، ولكنه كان يخجلها. ربما لأنها لم تقارب هذا النوع من الرجال من قبل، ولهذا السبب كان يثير ارتباكها. وبدت لها جوستين في تلك اللحظة تحت ضوء جديد: الفتاة التي تستطيع أن تقيم بسهولة

علاقات مع رجال مثل راينر مورلنغ هارتهايم ! وعندها ، وأخيراً فكرت بجوستين كامرأة حقيقية مثلها .

ومع أنها كانت متقدمة في السن ، وقد ابيض شعرها ، فقد كانت لا تزال جميلة . هكذا كان راينر يفكر وهو ينظر إليها بأدب . كان لا يزال مندهشاً لعدم الشبه بينها وبين جوستين ، بينما كان يشعر بالأسى من أجلها كما كان يشعر نحو جوستين ، وكان واضحاً أنها قد توصلت إلى عقد هدنة مع نفسها .

وسألته :

ــ كيف حال جوستين ؟

فهز بكتفيه قائلاً :

ــ لست أدري ، مع الأسف . إنني لم أرها منذ ما قبل وفاة دين .

ولم تظهر أية دهشة :

ــ « أنا نفسي لم أرها منذ جنازة دين » ، قالت ثم تنهدت . « كنت آمل أن تعود إلى البيت ، ولكنني بدأت أعتقد أنها لن تفعل ذلك أبداً » .

وتمتم بعض كلمات المؤاساة ، ولكن يبدو أنها لم تسمع ،

لأنها تابعت كلامها، وإنما بصوت مختلف، كما لو أنها تتحدث لنفسها، وليس إليه:

ــ إن دروغيدا تبدو وكأنها مأوى للعجزة هذه الأيام. إننا بحاجة لدم شاب، وجوستين هي الدم الشاب الوحيد الذي بقي.

وتلاشت شفقته، فانحنى إلى الأمام بسرعة، وعيناه تبرقان:

ــ «إنك تتكلمين عنها وكأنها مُلك لدروغيدا»، قال وقد أصبح صوته قاسياً: «إني أحذرك يا سيدة أونيل، إنها ليست كذلك».

ــ «وبأي حق تحكم أن جوستين هكذا أم لا؟» سألته بغضب. «على كل حال، لقد قلت بنفسك أنك لم ترها منذ ما قبل وفاة دين، وكان ذلك منذ سنتين».

ــ «نعم، أنت على حق،إنهما سنتان بكاملهما». ثم أخذ يتكلم بلطف أكثر، وقد فطن ثانية إلى كل ما قاسته هذه المرأة. «إنك قد تحملت ذلك جيداً، يا سيدة أونيل».

ــ صحيح؟ سألت وهي تحاول أن تبتسم، وعيناها لا تفارقان عينيه.

وفجأة بدأ يفهم ما الذي رآه الكاردينال بها حتى أحبها

بهذا الشكل . وهو شيء لم يكن عند جوستين . ولكنه هو لم يكن الكاردينال رالف ، وكان يبحث عن أشياء أخرى .

ـــ نعم ، إنك تتحملين بشكل جيد . قال مردداً .

وفطنت فوراً إلى ما وراء كلامه ، وأجفلت ، ثم سألته بتردد :

ـــ كيف علمت بشأن دين ورالف ؟

ـــ لقد حزرت . لا تقلقي يا سيدة أونيل ، فلم يعلم أحد بذلك . لقد حزرت لأني كنت أعرف الكاردينال قبل أن أقابل دين بزمن طويل . وفي روما ، يظن الجميع أن الكاردينال هو أخوك ، خال دين ؛ ولكن جوستين فتحت عينّي على الأمر منذ المرة الأولى التي قابلتها فيها .

ـــ جوستين ! ليس جوستين ؟ صاحت ميغي .

ومد يده ليتناول يدها التي كانت تضرب بذعر على ركبتها :

ـــ لا ، لا ، لا يا سيدة أونيل ! إن جوستين لا تعرف أي شيء إطلاقاً عن القصة ، وإني أصلّي كيلا تعلم أبداً ! لقد كان الأمر زلة لسان غير مقصودة ، صدقيني » .

ـــ هل أنت متأكد؟

ـــ نعم ، وإني أقسم لك على ذلك .

ـــ إذن لماذا لا تأتي إلى البيت بحق السماء؟ لماذا لا تأتي لتراني ؟ لماذا لا تستطيع أن تحمل نفسها على النظر في عيني ؟

وليست الكلمات فقط ، وإنما الألم المبرح في صوتها ، هو الذي أخبره عما كان يعذب والدة جوستين من هذا الغياب الذي طال سنتين . وتقلصت أهمية العمل الذي جاء من أجله ، فقد واجهته الآن مهمة ثانية ، وهي تبديد مخاوف ميغي . فقال بثبات :

ـــ أنا الذي استحق اللوم من أجل هذا .

ـــ أنت ؟ سألت ميغي متعجبة .

ـــ كانت جوستين قد خططت للذهاب إلى اليونان مع دين ، وهي متيقنة أنها لو فعلت لكان دين قد بقي حياً .

ـــ هراء . قالت ميغي .

ـــ تماماً . ولكن ، ورغم معرفتنا بأن ذلك هراء ، فليس هذا رأي جوستين . وعليك أنت أن تقنعيها .

ـــ أنا ؟ أنت لا تفهمني يا سيد هارتهايم . إن جوستين لم تصغِ إلى مرة واحدة في حياتها . أما حالياً ، فقد تلاشى كل تأثير يمكن أن أمارسه عليها . إنها لا تريد حتى رؤية وجهي .

كانت لهجتها تنبيء عن الهزيمة ، ولكن ليس عن الذل .

ــ «لقد وقعت في الفخ نفسه الذي وقعت فيه أمي»، قالت بشيء من عدم المبالاة. «إن دروغيدا حياتي... والبيت، والكتب... إنهم بحاجة لي هنا، ولا يزال هناك بعض الهدف للحياة. هنا يعيش أشخاص يعتمدون علي، وأولادي لم يعتمدوا علي أبداً كما تعلم، أبداً».

ــ هذا ليس صحيحاً يا سيدة أونيل. ولو كان ذلك صحيحاً لعادت جوستين إلى البيت بدون أي عذاب ضمير. أنت تقللين من قدر الحب الذي تكنه لك. وعندما أقول لك أنني أنا الملام لما آلت إليه حال جوستين، فأنا أقصد أنها قد بقيت في لندن بسببي، لكي تكون معي. ولكنها إذ تتألم فهي تتألم من أجلك، وليس من أجلي.

وتصلبت ميغي:

ــ ليس لها الحق في أن تتألم من أجلي! وإذا كان عليها أن تتألم، فلتفعل ذلك من أجل نفسها، وليس من أجلي. ليس من أجلي أبداً.

ــ إذن أنت تصدقيني عندما أقول لك أنها لا تعرف شيئاً عن دين والكاردينال؟ وتغير موقفها، كما لو أنه قد ذكّرها بأن هناك أشياء أخرى في الموضوع، وإن عليها ألاّ تنساها:

ـــ نعم، إني أصدقك.

ـــ لقد أتيت لمقابلتك لأن جوستين تحتاج لمساعدتك، ولا تستطيع أن تطلب ذلك. عليك بإقناعها أن عليها أن تجمّع خيوط حياتها ثانية، ليس حياة دروغيدا، بل حياتها هي، التي لا علاقة لها بدروغيدا على الاطلاق.

واستند إلى ظهر مقعده، ووضع ساقاً على ساق، وأشعل سيغارة أخرى:

ـــ لقد لبست جوستين نوعاً من المسح، ولكن لأسباب مغلوطة. وإذا كان هناك من يستطيع أن يجعلها تفهم ذلك، فهو أنت. ولكني أحذرك، إذا قمت بذلك فإنها لن تعود إلى البيت؛ أما إذا تابعت الحياة بهذه الطريقة، فمن المعقول جداً أن تعود إلى البيت، وبشكل نهائي.

وتابع:

ـــ «إن المسرح غير كاف لأمثال جوستين، وسيأتي يوم تفهم به هذا، وعندها عليها الاختيار؛ فإما أن تختار عائلتها ودروغيدا، وإما أن تختارني». وابتسم لها بتفهم عميق. «ولكن الناس أيضاً لا يكفون جوستين، يا سيدة أونيل. وإذا ما اختارتني

جوستين، فباستطاعتها البقاء على المسرح، وهـذا ما ليس باستطاعة دورغيدا أن تقدم لها». ونظر إليها بصرامة، كغريم. «لقد أتيت لأطلب منك أن تدفعيها بشكل أكيد إلى اختياري. ربما يبدو ما أقول قاسياً، ولكنني بحاجة إليها أكثر منكم بكثير».

وتصلبت ميغي من جديد، وأجابت تتحداه:

ــ ولكن دروغيدا ليست بالاختيار السيء،وأنت تتكلم كما لو كان في ذلك نهاية لحياتها. ولكن الأمر ليس كذلك أبداً. باستطاعتها البقاء على المسرح، فنحن هنا نعيش في تمام الائتلاف، ولو تزوجت من بوي كنغ، كما نتمنى أنا وجدّه منذ سنوات، فسيكون هناك من يعتني بأولادها أثناء غيابها، كما ستكون الحال لو تزوجتك. فهذا بيتها، وهي تعلم وتفهم هذا النوع من الحياة. وإذا اختارته فلا شك أنها ستكون واعية لخلفياته. هل بإمكانك أن تقول الشيء نفسه عن الحياة التي تقدمها لها؟

ــ «كلا». أجاب ببلادة. «ولكن جوستين مولعة بالمفاجآت، وسوف تذوي في دروغيدا.

ــ أنك تقصد أنها لن تكون سعيدة هنا؟

ــ كلا ، ليس بالضبط . لا شك أنها لو اختارت الرجوع إلى هنا ، وتزوجت هذا الـ « بوي كنغ » ... ولكن ، على فكرة ، من هو بوي كنغ ؟

ــ إنه وريث الأرض المجاورة ، بوغيلا ، وصديق طفولة يرغب في أن يكون أكثر من صديق . إن جدّه يرغب في هذا الزواج لأسباب عائلية . وأنا أرغب فيه لأنني اعتقد أن هذا ما تحتاجه جوستين .

ــ إني أفهم وجهة نظرك ، حسناً ، إذا عادت إلى هنا وتزوجت من بوي كنغ ، فسوف تتعلم أن تكون سعيدة . ولكن السعادة هي حالة نسبية ، ولا أعتقد أنها ستجد هنا ذلك النوع من الرضى الذي ستجده معي . لأن جوستين يا سيدة أونيل ، تحبني أنا ، وليس بوي كنغ .

ــ « إذن ، لا بد أنها تعبر عن ذلك بطريقة غريبة جداً » . قالت ميغي وهي تشد حبل الجرس لتطلب الشاي . « وفضلاً عن ذلك يا سيد هارتهايم ، وكما قلت منذ قليل ، فإنك تبالغ في مدى تأثيري عليها . إن جوستين لم تعلق في حياتها ذرة اهتمام على ما أقول ، فكيف بما أريد ؟ » .

ــ « أنت لا تخدعينني يا سيدة أونيل ، وتعلمين أن بإمكانك القيام

بذلك إذا أردت وليس بمقدوري أن أطلب منك أكثر من أن تفكري بما قلته لك، وأمامك كل الوقت. لا تتعجلي، فأنا رجل صبور».

وابتسمت ميغي:

ـــ أنت إذن من نوع في طريقه إلى التلاشي.

ولم يعد إلى الموضوع ثانية، ولا هي عادت إليه. وخلال الأسبوع الذي أمضاه هناك، كان يتصرف كضيف، مع أن ميغي كانت تشعر بأنه يحاول أن يريها أي نوع من الرجال هو. وكان إعجاب أخوتها به واضحاً جداً، ومن اللحظة التي بلغهم بها الخبر في المراعي عن قدومه، أتوا كلهم إلى البيت وبقوا هناك حتى سافر إلى ألمانيا.

وأحبته «في» أيضاً، وكانت حالة عينيها قد ساءت جداً حتى أنه لم يعد بإمكانها مسك الدفاتر، ولكنها كانت بعيدة كل البعد عن الخرف. كانت السيدة سميث قد ماتت في سريرها، في الشتاء الماضي، وليس قبل أن يحين أوانها. وبدلاً من أن تبلي ميني وكات بمدبرة جديدة ـــ وقد شاخت الاثنتان ولكنهما كانتا بصحة جيدة ـــ فقد تركت «في» الدفاتر كلها لميغي، وأخذت بنفسها

مكان السيدة سميث ، حسب مقدرتها . وكانت « في » هي أول من فطن إلى أن راينر كان الشاهد المباشر لتلك الفترة من حياة دين التي لم تتح الفرصة لأهل دروغيدا أن يتقاسموها معه . وطلبت منه أن يحدثهم عنها ، ففعل بسرور ، وقد لاحظ بسرعة أن لا أحد من سكان دروغيدا كان يمتعض من الحديث عن دين ، كما أنه استمتع كثيراً بسماع قصص جديدة عنه .

أما ميغي، فوراء قناع التهذيب الذي وضعته، لم يكن باستطاعتها أن تهرب مما قاله لها رين، ولا أن تكف عن التعمق في الاختيار الذي عرضه عليها . كانت منذ زمن بعيد قد يئست من عودة جوستين ، وإذا به يؤكد لها ذلك تقريباً ، ولكنه يوافقها على على أنه يمكن لجوستين أن تكون سعيدة لو عادت . أضف إلى ذلك أنها ، ولسبب آخر ، كانت شديدة الامتنان له : فقد رفع عن كاهلها شبح خوفها من أن تكون جوستين قد اكتشفت بطريقة ما العلاقة بين دين والكاردينال .

أما بالنسبة للزواج من رين، فلم تكن ميغي تعلم ماذا يمكنها أن تفعل كي تدفع جوستين إلى القيام بما لا ترغب فيه ، على ما يبدو . أم أنها لم تكن تريد أن تعلم؟ لقد انتهت أخيراً

بالشعور باستلطاف شديد نحو رين، ولكن سعادته لا يمكنها أن تهمها بقدر ما تهمها مصلحة ابنتها، ومصلحة سكان دروغيدا، ودروغيدا ذاتها والسؤال الأساسي كان: ما هي أهمية رين بالنسبة لسعادة جوستين المستقبلة؟ ورغم رأيه بأن جوستين كانت تحبه، فليس باستطاعة ميغي أن تتذكر أن ابنتها قد قالت كلمة واحدة تشير إلى أن رين كان مهماً بالنسبة لها بالطريقة نفسها التي كان بها رالف مهماً بالنسبة لميغي.

ـ لقد فهمت أنك سترى جوستين عاجلاً أم آجلاً. فعندما تراها، أرجوك ألّا تدعها تعلم بزيارتك هذه لدروغيدا.

ـ كما تشائين. ولكني أطلب منك أن تفكري فقط بما قلته لك، وخذي كل وقتك.

لكنه عندما كان يقول لها ذلك، لم يستطع أن يمنع نفسه عن الإحساس بأن ميغي قد استفادت من زيارته أكثر بكثير مما استفاد هو.

○

في منتصف شهر نيسان، كانت قد مضت سنتان ونصف السنة على موت دين. وشعرت جوستين بالرغبة في رؤية شيء آخر

غير صفوف المنازل، وحشود الناس المتجهمة. وفجأة، في ذلك اليوم الحلو، بنسيمه الربيعي الناعم، وشمسه المصقعة، بدت لها لندن المدينة لا تطاق، وهكذا فقد استقلت قطار الضاحية إلى «كيو غاردن» مسرورة بكونه يوم ثلاثاء، لأن المكان سيكون ملكها وحدها. ولم تكن تعمل ذلك المساء، فلا يهم أن أرهقت نفسها بالسير في ممرات الحديقة.

كانت تعرف الحديقة جيداً، بالطبع. كانت لندن مصدر بهجة لأي شخص من دروغيدا، بخمائلها المنسقة، ومسطحات أزهارها؛ ولكن حديقة «كيو» كانت متميزة بشكل خاص. وفيما مضى، كانت تأتي إليها منذ شهر نيسان إلى آخر تشرين الأول، لأن كل شهر كان يملك مجموعة معينة من الأزهار، مختلفة عن غيرها، يقدمها للانظار.

وكانت أواسط نيسان هي وقتها المفضل، في زمن النرجس، والصحراوية، والأشجار المزهرة. كانت هناك بقعة تعتبرها جوستين من أجمل مناظر العالم، بشكل مصغر، فجلست هناك على الأرض المبللة، متفرجة وحيدة، لتملأ مقلتيها منه. وعلى مد النظر امتدت مروج من النرجس؛ وفي منتصف المرج، تجمعت

رؤوس حشود الأجراس الصفراء المنحنية حول شجرة لوز كبيرة مزهرة، وقد تثاقلت أغصانها تحت الأزرار البيضاء، فانحنت نحو الأرض في شلالات مقوسة، بهية وساكنة كما في اللوحات اليابانية. السلام. كان الوصول إليه صعباً.

ثم أرجعت رأسها إلى الوراء لتحفر في ذاكرتها جمال شجرة اللوز المثقلة بالزهور الرائعة وسط هذا البحر الأصفر المتموج، عندما عكّر عليها الجو دخيل أقل جمالاً. راينر مورلنغ هارتهايم، لا غيره. كان يشق طريقه بحذر عبر مجموعات النرجس، وقد ستر جسمه وقاية من البرد القارس بالسترة الألمانية الجلدية التي لا يمكن تفاديها، والشمس تلمع في شعره الفضي.

ــ «سوف تصاب كليتاك بالبرد»، قال وهو ينزع عنه سترته ويفرشها على الأرض، مديراً وجهها القماشي نحو الأعلى بحيث يستطيعان الجلوس عليها.

ــ «كيف وجدتني هنا؟» سألت وهي تزحف لتجلس على طرف من بطانة السترة الساتانية.

ــ لقد أخبرتني السيدة كيلي أنك ذهبت إلى كيو، والبقية كانت سهلة. فقد سرت إلى أن وجدتك.

ــ اعتقد أنك تفكر أنه كان علي أن أطير فرحاً لرؤيتك؟

ـــ وهل تطيرين فرحاً؟

ـــ رين القديم ذاته، يجيب على سؤال بسؤال آخر. كلا، أنا لست مسرورة برؤيتك. لقد اعتقدت أني نجحت في جعلك تنسحب تحت خيمتك بشكل نهائي.

ـــ من الصعب الاحتفاظ برجل لطيف تحت خيمته بشكل نهائي. كيف حالك؟

ـــ أنا بخير.

ـــ هل لحست جروحك بما فيه الكفاية؟

ـــ كلا.

ـــ حسناً، أظن ذلك شيئاً متوقعاً. ولكنني قد بدأت أفهم أنك لن تتغلبي أبداً على كبريائك فتقومي بالخطوة الأولى نحو المصالحة، بعد أن أخرجتني من حياتك. بينما أنا يا عزيزتي، أملك من الحكمة ما يكفي لكي أعلم أن الكبرياء تقود إلى الوحدة في السرير.

ـــ لا تخدع نفسك وتتصور أنك قمت بخطوات واسعة لتصنع لك مكاناً في سريري يا رين. لأنني أحذرك، إني لن استرجعك على هذا الأساس.

ـــ وأنا لا أريدك على هذا الأساس.

وأثارتها سرعة إجابته، ولكنها تظاهرت بالارتياح وقالت:

ــ صحيح؟

ــ لو لم يكن ذلك صحيحاً، فهل تظنين أنه كان بمقدوري الابتعاد عنك كل تلك الفترة؟ لقد كنتِ نزوة عابرة في هذا المجال، ولكني لا أزال أفكر بك كصديقة غالية، وافتقدك كصديق عزيز.

ــ آه يا رين، وأنا أيضاً.

ــ جيد. هل تقبلين بي كصديق إذن؟

ــ بالطبع.

فاستلقى على السترة، ووضع ذراعيه خلف رأسه وهو يبتسم لها بتكاسل:

ــ كم عمرك الآن، ثلاثون سنة؟ إنك تبدين بهذه الثياب المقرفة مثل تلميذة رديئة. وإذا لم تحتاجي لي في حياتك لأي سبب آخر، فأنت بحاجة لي كحَكَم خاص للأناقة.

فضحكت قائلة:

ــ اعترف أني كنت اعتني بمظهري أكثر فيما مضى، عندما كنت أتوقع أن أراك تبرز أمامي في أي وقت. وإذا كنت أنا في

الثلاثين ، فأنت نفسك لا تبدو في أوج ربيعك . لا بد أنك في الأربعين على الأقل . إن الفرق لم يعد يبدو كبيراً ، أليس كذلك ؟ لقد فقدتَ بعض الوزن ، هل أنت بخير يا رين ؟

ــ إني لم أكن بديناً بحياتي ، مربوعاً فقط . والجلوس إلى المكتب طوال النهار قد جعلني أتقلص بدلاً من أن أتمدد .

وانزلقت تستلقي على معدتها ، واقتربت بوجهها من وجهه وهي تبتسم :

ــ آه يا رين ، إني مسرورة برؤيتك ! لا أحد غيرك يعطيني بقيمة نقودي .

ــ مسكينة يا جوستين ، ويبدو أن عندك منها الكثير في هذه الأيام .

ــ النقود ؟ وأحنت رأسها موافقة . « غريب ، إن الكاردينال قد ترك لي كل ثروته . حسناً ، نصف لي ، والنصف الآخر لدين ، ولكنني بالطبع وريثة دين الشرعية » .

والتوى وجهها غصباً عنها ، وأبعدت رأسها مدّعية النظر إلى إحدى النرجسات في بحر منها ، حتى تتمكن من السيطرة على صوتها ، وتابعت :

ـــ «أتعلم يا رين أني مستعدة أن أدفع نصف عمري كي أعلم بالضبط ماذا كانت علاقة الكاردينال بعائلتي؟ صديق فقط؟ أكثر من هذا. سر. ولكن ماذا، لست أدري. وأتمنى لو أعلم».

ـــ كلا، أنت لا تتمنين، ووقف ومد لها يده:

ـــ هيا يا عزيزتي، سأدعوك للعشاء في أي مكان مليء بالأعين التي ستعلم أن الهوة التي كانت تفصل ما بين الممثلة الاسترالية الحمراء الشعر، والوزير الألماني المعروف، لم يعد لها وجود. إن سمعتي كمستهتر قد تأذت كثيراً منذ رميت بي خارجاً.

ـــ عليك أن تعتني بها يا صديقي. إني لم أعد أدعى الممثلة الاسترالية الحمراء الشعر، فهذه الأيام أصبحت الممثلة البريطانية الجميلة المترفة، ذات الشعر «الفينيسي»، والفضل بذلك يعود إلى قيامي بدور كليو باترة. لا تقل لي أنك لم تسمع أن النقاد قالوا عني أني أغرب «كليو» ظهرت منذ سنوات على المسرح! ووضعت يديها وذراعيها في وقفة مصرية هيروغليفية.

وبرقت عيناه. وسألها بتشكك:

ـــ غريبة؟

ــ نعم، غريبة. أجابت بحزم.

○

كان الكاردينال فيتوريو قد توفي، وهكذا لم يعد رين يذهب إلى روما إلا نادراً، فكان يأتي إلى لندن بدلاً من ذلك. في البدء، كانت جوستين مبتهجة جداً، فلم ترَ أبعد من الصداقة التي كان يقدمها لها، ولكن عندما مرت الأشهر، وامتنع عن التلميح بنظرة أو بكلمة إلى علاقتهما السابقة، أخذت نقمتها، الخفيفة في البدء، تأخذ أبعاداً مقلقة. ليس لأنها كانت ترغب في استعادة العلاقة القديمة ــ كانت تقول ذلك دائماً لنفسها ــ فقد انتهت تماماً من ذلك النوع من الأمور، وهي لم تعد تحتاج لها أو ترغب فيها. كما أنها لم تكن تسمح لمخيلتها بالتوقف على صورة لرين نجحت في دفنها عميقاً، ولا تتذكرها ألاّ في الأحلام الخداعة.

كانت الأشهر الأولى التي أعقبت موت دين فظيعة، وكانت تقاوم شوقها للذهاب إلى رين، والشعور به إلى جانبها جسدياً وروحياً، وهي تعرف تمام المعرفة أنه كان سيفعل ذلك لو سمحت له. ولكنها لم تستطع السماح له به، بينما وجه دين يطغى على وجهه. كان من المستحسن أن تبعده، أن تكافح لكي تمحي

آخر ومضة من الشوق له. وبمرور الوقت، وحين بدا لها أنه قد خرج من حياتها إلى الأبد، استقر جسدها في سبات عميق، وتبع ذهنها نظاماً خاصاً للنسيان.

ولكن الأمر أصبح الآن أكثر صعوبة، بعد عودة رين. كانت تتوق كي تسأله إذا كان يتذكر تلك العلاقة الأخرى، وكيف باستطاعته نسيانها؟ إنها هي بالتأكيد قد انتهت من تلك الأشياء، ولكن، سيرضيها جداً أن تعلم أنه هو، لم ينتهِ من تلك الأشياء، على شرط، بالطبع، أن يكون ذلك بالنسبة لجوستين، ولجوستين فقط.

أضغاث أحلام. لم يكن يبدو على رين أنه من النوع الذي يحرق نفسه في سبيل حب منبوذ، عقلياً كان أو جسدياً؛ كما أنه لم يظهر أية رغبة، ولو ضئيلة، لاستعادة تلك الفترة من حياتهما. كان يريدها كصديق، ويستمتع بها كصديقة. رائع! هذا ما أرادته، هي أيضاً، إنما... هل نسي يا ترى؟ كلا، ذلك غير معقول. ولكن، لعنه الله إذا كان قد نسي!

وذات ليلة، بلغت مسيرة أفكار جوستين مبلغاً بعيداً، وكان دور الـ «ليدي ماكبث» الذي تقوم به هذا الموسم يحتوي

على قدر كبير من الوحشية، غريب على أدوارها السابقة، فلم تنم جيداً، وحمل لها الصباح رسالة من أمها ملأتها بنوع من القلق المبهم.

إن أمها لم تعد تكتب غالباً، وذلك نتيجة الفراق الطويل الذي أثر عليهما كلتيهما. وكانت رسائلما الباردة مصتنعة، شاحبة. ولكن هذه كانت مختلفة، وتحتوي على بعض الدمدمات التي تفرضها الشيخوخة، وشيء من التعب الغامض يظهر في بعض الكلمات التي تطفو على وجه الأخبار العادية، مثل كتل من الجليد. ولم يعجب ذلك جوستين. أمي، عجوز!

ما الذي يجري في دروغيدا؟ هل كانت أمي تحاول أن تخفي عني مشكلة كبيرة؟ هل جدتي مريضة؟ أو أحد من أخوالي؟ أو هي نفسها، لا سمح الله؟ كانت ثلاث سنوات قد مرت منذ رأتهم آخر مرة، ويمكن أن يحدث الكثير في ثلاث سنوات، حتى إذا لم يحدث أي شيء لجوستين أونيل. ولأن حياتها هي كانت راكدة ومهملة، فلا يعني هذا أن حياة الآخرين كانت كذلك.

لم تكن جوستين تعمل ذلك المساء، ولم يبق هناك إلاّ أمسية واحدة قبل اختتام مسرحية الـ «ليدي ماكبث». ومرت

ساعات النهار بتثاقل لا يطاق، حتى أن فكرة العشاء مع رين لم تحمل لها الشعور باللذة المسبق، المعتاد. كانت صداقتهما عقيمة، جامدة، بلا جدوى؛ قالت هذا وهي تحشر نفسها في ثوب برتقالي، اللون الذي يكرهه أكثر من كل شيء. إنه عجوز محافظ! وإذا لم يكن يحبها كما هي، فما عليه إلاّ أن يذهب إلى الجحيم. ونفخت بيدها كشاكش الثوب على صدرها النحيل، ووقعت عيناها على عينيها في المرآة، فضحكت بحزن. عاصفة في فنجان! إنها تتصرف تماماً مثل ذلك النوع من الاناث الذي تحتقره. كان الأمر بسيطاً ولا شك، فهي مجهدة، ويلزمها بعض الراحة. شكراً لله أن «ليدي ماكبث» قد انتهت. ولكن ما الذي يجري لأمي؟ في الفترة الأخيرة، كان رين يقضي أوقاتاً أطول وأطول في لندن، وكانت جوستين تتعجب من السهولة التي ينتقل بها ما بين بون وانجلترا. لا شك أن ذلك سهل بوجود الطائرة الخاصة، ولكنه لا بد أن يكون مرهقاً.

ـ «لماذا تأتي غالباً لرؤيتي؟» سألته بلا مقدمة. «إن كل الصحفيين الباحثين عن الفضائح يعتقدون أن هناك شيئاً عظيماً بيننا، ولكني أقر بأني اتساءل إذا كنت لا تستعملني ببساطة كحجة لكي تزور لندن».

ـــ «صحيح إني أستعملك كتغطية من وقت لآخر»، أجابها موافقاً بهدوء: «والواقع أنك كنت غباراً أذريته في بعض العيون غالباً. ولكني لا أعتبر وجودي معك من الأشغال الشاقة، لأني أحب رفقتك». وتوقفت عيناه الداكنتان على وجهها بتفكير. «أنت شديدة الهدوء هذه الليلة يا عزيزتي. هل هنالك ما يشغل أفكارك؟».

ـــ «لا، ليس تماماً». وأخذت تعبث بصحن الحلوى أمامها، ثم دفعته جانباً دون أن تمسه. «سخافة صغيرة، على أية حال. إننا لم نعد نكتب لبعضنا كل أسبوع، أنا وأمي، وقد مر زمن طويل لم نر فيه بعضنا، حتى لم يبق شيء نقوله واحدتنا للأخرى. ولكني اليوم استلمت منها رسالة شديدة الغرابة، وهذا ليس من عادتها أبداً».

وغاص قلبه بين ضلوعه. لقد أخذت ميغي بالفعل وقتاً طويلاً للتفكير بالموضوع، ولكن غريزته أنبأته أن هذه بداية تحركها، وإنها لم تكن في صالحه. كانت قد بدأت لعبتها لكي تعيد ابنتها إلى دروغيدا، لتنقل اسم العائلة إلى أولادها.

ومد يده عبر المائدة وتناول يد جوستين، وكانت حسب

رأيه، تبدو أكثر جمالاً بعد نضجها، على الرغم من ذلك الثوب الشنيع. كانت الخطوط الدقيقة قد بدأت تضفي على وجهها الطفل شيئاً من الوقار الذي كانت بأشد الحاجة إليه، وقوة الشخصية التي كانت تملك منها كميات هائلة، ودائماً. ولكن أي عمق بلغ نضجها السطحي؟ كانت هذه هي المشكلة الحقيقية مع جوستين، إنها لا تكلف نفسها عناء التساؤل.

ــ «يا عزيزتي، إن أمك تشعر بالوحدة»، قال مضحياً بمصلحته. إذا كانت ميغي تريد هذا، فكيف يستطيع أن يتابع اعتقاده أنه على حق، وإنها مخطئة؟ إن جوستين ابنتها، وهي لا بد تعرفها أكثر منه.

ــ «نعم، ربما»، قالت جوستين وقد عقدت حاجبيها. «ولكني أشعر بأن هناك شيئاً آخر أساسياً فيما وراء هذا. أقصد أنها لا بد قد شعرت بالوحدة زمناً طويلاً، فلم إذن هذا «الذي لا أدري ما هو» المفاجىء؟ ليس باستطاعتي أن أحزره يا رين، وربما كان هذا ما يقلقني بهذه الشدة».

ــ «إنها تتقدم في السن، ويبدو أنك تنسين هذا. ومن المحتمل أن بعض الأشياء قد بدأت تؤذيها، وكانت تتحملها بسهولة أكثر في الماضي». وبدت عيناه فجأة بعيدتين، وكان ذهنه فيما وراءهما

مركزاً بشدة على شيء لا علاقة له بما كان يقول. «جوستين، إن أمك قد فقدت ابنها منذ ثلاث سنوات. هل تظنين أن ذلك الألم يتضاءل بمرور الزمن؟ أنا أعتقد أنه يتفاقم. لقد ذهب، ولا شك أنها تشعر الآن أنك أنت أيضاً قد ذهبت. إنك لم تذهبي حتى لزيارتها في البيت».

فأغمضت جوستين عينيها قائلة:

ـ سأذهب يا رين، سأذهب، إني أعدك بأني سأذهب قريباً! أنت على حق، بالطبع، ولكنك دوماً على حق. لم أفكر أبداً أني سأفتقد دروغيدا ذات يوم، ولكن يبدو أني قد بدأت أشعر بالحنو نحوها في هذه الفترة. وكأني جزء منها، بعد كل حساب.

ونظر فجأة إلى ساعته، وابتسم بأسف:

ـ أخشى أن تكون هذه الليلة يا عزيزتي واحدة من تلك المناسبات التي استعملك فيها كتغطية. إني أكره أن أدعك ترجعين وحيدة إلى البيت، ولكن علي أن أقابل شخصاً شديد الأهمية، في أقل من ساعة، وفي مكان سري جداً، حيث علي أن أذهب بسيارتي الخاصة التي يقودها سائقي الخاص «فريتز»، وهو قد فحصها ثلاث مرات ليتأكد من سلامتها.

ـــ «القناع والسيف»، قالت بمرح محاولة أن تخفي ألمها. «لقد فهمت الآن معنى هذه التاكسيات المفاجئة! لا يضيرني أنا أن أذهب مع سائق تاكسي عادي، ولكن ذلك لا يليق بمن يمسك بيديه مستقبل السوق المشتركة؟ إيه؟ حسناً، سوف أريك أني لست بحاجة لتاكسي، ولا لسائق رسمي. سأذهب إلى البيت بالمترو، فما زال الوقت مبكراً».

كانت أصابعه مستلقية برخاوة حول أصابعها، فجذبت يده ووضعتها على خدها ثم قبّلتها:

ـــ آه يا رين، لا أدري ماذا كنت سأفعل بدونك.

ووضع يده في جيبه، ثم وقف، وأتى من ورائها يسحب لها الكرسي بيده الأخرى:

ـــ إني صديقك. وهكذا الأصدقاء، حتى لا نستغني عنهم.

ولكن ما أن غادرها حتى اتجهت جوستين نحو المنزل في حالة تفكير عميق ما لبثت أن انقلبت إلى حالة حزن. كان قد اقترب هذه الليلة أكثر ما يمكنه، من جهة الحديث الشخصي، ولكن جوهره لم يتعدَّ شعوره بأن أمها في وحدة قاسية، وإنها تتقدم في السن، وأن على جوستين العودة إلى البيت. في زيارة، كما قال.

ولكنها كانت تتساءل إذا كان يعني للبقاء هناك. ودلّها هذا على أنّ ما شعر به نحوها في الماضي أصبح حقاً وفعلاً من الماضي، وإنه لا يتمنى إعادته إلى الحاضر.

لم يكن قد خطر لها من قبل أن تتساءل إذا كان يعتبرها كازعاج له، كجزء من ماضيه يرغب بدفنه في ظلمة لائقة، في مكان مثل دروغيدا، ولكنه ربما كان يبغي ذلك. لماذا إذن، في هذه الحالة، عاد إلى حياتها من جديد منذ تسعة أشهر؟ لأنه يرثي لحالها؟ أم لأنه يشعر بأنه مدين لها نوعاً ما؟ أو لأنه يشعر أنها بحاجة لشيء منَ الدفع نحو أمها، تقديساً لذكرى دين؟ كان يحب دين كثيراً، ومن يعلم عما كانا يتحدثان أثناء تلك الزيارات الطويلة في روما، عندما لم تكن هي موجودة؟ ربما كان دين قد طلب منه أن يرعاها، وهو كان سيقوم بذلك، وفقط. فقد انتظر مدة تفرضها اللياقة لكي يتأكد من أنها لن تطرده، ثم عاد إلى حياتها لينفذ وعداً قطعه على نفسه لدين. نعم، كان هذا هو الجواب، على الأرجح. إنه لم يعد يحبها قطعاً. ومهما كانت العاطفة التي حملها لها في الماضي، فلا بد أنها قد ماتت منذ زمن بعيد؛ وعلى كل، كانت هي قد عاملته بطريقة شنيعة، ولا عليها أن تلوم إلاّ نفسها.

وعندما وصلت إلى هذه النقطة من تفكيرها، أخذت بالبكاء بتعاسة، ثم نجحت في السيطرة على نفسها وفكرت بأنها غبية، ثم تقلبت وتقلبت في السرير، ودفنت رأسها في الوسادة تبحث عن النوم بدون جدوى، واستلقت بعدها، مغلوبة، تحاول أن تقرأ حوار مسرحية. وبعد بضع صفحات، بدأت الكلمات ترقص بمكر أمام عينيها وتختلط بعضها ببعض. وحاولت أن تلجأ إلى حيلتها القديمة بأن تدفع يأسها إلى زاوية بعيدة من ذهنها، ولكن هذا سحقها. وأخيراً، وعندما بدأ ضوء الصباح اللندني القذر يتسلل عبر النوافذ، جلست أمام مكتبها، يلسعها البرد، وهي تصغي إلى ضجة المرور البعيدة الصماء، تتنشق الرطوبة، وتتذوق حدة الفجر. وفجأة بدت لها فكرة دروغيدا رائعة. الهواء العذب النقي، والصمت الذي لا يعكره إلاّ أصوات الطبيعة. السلام. وتناولت أحد أقلامها ذات الرأس الفليني الأسود، وأخذت تكتب لأمها، والدموع تجف رويداً رويداً كلما تقدمت في الكتابة.

«إني أرجو أن تفهمي لماذا لم آت إلى البيت منذ وفاة دين، ومهما يكن ما ظننته بي، فأنا أعلم أنك سوف تسرين عندما تسمعين أني سأصحح غلطتي، وبشكل نهائي. نعم، هذا

صحيح، إني قادمة إلى البيت، لأبقى يا أماه. لقد كنت على حق. لقد أتى اليوم الذي اشتقت فيه لدروغيدا. لقد حاولت أن أطير بجناحي، ولكني تبينت أن ذلك لا معنى له على الاطلاق. ماذا سأستفيد إذا جررت نفسي من مسرح إلى آخر بقية أيام حياتي؟ وماذا لي هنا غير المسرح؟ إني أريد شيئاً مضموناً، دائماً، مستمراً، ولذا فأنا راجعة إلى دروغيدا، لأنها تعطيني كل تلك الأشياء. لا أحلام فارغة بعد اليوم. ومن يدري؟ ربما سأتزوج من بوي كنغ إذا كان لا يزال راغباً بي، وأقوم أخيراً بشيء نافع في حياتي، كأن أنجب مثلاً قبيلة صغيرة من المزارعين. إني تعبة يا أماه، تعبة جداً حتى أني لا أدري ماذا أقول، وأتمنى لو أني أملك القوة للتعبير عن مشاعري».

«حسناً، سوف أحاول أن أفعل ذلك ذات مرة. لقد انتهى عرض الـ «ليدي ماكبث»، ولم أقرر بعد ما سأفعله في الموسم المقبل، وأنا لن أضايق أحداً بانسحابي من المسرح، فلندن تعج بالممثلات، وباستطاعة كلايد أن يجد عني بديلة قديرة، في ثوان، أما أنت فلا تستطعين ذلك، صحيح؟ آسفة لأني احتجت إلى إحدى وثلاثين سنة لكي أفهم ذلك».

«ولو لم يساعدني رين على ذلك، لاستغرق الأمر مدة أطول، ولكنه في الواقع شاب ذو حدس قوي. إنه لم يقابلك أبداً، ولكن يبدو أنه يفهمك أكثر مني. على كل، يقال أن المتفرج من الخارج يفهم اللعبة أفضل من اللاعب. وهذا بالتأكيد صحيح بالنسبة له. ولكنني سئمته وسئمت أن أراه دائماً يدير حياتي من سمائه الأولمبية. إنه يعتقد أنه مدين لدين بشيء ما، أو بوعد، وقد تحول مجيئه وذهابه المتكرران لرؤيتي إلى نوع من الازعاج، ولكني فهمت أخيراً أنني أنا الازعاج. وإذا جئت إلى دروغيدا حيث الأمان، فسوف يبطل مفعول دَينه، أو وعده، أو لست أدري ماذا، أليس كذلك؟ وعليه أن يكون ممتناً لي، إذ سأوفر عليه رحلات الطائرة، على كل حال. سأكتب لك ثانية حينما أكون قد رتبت أموري، وأخبرك في أي وقت تنتظرينني. وبانتظار ذلك، تذكري أني أحبك على طريقتي الغريبة».

ووقعت اسمها، ولكن دون زخرفة، أشبه بالـ «جوستين» التي كانت تضعها عادة على الرسائل التي كانت تكتبها، كواجب، في المدرسة الداخلية تحت عيني الراهبة المراقبة، اللتين كانتا كعيني الصقر. ثم طوت الأوراق، ووضعتها في مغلف

جوي، وكتبت العنوان، ورمتها في صندوق البريد وهي في طريقها إلى المسرح حيث كانت تلعب «الليدي ماكبث» للمرة الأخيرة.

وبدأت مباشرة استعداداتها لمغادرة انجلترا. ولقد انفعل كلايد إلى درجة الصراخ، مما جعلها ترتجف تأثراً، ولكن انفعاله هدأ في اليوم التالي، ووافق على قرارها بتجهم. ولم تجد صعوبة في كسر عقد الايجار، إذ كانت تقطن في حي مرغوب جداً؛ والواقع أنه ما أن انتشر الخبر، حتى أخذ هاتفها يرن كل خمس دقائق، فاضطرت إلى قطعه. أما السيدة كيلي التي كانت تقوم بخدمة جوستين منذ أول أيامها في لندن، فقد كانت تطوف بحزن في أرجاء البيت، وسط غابة من نشارة الخشب والصناديق، وهي تندب حظها، وتصل خط الهاتف على أمل أن يتصل بهم من يستطيع أن يجبر جوستين على تغيير رأيها.

وفي وسط هذا الاضطراب، اتصل أحد قادر على ذلك، إنما ليس لكي يقنعها بتغيير رأيها، إذ أن رين لم يكن يعلم حتى بعزمها على الرحيل، بل لكي يطلب منها فقط أن تكون مضيفته في حفلة يقيمها في منزله في «بارك لين».

ـــ «ماذا تقصد بمنــزلك في «بارك لين»؟» سألت جوستين بصوت حاد، مذهولة.

ـــ حسناً ، إني أقضي وقتاً طويلاً في لندن منذ أخذت مساهمة البريطانيين في السوق المشتركة تتزايد ، وهكذا فقد استأجرت منزلاً في بارك لين ليكون عندي مكان أنزل به هنا ، فذلك عملي أكثر .

ـــ يا إلهي يا رين ، أنت متكتم وغد ... منذ متى أخذته ؟

ـــ منذ حوالي الشهر .

ـــ « ولقد ضحكت علي ذلك المساء ولم تقل شيئاً ؟ لعنك الله » . كانت غاضبة بشكل جعلها عاجزة عن النطق الصحيح .

ـــ « كنت سأخبرك ، ولكني كنت مسروراً جداً لكونك تظنين أني استقل الطائرة ذهاباً وإياباً طوال الوقت ، ولم أستطع مقاومة إحساسي فتركتك في وهمك فترة أطول » . قال والضحكة في صوته .

ـــ « إن باستطاعتي أن أقتلك » . قالت من بين أسنانها وهي تبتلع دموعها .

ـــ لا يا عزيزتي ، أرجوك ! لا تغضبي ! تعالي ، ستكونين مضيفتي وبعد ذلك يمكنك تفحص المكان على هواك .

ـــ تحت حماية خمسة ملايين مدعو ، بالطبع ! ماذا جرى لك

يا رين؟ ألم تعد تثق بنفسك لتبقى وحيداً لحظة واحدة؟ أم أنك لا تثق بي؟

ــ «لن تكوني ضيفة»، قال مجيباً على الجزء الأول من عبارتها. «بل ستكونين المضيفة في بيتي، وهذا مختلف جداً. هل تقبلين؟».

ومسحت دموعها بظهر يدها وقالت بفظاظة:

ــ نعم.

وتبين لها أن السهرة كانت أمتع مما توقعت، لأن منزل رين كانَ رائعاً بالفعل، وكان هو في مزاج شديد المرح مرت عدواه إلى جوستين ولم تستطع مقاومتها. وقد وصلت في الوقت المناسب، ولكن ثيابها لم تعجبه تماماً، وبعد أن كشر رغماً عنه لرؤية حذائها الساتاني الزهري اللون، عقد ذراعه في ذراعها، ومضى يريها البيت قبل أن يصل المدعوون. أما خلال السهرة فقد كان تصرفه ممتازاً، وعاملها أمام الآخرين بألفة عفوية جعلتها تشعر بأنها مرغوبة ونافعة. وكان ضيوفه شديدي الأهمية سياسياً، وعجز دماغها عن تصور القرارات الخطيرة التي عليهم اتخاذها. أناس عاديون، مع ذلك.

ــ «ما كان ليزعجني لو ميزت على واحد منهم فقط علامة تشير إلى أنه من «المختارين». قالت له بعد رحيلهم، وهي مسرورة لتمكنها من البقاء وحيدة معه. وتساءلت إذا كان مستعجلاً لإرجاعها إلى البيت. «مثل نابليون، أو تشرشل فرضاً. إن من دواعي السرور أن يشعر الانسان أن القدر قد اختاره، عندما يكون هذا الانسان من رجال الدولة. هل تعتقد أنك أنت ممن اختارهم القدر؟».

فأجفل وأجاب:

ــ عليك أن تعتني في انتقاء كلماتك عندما تطرحين سؤالاً على ألماني، يا جوستين. كلا، أني لا اعتقد ذلك، وليس من المستحسن أن يقيّم رجال السياسة أنفسهم على أساس أنهم «مختارون». ربما كان ذلك مناسباً لقلة منهم، ولكنني لست واثقاً منه. إن القسم الأكبر ممن يظنون أنفسهم هكذا يسيئون إساءة كبيرة لأنفسهم، ولبلادهم.

لم تكن ترغب في مناقشة هذه النقطة معه، إذ أن الغرض منها كان إيجاد نقطة انطلاق للحديث، وباستطاعتها الآن تغيير الموضوع دون أن تلفت انتباهه:

ـ لقد كانت النساء خليطاً عجيباً، ألـيس كذلك، سألت برعونة. «وأغلبهن كن أقل أناقة مني بكثير، رغم أنك لا تحب اللون الزهري. إن السيدة واتسيت كانت مقبولة، بينما كان من الصعب تمييز السيدة هوجار من ورق الجدران المشابه لثوبها. لكن السيدة غمفوزلر كانت بغيطة. كيف يستطيع زوجها احتمالها؟ آه، إن الرجال أغبياء فعلاً في اختيار زوجاتهم.

ـ جوستين! متى ستتعلمين أن تتذكري الأسماء؟ من حسن حظي أنك قد رفضتني كزوج، وأية زوجة لرجل سياسي! لقد سمعتك تتلعثمين باسمائهم عندما تعجزين عن تذكرها. هناك رجال استطاعوا النجاح رغم زوجاتهم البغيضات، وآخرون فشلوا فشلاً ذريعاً رغم نسائهم الرائعات. والواقع أن ذلك غير مهم، فالمهم هو قيمة الرجل. ومن النادر أن يتزوج رجل لأغراض سياسية فقط.

كان لا يزال يملك القدرة التي تعرفها لوضعها في مكانها، وكان ذلك لا يزال يؤلمها. وأدت له تحية ساخرة لكي تخفـي وجهها، ثم جلست على السجادة:

ـ آه، انهضي يا جوستين.

وعـوضاً عن أن تنهض، جمعت قدميها تحتها بتحـــد، واستندت إلى الحائط بجانب المدفأة وهي تداعب ناتاشا. فقد اكتشفت عند وصولها أن رين كان قد أخذ القطة بعد موت الكاردينال فيتوريو، وكان يبدو شديد التعلق بها رغـم أنها قد أصبحت عجوزاً نزقة.

ـــ هل أخبرتك أني عائدة إلى دورغيدا؟ سألته فجأة.

كان يتناول سيغارة من علبته، ولم يتردد، ولم ترتعش يداه الكبيرتان، إنما تابعتا ما كانتا تقومان به بهدوء:

ـــ تعلمين جيداً أنك لم تخبريني بذلك.

ـــ إذن، ها أنا أخبرك.

ـــ ومتى اتخذت هذا القرار؟

ـــ منذ خمسة أيام. سأترك في نهاية الأسبوع، أرجو هذا وأتعجل ذلك اليوم.

ـــ فهمت.

ـــ أهذا كل ما عندك؟

ـــ وماذا أضيف إلاّ أني أتمنى لك السعادة في كل ما تفعلين؟

وقد قال هذه الكلمات بكثير من رباطة الجأش حتى أنها أجفلت:

ـــ « آه ، شكراً » ، قالت بخفة . « ألست مسروراً إني لن أضايقك بعد الآن ؟ »

ـــ أنت لا تضايقينني يا جوستين .

وتركت ناتاشا ، وتناولت القضيب المعدني ، وبدأت تدفع به بوحشية قطع الحطب المشتعلة التي كانت قد تحولت إلى قشور مجوفة ، فتهاوت في حزمة من الشرر سرعان ما خمدت . وخفت حدة النار فجأة .

ـــ لا بد أن في داخلنا شيطاناً مخرباً يدفعنا إلى إطفاء ما بقي مشتعلاً من النار ، ولكن النهاية جميلة ، أليس كذلك يا رين ؟

وظاهرياً ، لم يكن مهتماً بما يحدث للنار التي تُطفأ بهذه الطريقة ، وسأل ببساطة :

ـــ في نهاية الأسبوع ؟ إيه ؟ إنك لا تضيعين وقتك .

ـــ ولم التأجيل ؟

ـــ ومهنتك ؟

ـــ لقد قرفت مهنتي . على كل ، أهناك شيء ذو قمية بعد « الليدي ماكبث » ؟

ـــ آه ، اكبري يا جوستين ! إن الرغبة تراودني لكي أهزك بعنف

عندما تنطقين بمثل هذه السخافات ! لماذا لا تقولي ببساطة أن تحدي المسرح لم يعد يغريك ، وإنك تحنين إلى دروغيدا ؟

ــ « لا بأس ، لا بأس ، لا بأس ! إفهم الأمر كما يحلو لك ! هل ترى ، لقد عادت إلي وقاحتي ، آسفة لأني أسأت إليك ! »

وقفزت واقفة . « اللعنة ، أين حذائي ؟ وما الذي جرى لمعطفي ؟

وظهر « فريتز » وهو يحمل الحذاء والمعطف ، وقادها إلى البيت . واعتذر رين عن مرافقتها لانشغاله ، ولكنه بعد رحيلها أشعل النار ثانية ، وجلس أمامها ، وناتاشا في حجره ، دون أن يبدو مشغولاً على الاطلاق .

○

ــ « حسناً » ، قالت ميغي لأمها . « آمل أن نكون قد تصرفنا التصرف الصحيح » .

ونظرت « في » إليها ، وأحنت برأسها :

ــ آه ، نعم ، إني متأكدة منه . المشكلة مع جوستين هي أنها عاجزة عن اتخاذ قرار من هذا النوع بنفسها ، وهكذا فلم يكن أمامنا الخيار . كان لا بد من أن نقوم به مكانها .

ـــ لست متأكدة من أني أحب أن ألعب دور الله، وأعتقد أني أعرف ما الذي تريد أن تفعله حقاً، ولكنها ستراوغ حتى لو قلته لها في وجهها.

ـــ «إنها كبرياء آل كليري». قالت «في» وهي تبتسم بوهن: «إنها تظهر حيث لا تتوقعين رؤيتها».

ـــ «هيا، إنها ليست بكبرياء آل كليري وحدهم، فلقد كنت أتصور دائماً أن بها رائحة آل أرمسترونغ أيضاً».

ولكن «في» هزت برأسها قائلة:

ـــ كلا. ومهما كان ما فعلته أنا، فلم يكن به مكان كبير للكبرياء. هذه هي نتيجة الشيخوخة يا ميغي. إنها تعطينا الوقت الكافي قبل موتنا لكي نفهم لماذا فعلنا ما فعلنا.

ـــ «على شرط ألاّ يعجزنا الخرف عن ذلك»، قالت ميغي بجفاف. «ولكن ليس هناك أي خطر عليك أو علي من هذه الناحية، على ما اعتقد».

ـــ ربما كن الخرف رحمة لهؤلاء الذين لا يستطيعون أن يواجهوا أنفسهم. على كل، إنك لم تتقدمي في السن بشكل يسمح لك بأن تقولي أنك قد تجنبت الخرف. انتظري عشرين سنة أخرى.

ـــ «عشرين سنة أخرى!» رددت ميغي برعب. «إن ذلك يبدو طويلاً جداً».

ـــ حسناً، كان بإمكانك أن تكوني أقل وحدة خلال هذه السنوات العشرين، أليس كذلك؟. قالت «في» وهي تحرك سنارتيها بنشاط.

ـــ «نعم، كان ذلك بإمكاني، ولكن ذلك لم يكن يستحق العناء يا أمي، أليس كذلك؟».

وربتت رسالة جوستين بطرف سنارة الصوف القديمة، وفي صوتها رنة شك خفيفة.

«لقد أضعت الكثير من الوقت دون أن أتحرك، منذ مجيء رين، وكنت آمل ألاّ اضطر للقيام بأي شيء، راجية ألاّ يعود القرار إلي. ومع ذلك، فقد كان على حق. في النهاية، كان ذلك من واجبي».

ـــ «حسناً، ولكن عليك أن تعترفي أني ساعدتك قليلاً»، قالت «في» معترضة، وقد شعرت بالإهانة. «هذا منذ تخليت عن قليل من كبريائك وأخبرتيني».

ـــ نعم، لقد ساعدتني. قالت ميغي بلطف.

ودقت الساعة العتيقة، وتابعت الأيدي الأربع بلا توقف، تحريك السنانير.

ـــ «اخبريني يا أمي»، قالت ميغي فجأة. «لماذا انهرت من أجل دين، ولم تفعلي ذلك من أجل والدي، أو من أجل فرانك أو ستو؟».

ـــ «انهرت؟» وتوقفت يدا «في»، ووضعت السنانير في حجرها. كان لا يزال بإمكانها حياكة الصوف كما في الأيام القديمة عندما كان نظرها ممتازاً. «ماذا تعنين بالانهيار؟».

ـــ «كما لو أن ذلك قد قتلك».

ـــ «لقد قتلوني كلهم يا ميغي. ولكنني كنت شابة عندما مات الثلاثة الأول، وكان عندي القوة اللازمة لإخفاء ذلك بشكل أفضل. كما أني كنت أكثر تعقلاً؛ مثلك الآن. ولكن رالف كان يعلم بماذا شعرت عند موت والدك وستو، وكنت أنت صغيرة جداً على فهمه.» وابتسمت. «لقد كنت أحب رالف حباً جماً، كان... شيئاً خاصاً. وكان يشبه دين بشكل مرعب».

ـــ «نعم، لقد كان. لم أكن أعلم أنك قد فهمت ذلك يا أمي.

واقصد طبيعتهما. غريب، أنك أشد غموضاً من القارة السوداء بالنسبة لي، فهناك أشياء كثيرة أجهلها عنك».

ــ «آمل ذلك»، قالت «في» وهي تضحك. وظلت يداها ساكنتين. «لنعد إلى موضوعنا الأساسي. إذا استطعت أن تفعلي ذلك من أجل جوستين يا ميغي، فيمكنني القول عندها أنك قد تعلمت شيئاً من متاعبك الماضية، أكثر مما تعلمت أنا. لم أكن أرغب في أن أفعل ما طلبه رالف مني، واعتني بك. كنت أريد ذكرياتي... ولا شيء إلا ذكرياتي. فعندما لا تملكين حق الاختيار، لا يبقى لك إلا الذكريات».

ــ حسناً، إنها تعزيك عندما يتلاشى الألم، ألا تعتقدين ذلك؟ لقد احتفظت بدين ستة وعشرين عاماً بكاملها، وقد تعلمت أن أقول لنفسي إن ما حدث كان لما فيه الخير، فقد تجنب بعض التجارب الفظيعة التي كان سيواجهها ويقاسيها. مثل فرانك، ربما، إنما بغير طريقة. هناك ما هو أسوأ من الموت، ونحن نعلم ذلك».

ــ ألا تشعرين بالمرارة مطلقاً؟

ــ آه، لقد شعرت بها في البدء، ولكني تعلمت ألاّ استسلم للمرارة من أجلهما.

وتركت «في» شغلها الصوفي :

ــ «وهكذا لن يكون هناك أحد عندما نموت»، قالت برقة. «لن يكون هناك دروغيدا. آه، سوف يُكَتب عنها سطر أو سطران في كتب التاريخ، وسيأتي إلى جيللي شاب متحمس يسأل عنها أيا كان ممن يتذكرونها، ليدونه في الكتاب الذي يكتبه عن آخر مزرعة عظيمة في «نيو ساوث ويلز»، ولكن لن يعلم أحد من قرائه ما كانت عليه دروغيدا حقاً، لأنهم سيكونون عاجزين عن ذلك؛ فلكي يفهموا، عليهم أن يكونوا قد عاشوا في دروغيدا، كجزء منها».

ــ «نعم»، قالت ميغي التي لم تتوقف عن الشغل. «كان يجب أن يعيشوا كجزء منها».

○

كان من السهل وداع رين برسالة مفعمة بالحزن والصدمة، والواقع أنه كان في ذلك شيء من اللذة الوحشية، وبدت فيها لاذعة ــ أنا أتألم، فعليك إذن أنت أيضاً أنْ تتألم. ولكن رين هذه المرة لم يكن في وضع تكفيه فيه رسالة وداع تافهة، بل دعاها إلى العشاء في مطعمهما المفضل. ولم يقترح عليها العشاء في بيته في

بارك لين ، مما خيب أملها دون أن يدهشها . كان بدون شك ينوي وداعها أمام أعين فريتز اللامبالية فهو بالتأكيد يرفض المجازفة .

ولأول مرة في حياتها اعتنت بهندامها بشكل يعجبه ، ويبدو أن الشيطان الذي كان يحثها على ارتداء اللون البرتقالي كان قد انسحب غاضباً ، وبما أن رين كان يحب الأسلوب البسيط في الملابس ، فقد ارتدت ثوباً طويلاً من الحرير الخمري اللون ، عالي القبة ، طويل الأكمام . وأضافت إليه عقداً من الذهب المجدول ، مزيناً بالعقيق واللؤلؤ ، وأساور مناسبة له في معصميها . ما هذا الشعر الفظيع ، الفظيع ! لم يكن بالإمكان ترتيبه أبداً بشكل يرضيه . وأما زينة وجهها فقد كانت ثقيلة لكي تخفي هزيمتها ، وستنجح في ذلك إذا لم ينظر إلى وجهها عن كثب . ولم يبد عليه أنه ينظر عن كثب ، وعلى الأقل فهو لم يبدِ أية ملاحظة عن تعبها ، أو مرضها ، حتى أنه لم يلمح إلى هموم حزم الأغراض . ولم يكن هذا طبيعياً عنده . وبعد برهة بدأ يراودها احساس بأن هذه نهاية العالم ، لأنه كان مختلفاً تماماً عما هو عليه عادة .

ولم يساعدها من أجل إنجاح السهرة حتى يتمكنا من تذكرها في رسائلهما بشيء من اللذة والتسلية . ولو استطاعت إقناع

نفسها بأنه متأثر لسفرها، لسارت الأمور على ما يرام. ولكن الأمر لم يكن كذلك. ولم يكن مزاج رين من هذا النوع، كان بالأحرى يبدو بعيداً كما لو أنها كانت تجالس صورة منه، ورقية، بلا أبعاد، وأن هذه الصورة تنتظر أول هبة ريح لكي تطير بعيداً عنها. كما لو أنه قد ودعها من قبل، وأن هذا اللقاء لم يكن إلاّ شكلياً.

ـــ هل تلقيت جواباً من والدتك؟ سألها بأدب.

ـــ كلا، إني بصراحة لا انتظر جواباً. لا بد أنها لا تجد ما تقوله، لشدة فرحها.

ـــ هل ترغبين بأن يوصلك فريتز إلى المطار؟

ـــ «شكراً، بإمكاني أن أذهب بسيارة أجرة». أجابت بجفاف. «إني لا أريد أن أحرمك من خدماته».

ـــ إن عندي اجتماعات طوال النهار، وهكذا فإني أؤكد لك أن ذلك لن يزعجني مطلقاً.

ـــ لقد قلت بأني سآخذ سيارة أجرة.

ورفع حاجبيه:

ـــ لا حاجة للصراخ يا جوستين، فما يرضيك يرضيني.

لم يعد يقول لها «عزيزتي»، وقد لاحظت مؤخراً تناقص

استعماله لهذه الكلمة، ولم يلفظ كلمة الحنان القديمة مرة واحدة هذا المساء. آه، ما هذا العشاء المحزن الكئيب! ليته ينتهي حالاً! ووجدت نفسها تنظر إلى يديه وتحاول أن تتذكر ملمسهما فلا تستطيع. لماذا لم تكن الحياة منظمة، مرتّبة؟ لماذا تحدث أشياء مثل موت دين؟ وربما أسودّ مزاجها لتفكيرها بدين، فلم تعد تقوى على البقاء جالسة بهدوء لحظة واحدة أخرى، فوضعت يديها على ذراعي كرسيها.

ــ هل يضايقك أن نرحل؟ إن رأسي تؤلمني بشدة.

وعند مفرق الطريق المؤدية إلى شقتها الصغيرة، ساعدها رين على الترجل من السيارة، وطلب من فريتز أن يدور بالسيارة حول البناية، وأمسكها من مرفقها بأدب ليقودها، ولمسة يده باردة جداً. وسارا ببطء تحت مطر لندن الخفيف المصقع، عبر الشارع المرصوف، ووقع خطواتهما يرن حولهما في سكون الليل. خطوات حزينة، وحيدة.

ــ هكذا إذن يا جوستين، سوف نقول وداعاً.

ــ «حسناً، حالياً على الأقل»، أجابت بحماسة. «ولكنه ليس إلى الأبد، فسوف ارجع من وقت لآخر، كما أني آمل أن تجد الوقت لكي تأتي لزيارتي في دروغيدا».

وهز برأسه :

ــ كلا . إن هذا وداع يا جوستين . وأظن أننا لسنا بحاجة لبعضنا بعد الآن .

ــ «تقصد أنك لم تعد بحاجة إلي» . قالت ، ونجحت في أن تضحك ضحكة مقنعة . «لا بأس يا رين! لا ترحمني ، باستطاعتي أن أتحمل» .

فتناول يدها وانحنى فقبّلها ، ثم استقام وابتسم في عينيها ، وابتعد .

ووجدت رسالة من أمها على ممسحة الأقدام ، وراء الباب . وتقدمت جوستين لكي تلتقطها ، ورمت حقيبة يدها ومعطفها هناك ، وبقربهما حذاءها ، ثم مشت إلى غرفة الجلوس . وجلست بثقل على أحد الصناديق وهي تعض على شفتيها ، وقد استقرت عيناها بشفقة متسائلة مندهشة على صورة نصفية لدين أخذت له بمناسبة سيامته . ثم انتبهت إلى أصابع قدميها تداعب جلد الكنغر الملفوف ، وكشرت بقرف ونهضت بسرعة . مشوار صغير إلى المطبخ حيث فتحت البراد وتناولت علبة القشدة ، وفتحت باب الثلاجة وسحبت علبة القهوة ، وبإحدى يديها فتحت صنبور الماء البارد

لقهوتها ، ونظرت حولها وعيناها مفتوحتان ، وكأنها لم تر المكان من قبل . ونظرت إلى التمزقات في ورق الجدران ، وإلى النبتة الخضراء الأنيقة المتدلية من سلة في السقف ، وإلى ساعة الحائط التي تمثل هرة سوداء تهز ذيلها وتدير عينيها لمنظر الوقت وهو يسيل بعيداً بعبث . وعلى اللوح الأسود كانت هذه العبارة : «لا تنسي فرشاة الشعر » ، وعلى الطاولة ، كان هناك صورة لرين رسمتها بالقلم منذ أسابيع . وعلبة سغائر . فتناولت واحدة وأشعلتها ، ووضعت الابريق على النار ، ثم تذكرت رسالة أمها ، وكانت لا تزال تقبض عليها بيدها . من المستحسن قراءتها بينما تنتظر غليان الماء . وجلست إلى طاولة المطبخ ، وكنست بيدها صورة رين فوقعت على الأرض ، وداستها بقدميها وهي تفكر : اذهب إلى الشيطان يا راينر مورلنغ هارتهايم ! انظر إذا كنت اهتم بك أيها الألماني المتفلسف ذو السترة الجلدية . أنت لم تعد بحاجة إلي ، إيه ؟ حسناً ، ولا أنا .

كتبت ميغي تقول :

« عزيزتي جوستين .

لا شك أنك تتصرفين باندفاعك المعروف ، ولهذا فأنا أرجو أن تصلك رسالتي في الوقت المناسب . إذا كنت قد قلت لك في

الرسالة السابقة شيئاً جعلك تعجلين في اتخاذ قرارك، فأرجوك أن تغفري لي. لم أكن أقصد أن أسبب رد الفعل العنيف هذا. اعتقد أني كنت فقط أبحث عن قليل من الاستلطاف، ولكني أنسى دائماً مدى الحساسية التي تملكينها تحت مظهرك الخارجي القاسي».

«نعم إني وحيدة، وجداً. ومع ذلك فمجيئك إلى البيت لن يعدل شيئاً في الوضع. ولو أنك فكرت بذلك قليلاً، لاكتشفت مدى صحة قولي. ماذا تريدين أن تحققي بعودتك إلى البيت؟ ليس بمقدرتك أن تعيدي إلي ما فقدت، أو أن تعوضيه، ولم تكن خسارتي أنا فقط، بل خسارتك أنت أيضاً، وخسارة جدتك، وجميع الباقين. يبدو أن عندك فكرة، فكرة خاطئة تماماً، وأنت تعتبرين نفسك مسؤولة عن ذلك. واندفاعك الحالي يبدو لي كتعبير مشبوه عن ندمك. هذه كبرياء، وإدّعاء يا جوستين. لقد كان دين رجلاً مكتملاً، وليس طفلاً عاجزاً. لقد تركته أنا يذهب، ألم أفعل ذلك؟ ولو سمحت لنفسي بالتفكير مثلك، لكنت الآن جالسة ألوم نفسي حتى أصبح صالحة لمصح عقلي، فقط لسماحي له بأن يفعل بحياته ما يشاء. ولكني لا ألوم نفسي.

لسنا آلهة، واعتقد أن الفرصة قد سنحت لنا أكثر منك لنفهم هذا».

«إنك بمجيئك إلى البيت تقدمين لي حياتك تضحية. وأنا لا أريدها. لم أردها من قبل، وأنا أرفضها الآن. فمكانك ليس في دروغيدا، ولم يكن أبداً. وإذا لم تكتشفي بعد أين مكانك، فإني أنصحك بالجلوس، الآن، في هذه الدقيقة، للتفكير بجدية في الموضوع. إنك أحياناً تبدين متلبدة الذهن بشكل مريع. إن راينر شاب طيب جداً، ولكني لم أقابل بحياتي رجلاً محباً للغير كما يبدو من وصفك له. فمن أجل دين يا جوستين، اكبري».

«يا أغلى ما عندي، إن النور قد أطفىء. النور قد اطفىء عنا جميعاً. وليس بإمكانك أن تفعلي شيئاً بهذا الشأن، ألا تفهمين؟ إني لا أبغي إهانتك عندما أحاول الادّعاء بأني سعيدة تماماً. فالسعادة ليست من نصيب الجنس البشري. ولكن إذا كنت تعتقدين أننا، هنا في دروغيدا، نمضي أيامنا في البكاء والعويل، فأنت مخطئة تماماً. إننا نتمتع بأيامنا، وسبب من أسباب ذلك هو أن نورنا لا يزال يضيء من أجلك. ونور دين قد ذهب إلى الأبد. أرجوك يا غاليتي أن تحاولي تقبل ذلك».

«على كل الأحوال، تعالي إلى دروغيدا، فسوف نسعد برؤيتك، ولكن لا تأتي بشكل نهائي، فلن تكوني سعيدة إذا استقرّ بك المقام هنا بصفة دائمة. إنها ليست فقط تضحية لا حاجة لها، لا بل هي عقيمة. وفي هذا النوع من العمل الذي تمارسينه، فإن غياب سنة واحدة سيكلفك غالياً. هكذا إذن، ابقي في مكانك، وكوني مواطنة صالحة في عالمك».

○

ألألم. كان شبيهاً بما شعرت به في الأيام الأولى التي عقبت موت دين. الألم العقيم، المهدور نفسه، الذي لا يمكن تجنبه. العجز المكرب نفسه. كلا، بالطبع، لم يكن بإمكانها أن تفعل شيئاً. لا مجال للتعويض، لا مجال.

اصرخي! كان الأبريق قد أخذ يصفر. اسكت أيها الابريق، اسكت. ما هو شعور الولد الوحيد تجاه أمه يا إبريق؟ اسأل جوستين، إنها تعلم. نعم، إن جوستين تعلم كل شيء عن حال الولد الوحيد. ولكني لست الولد الذي أرادته، تلك المرأة المسكينة الذابلة هناك في المزرعة. آه يا أمي، يا أمي... هل

تعتقدين أني لم أكن سأفعله لو كان بإمكاني ككائن بشري أن أفعله؟ مصابيح جديدة بدلاً من القديمة، حياتي بدلاً عن حياته! لم يكن من العدل أن يموت دين... إنها على حق. إن ذهابي إلى دروغيدا لن يغير شيئاً من الواقع، فهو لا يستطيع شيئاً. ومع أنه يرقد هناك إلى الأبد، فهو لا يستطيع شيئاً. لقد ذهب النور، وليس بإمكاني إشعاله ثانية. ولكنني أفهم قصدها. إن نوري لا يزال يشع بها، ولكن ليس في دروغيدا.

○

وفتح لها فريتز الباب، ولم يكن يرتدي طقم السائق الكحلي اللون، بل ثياب كبير الخدم الصباحية؛ ولكنه عندما ابتسم وانحنى بقوة وهو يضرب كعبيه على الطريقة الألمانية القديمة، خطرت لجوستين فكرة؛ هل يقوم بعمل مزدوج في بون أيضاً؟

ـــ هل أنت فقط خادم السيد هارتهايم المتواضع يا فريتز، أم أنك كلب حراسته أيضاً؟ سألته وهو يتناول معطفها.

ولم يضطرب فريتز:

ـــ إن السيد هارتهايم في مكتبه يا آنسة أونيل.

كان جالساً يحدق في النار، وقد انحنى قليلاً إلى الأمام، بينما كانت ناتاشا تنام متكورة على حافة المدفأة. وعندما انفتح الباب رفع عينيه، ولكنه لم يتكلم، ولم يبد عليه السرور برؤيتها.

فاجتازت جوستين الغرفة، وركعت، واسندت رأسها إلى حجره وهمست:

ـ رين، إني آسفة من أجل كل تلك السنوات، ولن أستطيع التكفير عنها.

ولم ينهض على قدميه لكي يرفعها إليه، بل ركع بقربها على الأرض وقال:

ـ إنها أعجوبة.

وابتسمت له:

ـ إنك لم تكف أبداً عن حبي، أليس كذلك؟

ـ كلا، يا عزيزتي، أبداً.

ـ لا بد أني سببت لك الكثير من الألم.

ـ ليس بالطريقة التي تظنين. كنت أعلم أنك تحبينني، وكان بإمكاني الانتظار كنت أعتقد أن الانسان الصبور لا بد أن يربح في النهاية.

ــ وهكذا فقد قررت أن تدعني أجاهد بنفسي كي أفهم . إنك لم تقلق مطلقاً عندما أخبرتك بأني عائدة إلى دروغيدا ، أليس كذلك ؟

ــ آه ، بلى . لو قلت لي إنك ذاهبة لرجل آخر ، لما قلقت ، أما دروغيدا ! إنها غريم جبار . نعم لقد قلقت .

ــ كنت تعلم إني ذاهبة قبل أن أخبرك ، أليس كذلك ؟

ــ لقد زلّ لسان كلايد ، فقد اتصل ببون ليسألني إذا كان بإمكاني أن أفعل شيئاً لمنعك ، فطلبت منه أن يقاومك أسبوعاً أو أسبوعين على الأقل حتى أرى ما بإمكاني فعله . ليس من أجله يا عزيزتي . بل من أجلي أنا . فأنا لست معصوماً عن الأنانية .

ــ هذا ما قالته أمي . ولكن ، هذا المنزل ، أهو لك منذ شهر ؟

ــ كلا ، كما أنه ليس لي . على كل ، وبما أننا سنحتاج إلى منزل في لندن إذا كنت راغبة في متابعة عملك على المسرح ، فمن الأفضل أن أرى ماذا يمكنني أن أفعل للحصول عليه . هذا ما إذا كنت تحبينه ؛ وعندها سوف أترك لك حتى أمر فرشه وتزيينه إذا وعدتني بصدق ألاّ تملئيه باللونين الزهري والبرتقالي .

ــ إني لم أفهم أبداً تماماً مدى مراوغتك. لماذا لم تقل قط بأنك ما زلت تحبني؟ كنت أريدك أن تقول ذلك.

ــ كلا. لقد كان ذلك واضحاً، ولم يكن عليك ألاّ أن تنظري، وكان عليك أن تلاحظي ذلك بنفسك.

ــ لا بد أني عمياء. الحقيقة أنني لم أر ذلك بنفسي، فقد أحتجت إلى مساعدة. ولقد أجبرتني أمي أخيراً على فتح عيني. لقد استلمت منها رسالة هذه الليلة، تطلب مني بها ألاّ أذهب إلى البيت.

ــ إن أمك انسانة رائعة.

ــ إني أعلم أنك قد قابلتها يا رين، ولكن متى؟

ــ لقد ذهبت لرؤيتها منذ حوالي العام. إن دروغيدا مكان رائع، ولكنها لا تلائمك يا عزيزتي. لقد ذهبت حينها محاولاً أن أجعل أمك تفهم ذلك. ليتك تعلمين مدى سروري لأنها قد فهمت، مع أني لا أظن أني قد أعطيتها أسباباً مقنعة.

ومدت أصابعها تلامس فمه:

ــ أنا أيضاً كنت أشك يا رين. دائماً. وربما سأستمر في الشك إلى الأبد.

ــ « آه يا عزيزتي ، إني لا أرجو ذلك ! لن يكون هناك بالنسبة لي شخص آخر . أنت فقط . لقد علم الكون بأسره بذلك ، لسنوات . ولكن كلمات الحب لا تعني شيئاً . كان بإمكاني أن أصرخها في وجهك آلاف المرات في اليوم ، دون أن أغير من شكوكك ولا ذرة . ولهذا فأنا لم أتشدق بحبي يا جوستين ، ولكني عشته . كيف بإمكانك أن تشكّي بمشاعر أوفى اتباعك ؟ » .

وتنهد متابعاً :

ــ حسناً ، إن ذلك لم يأت مني على الأقل ، وربما ستستمرين في الاقتناع بكلام أمك .

ــ أرجوك ، لا تقلها بهذه الطريقة ! مسكين يا رين ، أظن أني قد أفقدتك آخر ذرة من الصبر . لا تتألم لأن الأمر أتى من أمي ، فلا أهمية لذلك . لقد ركعت على قدميك بتواضع .

ــ « شكراً لله أن هذا التواضع لن يدوم أكثر من الليلة » . قال بفرح أكبر . « سوف تعودين غداً إلى ما كنت عليه » .

وبدأ توترها يتلاشى ، لقد مر أسوأ ما في الموقف .

ــ إن ما يعجبني .. لا ، إن ما أحبه فيك هو أنك تجيبني دائماً بالمثل ، ولن ألحق بك أبداً .

فقال وهو يهز بكتفيه :

ــ «إذن ، انظري إلى المستقبل من هذه الزاوية يا عزيزتي . إن الحياة معي تحت سقف واحد ستعلمك كيف تلحقين بي » . وقبّل جبينها وخديها، وجفنيها. «إني لا أريدك إلاّ كما أنت يا جوستين . لا تغيري شيئاً حتى ولا نمشة واحدة من وجهك ، ولا خلية من ذهنك » .

ووضعت ذراعيها حول عنقه، وغرزت أصابعها في شعره الكث :

ــ آه لو تعلم كم اشتقت لأفعل هذا ! لم أستطع أن أنسى ، أبداً .

○

كانت البرقية تقول :

«أصبحت منذ لحظات السيدة راينر مورلنغ هارتهايم ــ حفلة خاصة في الفاتيكان ــ بركة بابوية ــ تزوجت وانتهى الأمر ــ سنأتي إليكم في شهر عسل متأخر بأقرب فرصة لكننا سنستقر في أوروبا ــ حبي لكم جميعاً ومن رين أيضاً .

جوستين

١٣٢١

ووضعت ميغي البرقية على المنضدة، ونظرت بعينين واسعتين عبر النوافذ إلى الورود الخريفية المتفتحة بوفرة في الحديقة. عبق الورود، نحل الورود. وزهر الخبيزة، وشجر الصمغ، والبوغنفيليا، وفوق العالم، مرتفعة، أشجار الفلفل. كم كانت الحديقة جميلة، ومليئة بالحياة. وما أجمل أن ترى الأشياء الصغيرة تكبر، وتتغير، ثم تذوى، وأشياء صغيرة جديدة تحل محلها في الحلقة تجدد نفسها بأناس مجهولين. لقد فعلت ذلك بنفسي، ولا أستطيع أن ألقي اللوم على أحد. ولا أستطيع أن أندم لحظة واحدة على ما مضى.

إن الطير الذي يغرز الشوكة في صدره يتبع بذلك قانوناً ثابتاً، وهذا القانون يفرض نفسه عليه. إنه لا يعلم ما الذي يدفعه إلى غرز الشوكة في صدره، فيموت وهو يغني. وفي اللحظة التي تخترقه بها الشوكة، لا يعلم بأن الموت قادم، ولكنه يغرد، ويغرد، ويغرد إلى أن لا تبقى فيه ذرة من الحياة لنغمة أخرى. أما نحن، فعندما نغرز الأشواك في صدورنا، فإننا نعلم، ونفهم. ومع ذلك فنحن نفعله، نحن نفعله مع ذلك.

انتهت الرواية

فهرس الجزء الثالث

الكتاب الخامس

في

١٩٣٨ ــ ١٩٥٣

الكتاب السادس

دين

١٩٥٤ ــ ١٩٦٥

الكتاب السابع

جوستين

١٩٦٥ ـ ١٩٦٩

فهرس الأجزاء الثلاثة

فهرس الجزء الأول

الكتاب الأول
ميغي
١٩١٥ ــ ١٩١٧

الكتاب الثاني
رالف
١٩٢١ ــ ١٩٢٨

فهرس الجزء الثاني

الكتاب الثالث

بادي

١٩٢٩ ـ ١٩٣٢

الكتاب الرابع

لوك

١٩٣٣ ـ ١٩٣٨

فهرس الجزء الثالث

الكتاب الخامس

في

١٩٣٨ ـ ١٩٥٣

الكتاب السادس

دين

١٩٥٤ ـ ١٩٦٥

الكتاب السابع

جوستين

١٩٦٥ ـ ١٩٦٩

طيور الشوك = The thorn birds / تأليف كولين مكلو ؛ ترجمة نضال حوّاط .ـــ ط . ١ . ـــ دمشق : دار طلاس ، ١٩٨٦ . ـــ ٣ ج . (١٣٢٨ ص.) ؛ ١٨ سم .

١ ـــ ٨٢٣ أ س م ك ل ط ٢ ـــ العنوان ٣ ـــ مكلو
٤ ـــ حوّاط

رقم الإيداع ـــ الجزء الثالث ٤١٧ / ٤ / ١٩٨٦

هـذا الكتـاب

«إن الحوادث التي تتعرض لها «طيور الشوك» هي قصص حقيقية، سمعتها تروى في البيت منذ كنت صغيرة. وعشت أحداث بعضها بنفسي. وعندما كنت أجلس أمام الآلة الكاتبة، كنت أفكر دوماً بذكريات وأشخاص حقيقيين، وهذا ما أعجب القراء. فهذه الرواية هي ثمرة الأمانة التي أصف بها أشياء أعرفها تماماً، بدءاً مني ومن عائلتي».

«رالف حقيقي ... وأمي هي التي أحبته».
«كان أحد أخوالي يملك مزرعة أغنام في قلب استراليا تشبه جداً «دروغيدا» ...».
«أبي كان قاطع قصب في كوينزلاند، مثل لوك، ومثله كان يجري دائماً وراء النقود، ولا يريد أولاداً ...».

كولين مكلـو